لمحات

في علوم القرآن

واتجاهات التفسير

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

لمحات
في علوم القرآن
واتجاهات التفسير

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنزل عليه القرآن هدى للناس وكتاباً مبيناً، فأعجز هذا الكتاب العربيُّ الخالد بُلغاءَ الدنيا وفصحاءها، وقامت على هداه حضارة انسانية عالمية ملأت ربوع الأرض عدلاً ونوراً وسمواً، وستبقى آيات القرآن مصدراً لكل خير وسعادة حتى تقوم الساعة. وصلاة الله وسلامه على هذا الرسول النبيِّ العربيِّ الأميِّ وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد

فهذه بحوث في القرآن وعلومه، حاولتُ فيها دراسةَ تاريخ القرآن الكريم، والتعريف بإعجازه وقراءاته وعلومه، وبأهم مناهج التفسير، مع التعريف ببعض الكتب المهمة التي تمثل هذه المناهج. بإيجاز شديد يمكنني من إعطاء فكرة واضحة عن أبرز معالم هذه الموضوعات المهمة.

ولا بد لي من تنبيه قراء هذا الكتاب ـ ولا سيا إخواني الطلبة ـ إلى أن هذه المباحث النظرية التي ضمها هذا الكتاب تمثل جانباً، وهناك جانب آخر لا يقل عنه أهمية وشأنا.. إنه دراسة نصوصٍ من القرآن الكريم.

إنَّ عليهم أن يعيشوا في رحاب القرآن، وفي ظلال نصه الجميل، وأن يُعنوا بتلاوته ودراسته دراسةً أدبيةً تتيح لهم أن يتعرفوا مواضع الجمال الفني، وأن يتوصلوا إلى إدراك أسرار الإعجاز. وإن عليهم أن يتوجوا هذه الدراسة بحفظ آيات وسور منه.

وفي هذه الدراسة التطبيقية لآيات القرآن الكريم فوائد من أهمها:

* العيش الكريم في ظلال هذا القرآن، والشعور بالسمو والارتفاع، ذلك أنك ـ عند تلاوتك للقرآن ـ تقرأ كلام الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ليبلغه للناس. إن النفس المسلمة لتشعر بكثير من السمو والارتفاع عندما تتصور أن الله العلي القدير مالك الملك يرسل إليها هذا الكلام، ويحمله إليها خير الخلق محمد صلّى الله عليّه وسلّم.

* ومنها تذوق الجمال وتعرف أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وفي ذلك تقدير للقرآن الكريم حق قدره، وفيه متعة دونها كل متع الدنيا.

* ومنها صقل الأسلوب، والارتفاع به، والتمكن في اللغة العربية، وذلك بسبب الاتصال بأعلى مستوى في البلاغة والبيان.

وقد سميت هذا الكتاب

«لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير».

وقسمته قسمين:

القسم الأول: في القرآن وعلومه. ويتألف من ثلاثة أبواب، هي:

الباب الأول: في القرآن. وفيه سبعة فصول.

الباب الثاني: في تاريخ القرآن. وفيه أربعة فصول.

والباب الثالث: في علوم القرآن. وفيه ثلاثة فصول.

والقسم الثاني: في التفسير واتجاهاته. ويتألف من ثلاثة أبواب، هي:

الباب الأول: في أصول التفسير.

الباب الثاني: في تاريخ التفسير، وفيه أربعة فصول.

الباب الثالث: في مناهج التفسير، وفيه ستة فصول.

وأنا اسأل الله أن يسدد خطانا على طريق الحق، وأن يجعلنا ممن يعيش وَفْقَ أحكام القرآن، وممن يجاهد بالغالي والثمين ليحكم القرآن. ويسود حياتنا في جوانبها جميعاً، ويومئذ تعود لنا عزتنا السابقة، وتتبدل أوضاعنا من فُرقة إلى اجتماع، ومن ضعف إلى قوة، ومن هزيمة إلى نصر، ومن تخلُّف إلى تقدم، وأسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، والحمد لله رب العالمين.

الرياض في ١٣٩٣/٥/٢٧ هـ

١٩٧٣/٦/٢٨ م

محمد بن لطفي بن عبد اللطيف ياسين الصباغ

أعدت النظر في الكتاب وقدمته للطبع مرة ثانية ١٤٠٥/٧/١٦ هـ

١٩٨٥/٤/٦ م

* * *

مقـدِّمَة

بقلم الأستاذ الكبير
الشيخ علي الطنطاوي

كانت العناية على عهدنا بالطلب بالفقه وبالنحو، يرون أن الفقه ثمرة علوم الدين، لأنه يبين الحلال من الحرام، والنحو خلاصة علوم العربيـة، لأنه يعصم الانسان من الخطأ في الكلام.

وكان الفقه يلقى علينا أحكاماً بلا دليل كمواد القانون، والنحو قواعد بلا شواهد، وكان ذلك هو القاعدة في مناهج المدارس، وفي طرق القراءة على المشايخ، وهما أسلوبان كنت أنا أول ـ أو من أوائل ـ من جمع بينهما في الشام، ثم إذا تقدم الطالب قرأ مع النحو البلاغة، ومع الفقه الأصول، وربما قرأ رسالة في المصطلح، وكانوا في ذلك كلـه يفضلـون (لا سيما في الدراسة على المشايخ على الطريقة الازهرية) يفضلون الأراجيز كالألفية، والزبد، والجوهرة، يحفظها الطالب غالباً بلا فهم.

أما علوم القرآن فلم يكن لها ساعة مخصوصة، ولا كتاب معين نقـرؤه، وإنما هي أشتات من المسائل، تأتي عرضاً في درس التجويد أو الحديـث، وأكثر ما استفدته منها كان من المشايخ الذين جودت عليهم تلاوتي، ولا أقول: إنني صرت من المجودين أو إنني ممن جمع القراءات، وإنما وصلـت بحمد الله إلى أن اقرأ قراءة صحيحة.

كان منهم شيخ القراء الجامع على الشاطبية وهو الشيخ محمد الحلواني، وكان في جامع التوبة، في حينا في العقيبة، والشيخ عبدالله المنجد الجامع على الطيّبة، والشيخ عبد الرحيم دبس وزيت، وولده تلميذ أبي وشيخي الشيخ عبد الوهاب، وعما استفدناه من أساتذتنا ومشايخنا كالشيخ صالح التونسي في دروسه العامة في الجامع الأموي، وحينما كان يعلمنا في المدرسة الجقمقية عند الشيخ عيد السفرجلاني معلم الشام نحو سنة ١٣٣٧.

وأول كتاب في علوم القرآن وقعت يدي عليه، هو كتاب التبيان لشيخ مشايخنا الشيخ طاهر الجزائري مربي الطبقة التي سبقتنا من أساتذتنا والذي كان من تلاميذه المقربين محمد كرد علي، ومحب الدين الخطيب، والشيخ سعيد الباني.

وكان من ثمرات جهده وإخلاصه في عمله المكتبة الظاهرية، والمدارس الابتدائية الرسمية، والذي على يده وبمسعاه تم فتح مدارس البنات في الشام، وكانت أول فتاة درست فيها ونالت الشهادة الرشدية وهي فوق الابتدائية وتحت الكفاية (الكفاءة) ومن أوائل من تعلم في هذه المدارس وأخذت منها شهادتها عمتي، وكانت شهادتها عندي وتاريخها سنة ١٣٠٠ هـ في مطلع القرن الماضي، وكان مما تدرسه البنات رسالة صغيرة كانوا يدعونها (علم حال) كما سماها الاتراك، وهي لمفتي الشام الشيخ محمود الحمزاوي، أو محمود أفندي الحمزاوي، كما كنا نلقب من يلي القضاء او ينصب للافتاء. وبقيت عمتي رحمها الله الى آخر عمرها تحفظ هذه الرسالة غيباً، فاذا سألتها ما الفرض؟ قالت: الفرض ما ثبت بدليل قطعي متناً وسنداً. والواجب.... تكرُّها كراً.

وفي هذه الرسالة مسائل من الأصول قليلة، ومسائل كثيرة من الفقه على المذهب الحنفي الذي كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية.

ثم رجعت الى الأصل الذي استمد منه الشيخ طاهر وكل من ألّف في

هذا الموضوع من بعده وهو « الإتقان » للسيوطي.

و« الاتقان » ليس معرضاً فيه سلع مرتبة مصفوفة، مصنفة يمتاز جيدها من رديئها، ولكنه مستودع فيه البضائع مركومة ركماً من كل نوع وكل صنف.

وتلك كانت سنة التأليف على عهد السيوطي، فقد بدأت العلوم كما يبدأ كل شيء صغيراً: مسائل تضم الى مسائل، كالسواقي التي تأتي من الينابيع، ثم تكون جدولا، ثم تصير الجداول نهرا، ثم يتجمع ماء النهر في بحيرة كبيرة.

تألفت من هذه المسائل فصول، ومن الفصول كتب، ولو صنعنا صنيع الرياضيين، فصورنا ذلك بخط بياني لرأيناه يصعد ويصعد حتى اذا كان القرن الرابع والخامس كان قد بلغ غاية صعوده، ثم مشى مستقيماً لا يرتفع ولكن لا ينخفض ثم بدأ النزول والانخفاض.

ولكن الله قيض لهذه العلوم قبل أن تبدأ بالانحطاط من يجمع متفرقها ويحشد مسائلها، في كتب شاملة، فكان عصر ما يسمى بـ (دوائر المعارف) أو (المعلمات) وأنا اقول لدائرة المعارف (Encyclopedea): معلم على وزن معجم وأراه أفضل من قولنا معلمة ومعلمات.

فكان منها « الاتقان في علوم القرآن »، و« المزهر في علوم اللغة »، و« نهاية الأرب »، و« صبح الأعشى » وامثالُها. كتب كبيرة يختار منها، ولا تؤخذ كلها كمعرض للثياب فيه الأزياء العربية والأفرنجية، وملابس البدو والحضر، والرجال والنساء، في هذه الكتب الرأي ونقيضه، همُّ مؤلفيها الجمع لا التحقيق والتمييز والتصنيف، واستمرت الحال كذلك حتى انقضى ما يسمونه بعصور الانحطاط، وبدأ عصر النهضة الجديدة فرأينا في الشام من يؤلف الكتب الكثيرة لكن على طريقة « الاتقان » و« المزهر » ككتب شيخ مشايخنا الشيخ جمال الدين القاسمي.

ومن قرأ كتابه « قواعد التحديث » مثلا أو رجع الى مقدمة تفسيره وجد نقولا نادرة قيد أوابدها، وجمع شواردها، لكن لم يؤلف بينها ولم يتخير أرجحها وأقواها، فكأنَّ عصره امتداد لعصر السيوطي، وأسلوبه في التصنيف استمرار لأسلوبه، وهو جمع المعلومات في كتاب واحد، كما يجمع التاجر في المستودع أكبر قدر من السلع والبضائع.

ومن المؤلفين طبقة أعلى من هذه الطبقة، وإن جمع أصحابها قدراً أقل من المعلومات، فرتبوها وصنفوها وميزوا الأصيل منها من المقلد، وفرقوا بين المؤتلف والمختلف.

ودرجة أعلى من المصنفين هم الذين يأخذون هذه المعلومات وهذه الأخبار والمرويات فيدخلها أحدهم ذهنه كما تدخل إبّالات القطن (البالات) الى مصنع النسيج فتخرج منه قماشاً عليه شارة المصنع، وذلك مثل الغزالي.

وإن كان الغزالي في « الإحياء » قد خلط الصوفية التي انتهى اليها بالطريقة الفكرية التي عاش عليها، فكأنَّ الواحد فيه صار اثنين: الغزالي العالم الذي يحكّم عقله في ترجيح الروايات، وفهم النصوص، وهذا هو عمل العقل فيها، كما قال ابن خلدون.

والغزالي الصوفي الذي يدع الحقيقة الشرعية التي يعرفها، ويعتمد مشاعر قلبه، وما تلقفه عمن جعلهم مشايخه من الصوفية، وهو أعلم وأجل منهم، والعجب كما قلت من قديم أن الغزالي كتب هذا الكلام في الاحياء في القرن الذي توالت علينا فيه المصائب من الشرق والغرب، وجاءنا العدوان القويان الهمجيان يفسدان ديننا ويقوضان أركان حضارتنا: التتار والمغول الشرقيون، والصليبيون الاوربيون، يوم كانت أوروبة يعيش اهلها كالذئاب، في أعماق الغاب، وأتصور أحياناً ماذا يكون حال المسلمين لو أنهم أخذوا بما جاء في « إحياء علوم الدين » فقللوا الاكل حتى أصابهم

الهزال. وربما أدى بهم الى السل، وقصد كلٌّ ركناً مظلماً فعاش فيه عيشة الخمول!! من كان يجاهد في سبيل الله؟ ومن كان يرد هذا العدوان عن دين الله؟ [1]

* * *

ولقد كان في عصر الشيخ طاهر من نحا في التأليف منحى الغزالي[2] وان لم يجاره ولم يدانه، وهو العالم الذي لا يتنبه اليه ويعرف فضله الا القليل، كان له كتابان، من قرأهما ادرك صحة ما قلت عن مؤلفهما، هما كتابه «عمدة التحقيق» [3] وكتابه الذي ألفه عن حكم لبس الحرير، وهو شيخنا الشيخ سعيد الباني، جاء به الاستاذ محمد كرد علي لما فتحت مدرسة الآداب العليا التي دعيت من بعد كلية الآداب سنة ١٩٣٠ م جاءنا به بعدما ذهب شبابه وضعفت همته، فلم يجد الطلاب فيه ما كانوا ينتظرونه منه، ولعلكم تعجبون إذا قلت لكم: إنه كان معنا بين الطلاب من هم اساتذتنا، ومن هم في السن مثل آبائنا، كالشيخ زين العابدين التونسي، والاستاذ عبد الغني الباجقني. جاؤوا لا ليحصلوا علماً ولكن ليحملوا شهادة تنفعهم في وظائفهم.

والشيخ سعيد لم يتزوج، ولم يخلف ولداً، ولكن له ابن أخ يتمنى كل عالم ان يشرف بأن يكون عمه ذلكم هو العالم العامل الصالح الاستاذ عبد الرحمن الباني.

* * *

ثم كثرت المصنفات في علوم القرآن، فكان من أجمعها كتاب العالم الذي صحبته في مصر حينا، الشيخ عبد العظيم الزرقاني مؤلف «مناهل

---

(١) ولا يزال الغزالي ـ لولا هذا ـ المفكر الإسلامي الأول.

(٢) نحا منحى الغزالي في تفكيره العلمي لا في اتجاهه الصوفي.

(٣) طبعه المكتب الاسلامي مجدداً.

العرفان في علوم القرآن» وهو كتاب جليل، ولكنه لا يخلو من استطراد وتطويل، وربما اختار في الامور الخلافية القول المرجوح وترك الراجح، وان كانت هذه الهنات الهينات لا تسلب الكتاب قدره ولا تحط مؤلفه عن منزلته.

والذي يكتب في الأدب يكون حراً في اختيار الموضوع، حراً في اسلوب عرضه، يقول ما يشاء، ويمشي من حيث يشاء، أما الذي يكتب في موضوع ديني فإنه لا يستطيع أن يخرج فيما يكتب عن الجادة المرسومة، ولا ان يجدد في الموضوع لأنه دين، والتجديد فيه رد على صاحبه، فلم يبق من مجال أمام مؤلفي هذه الكتب الا التفاوت في جودة الفهم وحسن العرض. وليس ذلك سهلا، وما كل من فهم مسألة استطاع أن يفهمها، وتبسيط العلم[1] ميزة اختص الله بها قليلا من العلماء، أعرف منهم في عصرنا صديقنا بل استاذنا الشيخ عبد الوهاب خلاف، أول من عبّد للطلبة طريق الوصول الى علم الاصول، وسهله ووضحه، ومنهم صديقنا بل استاذنا أيضاً الشيخ شلتوت، واذا انت رأيت معلماً يلقي المسألة فلا يفهمها التلاميذ فيستوضحونه فيحاول التوصيح فلا يأتي بأكثر مما قال فاعلم انه حفظ المسألة وما فهمها أو هو (بالتعبير الجديد) ما هضمها.

ومن فهم المسألة حقاً استطاع أن يفهمها الناس جميعاً لأنها تصير ملكاً له يتصرف فيها تصرف المالك بملكه. وألفاظ اللغة بين يديه يختار منها ما شاء بارادته، فلا يزال يبدل لفظاً بلفظ وعبارة بعبارة، حتى يجد العبارة التي يوصل بها المسألة الى افهام التلاميذ. كبائع الثياب يأتيك بالثوب لتقيسه، فاذا وجدته عريضاً جاءك بأضيق منه، واذا كان طويلا اتاك بأقصر، حتى تجد الثوب الذي يلائمك ويصلح لك، ومن الامثلة على هذا الطراز من المدرسين الشيخ الشعراوي في احاديثه في التفسير وفي الاعجاز

---

(١) أي جعله بسيطاً بالمعنى العامي لا الفصيح، لأن البسيط في اللغة هو الواسع المبسوط.

وممن اوتوا هذه القدرة على التوضيح، وعلى حل المعقدات، حتى ليعجب السامع منها كيف انحلت عقدها، منهم في مجال الرياضيات والعلوم رجل اذا انا ذكرت الحق في الثناء عليه اتهمت وصرت كالذي يمدح نفسه، رجل يدرس الرياضيات في الجامعة من أربعين سنة يحملون اليه أصعب المسائل في الرياضيات بل وفي العلوم الطبيعية، فيرجعون وقد سهل صعبها وعم فهمها، عنده في ذلك طاقة نادرة، ولكن لا يدري بها الا قليل، لأنه لا يمشي في ضوء الشهرة، بل يختار الممرات المظلمة والحارات الضيقة، هو أخي الدكتور عبد الغني الطنطاوي، جاء المملكة متعاقداً معه، بعدما أحيل على التقاعد (على المعاش) يدرس في جامعة مكة، من أربع سنين، ولكنهم لم يأخذوا منه الا عشرة في المائة مما معه من علم، لا هو يعرض علمه ولا هم يدرون به فيسألونه عنه . وقريب منه في القدرة على الشرح والتوضيح الدكتور محمد الهواري، ومن هذه الزمرة من الاساتذة مؤلف هذا الكتاب الذي اقدم له.

انه أحد (الفرسان الثلاثة) الذين عرفتهم تلاميذ صغاراً وأراهم اليوم ويراهم الناس اساتذة كباراً، عصام العطار، وزهير الشاويش، ومحمد لطفي الصباغ مؤلف هذا الكتاب، ولم ألقبه بعد بالدكتور لأنه ان كان (في الدكاترة) كثرة أخذوا الشهادة بحق واستغلوها لنصرة الحق وضموا اليها العلم، فإن منهم من شهادته كشهادة الزور في المحكمة، تدرَّج آلياً في مراحل الدراسة حتى وصل اليها، فانتهى عندها واكتفى بها، وصارت له مثل الصحيفة الصفراء، التي تجدون خبرها في الكتاب الخالد، والخلود في الدنيا مجازي لا حقيقي، وهو كتاب (كليلة ودمنة).

ان بدأ كثير من الدكاترة بهذه الورقة دخلوا الى الحصول عليها من

الباب فأخذوها بالحق ثم جعلوها بداية طريق العلم، فثابروا على المسير فيه والصعود في مدارجه، فإن منهم من دخل في الليل من النافذة لا من الباب، فاستولوا عليها بالباطل.

أما الشيخ محمد الصباغ فقد نالها بعد ما حمل من العلم ما يغنيه عنها، درس كما يدرس الطلاب في المدارس الى آخر الجامعة، وقرأ على المشايخ في الشام، وصحب الفقيه المفكر (الشيخ صالح العقاد) وكذلك صنع اخونا الدكتور أمين المصري رحمه الله، ذهب يطلبها وهو عالم ازهري، ومدرس ألمعي، فكانت الدكتوراه للمصري وللصباغ قطعة حلوى على مائدته، ان وجدت نفعت ولذت، وان فقدت ما ضرت وما جوعت.

ورب دكتورية (دكتوراه) هي خبز المائدة وادامها ليس عليها غيرها.

* * *

علوم القرآن مما ينبغي لكل مسلم متعلم ان يطلع عليها، أو على كبريات مسائلها، والكتب العصرية فيها كثيرة وفيرة، ومؤلفوها اخوان لي أحبهم وأقدرهم، وأشهد مع ذلك للأستاذ الصباغ من غير أن أشهد عليهم، أدل من يسألني على كتابه ولا أسلب تلك الكتب فضلها، ولا أذم أهلها، لأن كتاب الصباغ ان لم يكن خير هذه الكتب فهو من خيرها، إيجازاً في غير اخلال، وتوضيحا بلا املال، وفيه الشواهد والامثال، ومما سرني منه أنه اختار في المسائل الخلافية ما أرى انا (على قلة علمي) انه الحق، كالخلاف في مسألة رسم القرآن. فالذي أذهب اليه من القديم، وادعو اليه، وألح عليه، هو أن يكتب المصحف للطلبة وللعامة بالكتابة المعروفة (أي بالرسم المألوف).

ولا أقول: إنه أخذ ذلك مني، بل أحمد الله على أن رأيه وافق رأيي، ولقد كتبت من قريب فصلا طويلا فيما كنت أنشر كل اسبوع في جريدة الشرق الأوسط بعنوان (فتاوى) وهذا الفصل ستقرؤونه إن شاء الله قريباً، حينما تجمع هذه الفتاوى في كتاب، والعجب من اتفاق العلماء الآن

من غير دليل لهم من كتاب ولا سنة، ولا نقل عن معصوم، وانما هي أقوال لأئمة يخطئون ويصيبون، على التزام هذا الرسم العثماني، وهم يرون الطلاب يخطئون في قراءة القرآن، والله انزله متلوا لا مكتوباً، وأوجب علينا في بعض الحالات (في الصلاة مثلا) قراءة شيء منه، ولم يلزمنا أبداً بكتابة شيء، حتى ان أحد الاساتذة الكبار، والمحدثين المشهورين، وقد مر ذكره قبل أسطر معدودة قال: إن كتابته توقيفية.

وأنا لم أفهم الى الآن ما معنى هذا الكلام؟ لأن التوقيف هو الوحي، والذين كانوا يكتبون لا يوحى اليهم، والذي كان يوحى اليه ﷺ لا يكتب، فكيف صارت الكتابة توقيفية؟ هذا وفي الفتوى ادلة كثيرة لا مجال الآن لذكرها. على أن الاستاذ الصباغ جزاه الله خيراً وفّى هذا الموضوع حقه، فأفاض فيه وأفاد.

ومن مزايا هذا الكتاب انه لم يدع مؤلفه فيه غامضاً إلا وضحه، ولا شيئاً يتعسر فهمه على الطلاب إلا شرحه، فكان كتابه مفيداً في اللغة والأدب فوق فائدته القراء في موضوعه الذي ألف له.

ومن مزاياه انه ان نقل عن كتاب دل القارىء على الجزء والصفحة المنقول منها، فعرفهم بالمراجع، ومعرفة المراجع علم ربما أخصى (أي تخصص فيه) بعض الباحثين.

حقق الأحاديث وبين درجتها، وآفة كثير من الكتب العصرية انهم يثبتون في كتبهم أحاديث لا يتبينون درجتها، ولا يسمون مخرجها، ولا يتثبتون من صحتها.

وكنت أرجو منه لما تكلم في الاعجاز ان يشير الى كتاب الاستاذ الحمصي الذي قدم له شيخنا الشيخ بهجة البيطار، وطبعه المجمع العلمي (مجمع اللغة العربية في دمشق) إذ لخص في هذا الكتاب مذاهب الأولين في

بيان أسباب الاعجاز، وكنت أرجو أن يشير الى الشيخ الشعراوي وما أعطاه الله من موهبة في الكلام في التفسير وفي وجوه الاعجاز، وانه يجيء بما لم يسبق اليه ولم يلحق فيه، وان كانت له كما يكون لكل انسان زلات، كادعائه أنَّ الهواء جزءٌ من الأرض لقوله تعالى: ﴿سيروا في الأرض﴾ ولم يقل: (سيروا عليها)، وان كان في هذا استدلال فالقاعدة انه لا عبرة بالدلالة في مقابلة النص، والله قد نص في كتابه على ﴿السحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ ومعلوم أن السحاب في الهواء، فكان ذلك نصاً على أن الهواء ليس من الأرض، على أن أصل الاستدلال غير مسلم، فاذا نازعك جارك وادعى انك تسير على أرضه، قلت له: بل انا أسير في أرضي، فلا فرق في الاستعمال بين قولي (سرت في الارض) و (سرت على الأرض) وإلا فهم من قولنا (يسير في الأرض) انه يحفر فيها جحراً ويدخل في باطنها، كما تدخل الجرذان.

ومما يؤخذ عليه ذهابه إلى أن آزر عم إبراهيم وليس أباه، كما ذهب الى ذلك كثير من المفسرين، لتأثير الاسرائيليات عليهم، وهذا قول لا سبيل إلى قبوله بعد أن صرح الله بقوله: ﴿واذ قال ابراهيم لأبيه آزر﴾.

ومما كنت أرجوه من الاستاذ المؤلف لما كتب عن مصير المصاحف العثمانية ان يشير الى ما كتب الكوثري عن مصحف دمشق وغيره، واذا كان الاستاذ الصباغ والاستاذ الشاويش والاستاذ الشيخ ناصر الدين يخالفون الكوثري في مسائل فلا تمنع هذه المخالفة أن يأخذوا ما عنده من الصواب، لأن الحكمة ضالة المؤمن. أما مصحف الشيخ عبد الحكيم الافغاني الذي اشار اليه فقد لبثت دهراً من عمري اظن انه قد نسخه عن المصحف العثماني نسخاً كاملا، وما زلت ابحث عنه حتى وجدته عند آل الدوجي (وهم فرع من أسرة الصواف) وكانوا يلازمون الشيخ عبد الحكيم ويخدمونه، فوجدته مكتوباً بالخط العادي.

ولما نشرت مجلة العربي استطلاعاً (ريبورتاج) مصوراً عن استامبول[1]، رأينا صورا لمصحف عثمان الذي كان في جامع دمشق في قبة الخزانة في صحن الجامع من الجهة الغربية، وهي غرفة عالية تحت قبة قائمة على أعمدة ثمانية، ما لها إلا باب صغير، كنا ونحن صغار نسمع ان فيها كنوزاً وأموالا للجامع الاموي، ثم علمنا أن جمال باشا قد فتح بابها ونقل ما فيها إلى استامبول.

ولصديقنا الذي هو بمنزلة أستاذنا الشيخ راغب الطباخ بحث جيد عن مصير هذه المصاحف العثمانية في كتابه (الثقافة الاسلامية).

وكنت أتمنى على الاستاذ الصباغ لما تكلم عن التفسير والتأويل، وذكر أقوال من سوى بينهما ومن فرق، أن يذكر شيئاً ادركته انا على ضعفي وعجزي وقلة علمي هو أن التفسير بيان للمعنى المراد، من فسر بمعنى سفر أي ظهر، وهو باب معروف عند العرب كقولهم يئس وأيس وجذب وجبذ، فان عديّت فعل فسر أي ظهر بالتضعيف قلت: فسّرته تفسيراً، أي كشفته وبينته.

والتأويل من آل الأمر الى كذا أي رجع اليه، فإن عديته قلت: أولته تأويلا. والتأويل تأويلان:

تأويل حال، وتأويل مقال.

والأول أكثر وروداً في القرآن ﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي تحقيق الحال الذي يصير اليه.

والثاني ما استقر عليه الاصطلاح حين يفرقون عند الكلام على آيات الصفات بين من يؤول، أي ينقل الكلمات عن معناها الأصلي الظاهري الى

(١) والذي سماها اسلامبول أي مدينة الاسلام هو السلطان محمد الفاتح، و (بول): مدينة فهي بمعنى اسلام أباد التي صارت عاصمة باكستان.

معنى آخر، وبين من لا يؤول. ان نؤمن بما جاء من عند الله الا في المواطن التي لا بد فيها من شيء ربما دعي التأويل على توسع في معنى الكلمة، كقوله تعالى في آية واحدة: ﴿استوى على العرش﴾ وقوله: ﴿وهو معكم اينما كنتم﴾ فالاجماع على انها ليست معية ذات، تعالى الله عن ذلك، ولكنها معية علم وبصر وسمع، ومثلها: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ يمنع ارادة المعنى الأصلي، أي القاموسي في كلمة ﴿فنسيهم﴾ ان النسيان مستحيل على الله ﴿وما كان ربك نسياً﴾.

ولعل منشأ الخلاف ان هذه الكلمات وضعت في لسان العرب قبل نزول القرآن، وأن القرآن نزل بهذا اللسان، وانها وضعت لمعان بشرية أرضية، فلا يجوز ان نفهمها بهذه المعاني لأن الله ليس كمثله شيء، ولأن الخالق لا يشبه المخلوق، ولا يجوز أن نخرجها عن معانيها كلها فنجعلها ألفاظاً معطلة لا تدل على شيء. وفي كتابي «تعريف عام بدين الاسلام» بيان لهذا الذي اقول.

* * *

وبعد فما كان بي حاجة الى كتابة هذه المقدمة، لأن المقدمات انما تكون تعريفاً بكاتب مجهول، أو بحث جديد غير معروف.

والكاتب هنا الاستاذ الصباغ، معروف بفضله الذي يبدو في آثار قلمه، وفي بيانه، الذي يظهر دائماً على لسانه، وفي علمه الذي يشهد به عارفوه، ويستفيد منه تلاميذه، فهو رجل قد جمع سعة الاطلاع، وجودة الالقاء، وسلامة اللغة، والبعد عن اللحن، وهو محدث موفق في الاذاعة والرائي، ومدرس ناجح في الجامعة وفي الجامع، ظاهر المكان، متميز الرأي في الندوات الاسلامية، عامل دائب في حقل الدعوة الى الله، قادر على توضيح المسائل وتقريبها الى الشبان، وهو سليم العقيدة، سلفي المشرب، مثل أخويه عصام وزهير، وفقهم الله جميعاً وقواهم وأكثر من امثالهم.

علي الطنطاوي

القِسم الأول

القرآنُ وَعُلومُه

الباب الأول

القرآن

سنتحدث في هذا الباب عن القرآن وتعريفه، ووصفه، وخلوده، ودوره في حفظ لغتنا والابقاء على أمتنا وإصلاح أوضاعنا ونهضتنا، وكونه دستور المسلمين وعن أسماء القرآن وعن ظاهرة الوحي وعن نزوله منجماً وعن آياته وسوره وإعجازه.

الفصل الأول

في تعريف القرآن ووصفه ودوره في ماضينا ومستقبلنا

تعريف القرآن الكريم:

القرآن هو كلام الله المعجز، ووحيه المنزل على نبيه محمد بن عبد الله ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبَّد بتلاوته.

ويقتضينا فهم هذا التعريف شرح بعض الأمور:

* فقولنا (كلام الله) إشارة إلى أن هذا القرآن كلام الله. فخرج بهذا القيد سواه من كلام البشر والجن والملائكة.

* وقولنا (المعجز) إشارة إلى أن هذا الكلام أعجز البشر والجنَّ أن يأتوا بمثله، وسنفرد موضوع الإعجاز بفصل خاص إن شاء الله. وخرج بهذا القيد كلام الله الذي عبَّر عنه الرسول بلفظه.

* وقولنا (وحيه المنزل على محمد) مخرج للكلام الإلهي الذي نزل على الأنبياء السابقين، والكلام الالهي الذي ألقاه الله إلى ملائكته ليعملوا به، لا لينزلوه على أحد من البشر. وسنفرد موضوع الوحي بفصل خاص.

ووحي الله كثير، وكلماته لا حصر لها. قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لكلماتِ ربِّي لَنَفِدَ البحرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كلماتُ ربِّي وَلَوْ جِئْنَا

بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ، والبَحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بعدِهِ سبعةُ أبحرٍ ما نفِدَتْ كلماتُ الله﴾[2].

* وقولنا (المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته) مخرج للأحاديث القدسية، والأحاديث النبوية التي كانت وحياً من الله[3]، وللآيات التي نسخت تلاوتها فلم تعد مكتوبة في المصحف، ولبعض القراءات التي نقلت إلينا بطريق الآحاد.

ومما ينبغي شرحه كلمة (التواتر) التي وردت في التعريف، فالمتواتر هو ما يرويه جمع يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم في كل مراحل السند من أوله إلى آخره[4].

وصف القرآن الكريم:

القرآن ـ كما أسلفنا ـ هو كلام الله المعجز ووحيه المنزل، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ بلسان عربي مبين، وهو كما جاء في الحديث الضعيف التالي:

«كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع

---

(١) الكهف: ١٠٩

(٢) لقمان: ٢٧.

(٣) ذكرت في كتابي «الحديث النبوي» ١٦٣-١٦٥ أن حديث رسول الله ﷺ ينقسم الى قسمين: قسم أوحى الله اليه معناه ولكنه لم ينسبه الرسول الى ربه، وقسم قاله الرسول اجتهاداً. وذكرت أنه لا فرق بينهما من الناحية العملية، لأن على المسلم أن يمتثل أمر الرسول سواء أكان الحديث من هذا القسم أم من ذاك. إذ أنه عليه الصلاة والسلام متصل بالوحي يقره على الصحيح وينبهه على الخطأ.

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابي «الحديث النبوي» ص٢٣٦-٢٤٣.

منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[1] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم»[2].

خلود القرآن الكريم:

والقرآن الكريم باق ما بقيت الدنيا، يتحدى كل عوامل الافناء والفناء، وذلك بحفظ الله له. فلقد تولى الله تبارك وتعالى حفظه. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3] ولم يكله إلى الناس يحفظونه كما فعل سبحانه بالكتب السابقة قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيها هُدىً ونورٌ، يَحْكُمُ بها النبيُّون الذين أَسْلَمُوا للذينَ هادُوا، والربَّانِيُّونَ والأحبارُ بِمَا استُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ وكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾[4].

وبما تضمنه من الحلول المحكمة لكل مشكلات الانسان في كل زمان ومكان، وذلك لكمال شريعته، إذ كان آخر الكتب السماوية ﴿اليومَ أكملتُ لَكُمْ دينَكُم، وأتممْتُ عليكُمْ نِعْمَتِي ورَضيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً﴾[5].

ومن أدلة خلود هذا الكتاب الكريم أن الانسانية رأت كثيراً من الروائع أعجب بها الناس حيناً من الدهر، ثم لم تلبث هذه الروائع أن بليت،

---

(١) سورة الجن: ١ ـ ٢.

(٢) أخرج هذا الحديث الدارمي ٢/٤٣٥-٤٣٦ و الترمذي ٤/٥٢ عن علي مرفوعا، وسبب ضعفه وجود الحارث بن عبد الله الأعور في سنده، وهو ضعيف. توفي سنة ٦٥ هـ. انظر مقدمة صحيح مسلم فقد أورد تجريحاً له كبيراً ١/١٩ ط عبد الباقي و١/١٤ ط استانبول و«ميزان الاعتدال» ١/٤٣٥ وانظر «الفوائد المجموعة» ٢٩٦ وتعليق العلاَّمة المعلمي اليماني على هذا الحديث.

(٣) سورة الحجر: ٩.

(٤) سورة المائدة: ٤٤.

(٥) سورة المائدة: ٣.

واستنفدت أغراضها، وأصبحت قطعة من الماضي لا تتصل بحاضر الناس بسبب، أو أن يكون قد سحب عليها النسيان بذيله فلم يعد لها وجود على الاطلاق.

كم طرحت حلول! وكم عرضت نظريات! وكم أعلنت مبادىء ادَّعت قـدرتها على حـل معضلات الحيـاة!!. ولم تلبـث أن عجـزت وأفلسـت وتوارت، ولم يعد يذكرها أحد.

أما القرآن فهو الخالد إلى أبد الدهر، الجديد الذي لا تبلى جدته مهما تقدم الزمان.

دور القرآن في حفظ لغتنا والابقاء على أمتنا:

لقد مرَّت على أمتنا خلال عصور تاريخها الحافل أيام قاسية، ونكبـات سود، وكانت بلادها هدفاً لموجات همجية ووحشية، أهلكت الحرث والنسل، ودمرت كل مظهر من مظاهر الحضارة. وكانت هذه البلاد مسرحاً لفتن طائشة عمياء روَّعت الآمنين، وقضت على أسباب الازدهار والاستقرار، وآل الحكم فيها خلال أحقاب طويلة الى عناصر أعجمية لا تعرف العربية ولا يستريح كثير منها الى العرب، وعمَّ أبناء الأمة جهل مطبق وأمية بشعة، فصارت أمتنا الى التفرق والهوان، وتعرضت لغتنا الى الضعف والانحلال.

ولو أن هذا الذي ذكرناه حدث في أمة أخرى لذهب ريحها، ولانقرضت لغتها، ولكن هذا القرآن الكريم بقي الحارس الأمين الذي حفظ على هذه الأمة كيانها، ومقومات وجودها وذاتيتها، وحمى لغتها من الضياع، ولولاه لانقرضت العربية وذابت خلال هاتيك الكوارث التي غشيت هذه البلاد وسكانها أوقاتا طويلة.

إننا لنستطيع أن نقرر بكل ثقة وقوة أن العرب لما ارتقوا في سلم الحضارة

وأبدعوا ما أبدعوا في جوانبها، وأن اللغة العربية هي لغة القرآن، وأن القرآن سبب خلود لغة العرب واستمرار وجودهم.

هذا وقد أدرك أعداؤنا ذلك فجعلوا مهمتهم الأولى أن يصرفوا أبناء المسلمين عن القرآن. جاء في كتاب «الغارة على العالم الاسلامي» قول بالكراف الآتي: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه)[1].

القرآن أساس الاصلاح وسبب النهضة والمجد وهو دستور المسلمين:

كان القرآن الكريم المشعل الوقاد، والمنار المضيء، ينير لأجيال أمتنا الطريق نحو المجد والرفعة والسعادة وقيادة الدنيا الى الخير والحق.

بل لقد كان القرآن هو الذي يربي الأمة على الأنفة واباء الضيم، وينفخ في أفرادها روح التمرد على الظلم والفساد، ويدفع الأمة الى سلوك السبيل المستقيم ﴿إِنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِي أنفسِهِم قالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ. قالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفينَ في الأرضِ. قالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أرضُ اللهِ واسعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئكَ مَأْواهمْ جهنَّمُ وساءَتْ مَصِيراً﴾[2] ومهما تقدمت الأيام، وكرت الليالي فسيبقى القرآن ملاذ هذه الأمة تفزع إليه في الأزمات، فيأخذ بيدها إلى الخير والتقدم والصلاح، ويبلغها السعادة والمجد والفلاح.. بل يبقى الملاذ الأوحد الذي لا تجد سواه في مدلهات الخطوب.

أنزل الله على عبده ورسوله محمد بن عبد الله هذا الكتاب ليهدي الناس الى الحق، ويخرجهم من الظلمات الى النور، ويسلك بهم طريق الرشاد، فكانت فيه الأسس الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والروحية والخلقية التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي.

---

(١) «الغارة على العالم الاسلامي» ط جُدَّة صفحة ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) سورة النساء: ٩٧.

* ففي هذا الكتاب الكريم **العقيدة الصحيحة** السليمة التي حلت للانسان أعظم مشكلة تلح على وجدانه متمثلة بالسؤال التالي: لماذا خلقت؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون﴾ (١).

ووضعتْ هذه العقيدة نظرة متميزة للانسان والكون والحياة، فهذا الكون من صنع الله ﴿إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يقولَ لَهُ كُنْ فيكون﴾ (٢) ﴿الذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرَى في خَلْقِ الرحمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فارْجِعِ البصرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارجعِ البصرَ كرَّتَينِ يَنْقَلِبْ إليكَ البصرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِير﴾ (٣).

فليس الكون عدواً للانسان، وليست الطبيعة خصماً له يصارعه ويغالبه، انما هي من خلق الله، وهي صديق، فالارض مذللة للانسان، وكل ما فيها مخلوق له ﴿هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلُولاً فامْشُوا في مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ (٤) ﴿خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرضِ جَميعاً﴾ (٥).

وقرر القرآن أن الناس مخلوقون من ذكر وأنثى، وموزعون إلى أمم متعددة لتتعارف ﴿يا أَيُّها الناسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لتعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٦).

والانسان مخلوق من مخلوقات الله، أصله من تراب ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ (٧).

وهو يشارك الحيوان بأنواعه في كثير من صفاته وغرائزه: ﴿وَمَا مِنْ

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.
(٢) سورة يس: ٨٢.
(٣) سورة الملك: ٣ ـ ٤.
(٤) سورة الملك: ١٥.
(٥) سورة البقرة: ٢٩
(٦) سورة الحجرات: ١٣.
(٧) سورة فاطر: ١١.

دابّةٍ في الأرض ، ولا طائرٍ يَطيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاّ أممٌ أمثالُكُم﴾ (١) ولكنه مكرم ﴿ولقد كَرمنا بني آدم﴾ (٢) وخلق في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٣) .

والناس متساوون ولا يتفاضلون إلا بالتقوى ﴿إنَّ أكرمَكُم عِنْدَ اللهِ أتقاكُمْ﴾ (٤) .

والحياةُ الدُّنيا هي وحدها الطريق الى الآخرة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَالحَاتِ من ذكرٍ أو أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئكَ يَدْخُلُونَ الجنةَ ولا يُظْلَمونَ نَقيرا﴾ (٥) ﴿فَذوقُوا بما نَسِيتُم لِقاءَ يومِكم هذا ، إنّا نَسيناكُم وذوقُوا عذابَ الخُلْدِ بِما كُنْتُم تَعمَلونَ﴾ (٦) .

وقرر القرآن العقيدة السليمة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فالله جل جلاله واحد ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ. اللهُ الصمدُ. لم يَلِدْ ولم يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحد﴾ (٧) ﴿هُوَ اللهُ الذي لا إله إلا هُوَ المِلكُ القُدّوسُ السَّلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبَّارُ المتكبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللهُ الخالقُ البارىءُ المصوِّرُ لَهُ الأسماءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ ما في السمواتِ والارضِ وَهُوَ العزيزُ الحكيمُ﴾ (٨) ﴿لَوْ كَانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ (٩) .

---

(١) سورة الانعام : ٣٨ .
(٢) سورة الإسراء : ٧٠ .
(٣) سورة التين : ٤ .
(٤) سورة الحجرات ١٣ .
(٥) سورة النساء : ١٢٤ .
(٦) سورة السجدة : ١٤ .
(٧) سورة الاخلاص ١ ـ ٤ .
(٨) سورة الحشر : ٢٣ ـ ٢٤ .
(٩) سورة الانبياء : ٢٢ .

ومن يكفر بركن من أركان الايمان فهو كافر ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ فَقَدْ ضَلَّ ضلالاً بعيداً﴾[1].

والبعث حقٌّ آتٍ لا ريب فيه وهو هين على الله ﴿أَيَحْسَبُ الإنسانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[2].

إلى آخر جوانب هذه العقيدة[3].

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس **النظام الروحي** التي حققت للمرء ان يمد شطر ذاته بغذاء مستمر، يتمثل بعبادة الله وذكره والاتصال به[4]، تبارك وتعالى: ﴿وإذا سألك عِبَادِي عنِّي فإنِّي قريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الداعِ إذا دَعانِ. فليستجيبُوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بي لعلَّهم يَرْشُدُون﴾[5] ﴿فاذكُروني أَذْكُرْكُمْ واشكُروا لي ولا تَكْفُرُونِ﴾[6].

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس **النظام الاخلاقي** العظيم الذي جاء به الاسلام، فلم يتجاهل طبيعة النفس الانسانية، ولكنه في الوقت نفسه أخذ بهذه النفس الى ان جعلها تحقق المثل التي كانت تتراءى لكثير من الفلاسفة والمصلحين أهدافاً بعيدة.

فقد دعا الى مكارم الاخلاق، وحذر من مساوىء الاقوال والأفعال ولنقرأ قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القُرْبَى،

---

(١) سورة النساء: ١٣٦.

(٢) سورة القيامة: ٣ ـ ٤.

(٣) انظر تفصيل ذلك في «الحضارة الاسلامية» للمودودي و«مبادىء الاسلام» له و«عقيدة المسلم» للغزالي و«تعريف عام بدين الاسلام» للطنطاوي و«نظام الاسلام» لمحمد المبارك و«العقائد الاسلامية» لسيد سابق و«خصائص التصور الاسلامي» و«العدالة الاجتماعية في الاسلام» لسيد قطب.

(٤) انظر كتاب «الاركان الاربعة» لأبي الحسن الندوي.

(٥) سورة البقرة: ١٨٦.

(٦) سورة البقرة: ١٥٢.

وَينْهَى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يعظكُم لعلكم تَذكَّرُون﴾ [١]. وقوله:

﴿قُلْ تَعَالَوا أتْلُ ما حَرَّمَ ربُّكم عَلَيْكُم ألّا تُشرِكُوا بِهِ شيئاً، وبالوالدينِ إحساناً، ولا تقتُلُوا أولادَكُمْ مِنْ إملاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُم وإيَّاهُمْ، ولا تَقْرَبُوا الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ، ولا تَقْتُلُوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ، ذلكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لعلَّكُمْ تَعْقلونَ. ولا تَقْرَبُوا مالَ اليتيمِ إلّا بالتي هي أحسنُ حتَّى يَبْلُغَ أشُدَّهُ وأوْفُوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ، لا نكلِّفُ نفساً إلا وُسْعَها وإذا قُلْتُمْ فاعدِلُوا ولو كانَ ذا قُرْبَى، وبعهدِ اللهِ أوْفُوا ذلكُم وصَّاكُمْ بِهِ لعلَّكُمْ تَذكَّرُونَ﴾ [٢].

وهذه الأخلاق التي دعا اليها القرآن أخلاق إيجابية وعملية وشاملة [٣].

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس **النظام الاجتماعي** الذي يصوغ الفرد والمجتمع صياغة متكاملة لا يجور احدهما على الآخر [٤].

والذي يقيم الأسرة على قواعد متينة من التراحم والتعاون والتكافل مما يحقق لكل فرد من أفرادها السعادة الحقيقية [٥].

والذي يقيم المجتمع على أسس العدالة والتكافل الاجتماعي والمساواة والتراحم والتعاون [٦] والذي يحدد القواعد العامة في قضايا المعاملات من

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) سورة الانعام: ١٥١ - ١٥٢.

(٣) انظر في ذلك: «خلق المسلم» لمحمد الغزالي و«الأسس الاخلاقية» للمودودي و«نظرية الاسلام الخلقية» له وكتاب «الاخلاق في القرآن» لمحمد عبد الله دراز.

(٤) انظر القسم الاول من كتاب «الحجاب» لأبي الاعلى المودودي. و«تنظيم الاسلام للمجتمع» لمحمد أبو زهرة.

(٥) انظر «نظام الاسرة في الاسلام» لمناع القطان و«تفسير سورة النور» للمودودي. و«الأسرة والمجتمع» لعلي عبد الواحد وافي. و«نظرات في الأسرة المسلمة» لمحمد الصباغ.

(٦) انظر في تفصيل ذلك كتاب «العدالة الاجتماعية في الاسلام» لسيد قطب و«التكافل الاجتماعي في الاسلام» لمحمد أبو زهرة.

تجارة وقرض وبيع ومداينة وما الى ذلك [١] من تلك القواعد التي لا تستقيم الحياة إلا بها.

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس **النظام الاقتصادي** الذي يحرم الاستغلال والظلم والعدوان، ويحقق الكفاية والعدالة والرفاهية [٢].

* وفي هذا الكتاب أسس **النظام السياسي** الذي تقوم عليه دولة الاسلام معتمدة على الشورى والعدل والمساواة وإحقاق الحق وإبطال الباطل، وهدف هذه الدولة إقامة معالم الاسلام والعمل على نشره في الارض [٣] ﴿الذينَ إنْ مكنّاهم في الأرضِ أقامُوا الصلاةَ وآتوُا الزكاةَ وأمرُوا بالمعروفِ ونَهَوا عن المنكرِ. ولله عاقِبةُ الأمورِ﴾ [٤].

وهكذا فإن القرآن هو الدستور الذي حوى كل هذه الأسس، وقد أثبتت الأيام والتجارب أنه الدستور الصالح لكل زمان ومكان، وأن أحكامه هي العلاج الناجع لأمراض الحياة، لا اختلاف فيه ولا تناقض وصدق الله العظيم: ﴿ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدُوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [٥] ﴿إنَّ هذا القرآنَ يهدي للتي هي أقومُ ويُبَشِّرُ المؤمنين الذينَ يعملونَ الصالحاتِ أنَّ لَهُمْ أجراً كبيراً﴾ [٦].

ومن المفيد أن نشير الى أن القرآن بحكم كونه دستوراً، فقد وردت

---

(١) انظر «المجتمع الانساني في ظل الاسلام» لمحمد أبو زهرة و«في المجتمع الاسلامي» له و«تنظيم الاسلام للمجتمع» له أيضاً. و«التشريع الاسلامي وحاجتنا اليه» لمحمد الصباغ.

(٢) انظر «أسس الاقتصاد في الاسلام والنظم المعاصرة» للمودودي و«معضلات الاقتصاد وحلها في الاسلام» له.

(٣) انظر «نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور» للمودودي.

(٤) سورة الحج: ٤١.

(٥) سورة النساء: ٨٢.

(٦) سورة الاسراء: ٩.

آياته مجملة، وقد تركت كثيراً من التفصيلات الجزئية للسنة، على أن القرآن الكريم في بعض الأمور الهامة يذكر التفصيلات حسماً للنزاع والاختلاف كالإرث[1] واللعان[2] والطلاق[3] وما شابهها من الأمور حتى لا يدع مجالاً للفرقة في المجتمع الاسلامي[4].

أثر القرآن في البيان والفكر:

* كان المستوى الرفيع الذي بلغه القرآن في البيان مثلاً يحتذى بالنسبة لأدباء العربية وبلغائها، فكانت آياته سبباً في النهوض بأساليبهم نهوضاً عظيماً، كما كان لترديد المسلمين لآياته آناء الليل وأطراف النهار أثر كبير في ارتقاء البيان العربي.

* أما أثره في الفكر فلقد كانت آياته البينات سباقة في كل ما يعود على الانسانية والحضارة بالتقدم والرفاهية والسعادة. وما خلت حركة ظهرت بعده من التأثر بذراه السامقة.

وأودُّ ان أختم هذا الفصل بكلمة للاستاذ الزرقاني قال فيها: (وهو ـأي القرآنـ أولاً وآخراً القوة التي غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك، وحولت مجرى التاريخ، وأنقذت الانسانية العاثرة، فكأنما خلقت الوجود خلقاً جديداً)[5].

---

(١) انظر سورة النساء فقد تعرضت آيات منها لتقسيم الارث وهي الآيات ١١ و١٢ و١٧٦.

(٢) انظر الآيات ٦ و٧ و٨ و٩ من سورة النور.

(٣) انظر الآيات المتعلقة بالطلاق في السور الآتية: البقرة الآيات ٢٢٧ و٢٣٢ و٢٣٦ و٢٣٧ و٢٤١ والاحزاب الآية: ٤٩ والطلاق الآيات من ١ حتى ٧.

(٤) انظر كتابنا «الحديث النبوي» ص ١٩ ـ ٢١.

(٥) انظر «مناهل العرفان» ١/٣.

الفصل الثاني

في أسماء القرآن

لهذا الكتاب الكريم أسماء ثلاثة مشهورة وهي: القرآن والكتاب والفرقان، وأشهرها الاسمان الأولان.

وقد أورد أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذلة(١) المتوفى سنة ٤٩٤ هـ في كتابه «البرهان في مشكلات القرآن» ـ كما نقل ذلك السيوطي ـ خمسة وخمسين اسماً(٢). وبالغ بعضهم فأوصل عددها إلى نيف وتسعين(٣).

وعندما ينظر المرء في هذه الأسماء الكثيرة التي ذكروها يتبين له أن معظمها أوصاف مثل: كريم، ومبارك... الخ...

وسنقتصر على ذكر الأسماء الثلاثة التي أوردناها آنفاً ونخصها بالبحث:

* * *

---

(١) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢٥٨/٣ ط احسان عباس و«طبقات الشافعية» للسبكي ٢٨٧/٣ «وكشف الظنون» لحاجي خليفة ٢٤١/١ و«شذرات الذهب» لابن العماد ٤٠١/٣ و«المنتظم» ١٢٦/٩. وضبط ابن خلكان اسمه بفتح العين. وقال عن (شيذلة): وهو لقب عليه، ولا أعرف معناه مع كثرة كشفي عنه.

(٢) انظر «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي ٥٠/١ و«البرهان» للزركشي ٢٧٣/١.

(٣) انظر «البرهان» ٢٧٣/١ و«مناهل العرفان» ٨/١.

القرآن:

وينطق بهذه الكلمة على وجهين: مهموزة وغير مهموزة.

١ ـ القرآن (مهموزة): مصدر على وزن (فُعْلان) ـ بالضم ـ كالغفران والرُجحان والشُكران.

وفعل هذا المصدر هو (قرأ). وهناك مصادر أخرى غير (قرآن) تقول: قَرأ (قراءة) و (قَرْءَاً) و (قُرآناً) وهذه المصادر الثلاثة بمعنى واحد.

ولكلمة (قرآن) معنيان:

أحدهما: مصدري، بمعنى القراءة كما ذكرنا، وقد جاء استعمال (القرآن) بهذا المعنى المصدري في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقرآنه. فإذا قَرَأْنَاهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١).

وثانيهما: علم شخصي على ذلك الكتاب الكريم. وهذا هو الاستعما
الغالب، ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ هَذا القُرْآنَ يَهْدي للتي هِيَ أَ
وهذا العلم الشخصي مشتق من القراءة وعندئذ يكون المصدر قد أ
اسم المفعول (قرآن) اي (مقروء). وأصل معنى (قرأ) في اللغة:
ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه، ومنه قولهم: قرأت الناقة إذا حملت

وإذا أردنا معرفة العلاقة بين المعنى الاصلي، والمعنى العلمي فإن (قرآن) يمكن أن تكون مصدراً استعملت بمعنى اسم المفعول (مجموع) أو أن تكون مصدراً استعمل بمعنى اسم الفاعل (جامع).

---

(١) سورة القيامة: ١٧ وما بعدها. وانظر «نكت الانتصار» للصيرفي وهو اختصار «الانتصار» للباقلاني ص ٥٦ تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام.

(٢) سورة الاسراء: ٩.

(٣) «نكت الانتصار» للصيرفي ص٥٧ وانظر «الكليات» لأبي البقاء ٣٥/٤ ط دمشق.

أما كونه مجموعاً فلأنه مجموع السور والآيات، أو مجموع المعاني السامية والحقائق العظيمة، والحلول المحكمة لكل مشكلات الانسانية، وصنوف الخير والبر والعدالة، أو لأن الحفظة يحفظونه فهو مجموع. وهكذا فإن المصدر بمعنى التلاوة اطلق على اسم المفعول.

وأما كونه جامعاً فلأنه جامعٌ للسور والآيات، أو جامع للمعاني السامية، والحلول المحكمة، وصنوف الخير.

وبمعنى الجمع والضم اطلق على اسم المفعول او على اسم الفاعل[1]. قال البغوي: [وسُمِّي الكتاب قرآناً؛ لأنه جُمع فيه الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والقصص. وكل شيءٍ جمعته فقد قرأته، ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقرآنَه﴾ وقد تحذف الهمزة فيقال: قريت الماء في الحوض، أي جمعته][2].

٢ ـ والقُران (غير مهموزة):

وهناك ثلاثة تخريجات لهذه الكلمة:

أحدها: أن تكون مسهلة من (القرآن) فيرجع القول فيها الى ما سبق ذكره.

ثانيها: أنها ليست مأخوذة من شيء، ومن القائلين بهذا القول الإمام الشافعي رضي الله عنه، الذي كان يرى أنها عَلَم على الكلام المنزل على النبي محمد بن عبد الله ﷺ وأنها ليست مأخوذة من شيء، ويرى أن هذه الكلمة في علميتها مثل التوراة والانجيل.

وقد روى البيهقي والخطيب البغدادي والعبادي وابن الجزري والسيوطي أن الشافعي قرأ على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين وكان يقول: القران

---

(١) انظر «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز ص٥.

(٢) «شرح السنة» ٤/٤٢٨.

اسم وليس بمهموز ولو أخذ من قرأت لكان كل ما يقرأ قرآناً. بل هو اسم كالتوراة[١].

ثالثها: أنها مشتقة من (قرن)، وذكروا في العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى العلمي أنها اشتقت من (قرن)، لاقتران السور والآيات والحروف فيه، ومن القائلين بذلك الأشعري.

وقال الفراء في العلاقة بين هذين المعنيين: إن كلمة (القران) اشتقت من (قرن)، لأن الآيات قرائن، يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً.

ملاحظة اولى:

نون (القران) بلا همز نون أصلية، سواء قلنا: إنها علم غير مشتق من شيء أم قلنا هي مشتقة من (قرن). أما نون (القرآن) المهموزة فمزيدة.

ملاحظة ثانية:

تطلق كلمة (القرآن) و (القران) على القرآن كله، وعلى بعضه.

فيقال لمن قرأ المصحف كله: إنه قرأ قرآناً.

ويقال لمن قرأ آية منه أو آيات: إنه قرأ قرآناً[٢].

* * *

---

(١) انظر «المستدرك» ٢/٢٣٠ و«مناقب الشافعي» ١/٢٧٧ تحقيق صقر و«تاريخ بغداد» ٢/ ٦٢ و«طبقات الشافعية» للعبادي ص ٢١ و«غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزري ص ١٦٦ و«الاتقان» ١/٥٠ وانظر فيه الآراء والتخريجات الاخرى، وانظر تعليق أحمد شاكر على «الرسالة» للشافعي ص ١٤ و ١٥ وانظر «الكليات» ٤/٣٤ وما بعدها.

(٢) مناهل العرفان ١/١٥.

الكتاب:

وهو اسم آخر للقرآن، ورد في عدد من الآيات الكريمة. كما في قوله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِهِ الكِتابَ ولم يجعلْ لَهُ عِوَجاً﴾[١] وقوله: ﴿ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدىً للمتَّقِين﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿تلكَ آياتُ الكتابِ﴾[٣].

وكلمة (الكتاب) مصدر (كتب يكتب). تقول: كتب يكتب كَتْباً وكتابة وكتاباً.

وهذا المصدر على خلاف القياس، والمصدر المقيس الكَتْب، وقيل: الكتاب اسم مصدر كاللباس[٤] ثم أصبحت كلمة (كتاب) علماً على القرآن.

وإذا أردنا ان نربط بين معناها اللغوي المعروف والمعنى العَلَمي كانت هذه الكلمة (الكتاب) مصدراً استعمل بمعنى اسم المفعول (مكتوب).

والكلمة (كَتَبَ) في أصل معناها اللغوي تدل على الجمع، ومنه: كتب الكتيبة، أي جمعها، وكتب النعل والقربة، أي خرزها بسيرين[٥] أي جمعها.

وإذا أردنا معرفة العلاقة بين المعنى الاصلي والمعنى العَلَمي فإنَّ كلمة (كتاب) يمكن ان تكون مصدراً استعمل بمعنى اسم المفعول (مجموع). أو أن تكون مصدراً استعمل بمعنى اسم الفاعل (جامع).

---

(١) سورة الكهف: ١.

(٢) سورة البقرة: ٢.

(٣) سورة الشعراء: ٢.

(٤) تاج العروس: مادة كتب.

(٥) اساس البلاغة: مادة كتب.

وترد العلاقة نفسها التي ذكرناها في (القرآن):

فهذا الكتاب جامع للسور والآيات، بل وللمعاني والحقائق والحلول التي يتطلع اليها البشر.

وهذا الكتاب أيضاً مجموعة فيه السور والآيات، بل وتلك المعاني والحلول.

* * *

لماذا سمي القرآن (قرآناً) و (كتاباً)؟

هناك حكمة في إطلاق هذين العلمين (القرآن والكتاب) على كلام الله تعالى ذكرها العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز فقال[1]:

[روعي في تسميته (قرآناً) كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته (كتاباً) كونه مدوناً بالأقلام. فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً.. فلا ثقة لنا بحفظ حافظٍ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة.

ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذكرَ وإنَّا لَهُ لحافظونَ﴾[2] ولم يصبه ما أصاب

---

(١) «النبأ العظيم»: ص ٥ ـ ٧.

(٢) سورة الحجر: ٩.

الكتب السابقة من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿والربَّانيونَ والأحبارُ بما استُحْفِظُوا مِنْ كتابِ اللهِ﴾ [1]].

الفرقان:

أما (الفرقان) فهو اسم للقرآن أيضاً. وهو مصدر أطلق على القرآن فأضحى عَلَماً.

وقد استعمل بهذا المعنى العَلَمي في قوله تعالى: ﴿تباركَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبدِهِ لِيكونَ للعالمينَ نذيراً﴾ [2].

وهذا المصدر استعمل بمعنى اسم الفاعل، أي أنه كلام فارق بين الحق والباطل[3]. أو استعمل بمعنى اسم المفعول، أي أنه كلام مفروق بعضه عن بعض في النزول أو في السور والآيات[4].

* * *

(١) سورة المائدة: ٤٤.

(٢) سورة الفرقان: ١.

(٣) انظر «نكت الانتصار» للصيرفي ص ٥٧.

(٤) مناهل العرفان: ١/٧ ـ ٨.

الفصل الثالث[1]

في الوحي

الوحي في اللغة:

قال ابن فارس في « مقاييس اللغة »:

الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء إلى غيرك، فالوحي الاشارة، والوحي الكتاب والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان. وكل ما في باب الوحي فراجع الى هذا الأصل الذي ذكرناه.

وقال الراغب الاصفهاني:

أصل الوحي الاشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وشيء وحي، أي عجل مسرع، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وباشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ على قومِهِ من المحرابِ فأَوْحى إليهم أَنْ سبِّحُوا

---

(١) انظر « مذكرة التوحيد » لعبد الرزاق عفيفي ص ٣٤ و« نظام الاسلام العقيدة والعبادة » لمحمد المبارك ص ١٠١ ـ ١٠٤ و« النبوة اصلاح تقتضيه رحمة الله » لسعدي ياسين و« النبوة والأنبياء » للندوي.

بُكْرَةً وعَشيًّا﴾ [1] أي أشار إليهم ولم يتكلم.

إذن فمعنى الوحي من الناحية اللغوية: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه. بحيث يخفى على غيره [2]، ويدخل تحت ذلك أنواع عديدة من الإعلام:

* منها: الإلهام الغريزي، كالوحي إلى النحل ﴿وأوحى ربُّك إلى النحل أن اتخذي من الجبالِ بيوتاً ومن الشجر ومما يَعْرِشُونَ. ثم كُلِي من كلِّ الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً يخرجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس. إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكرون﴾ [3].

* ومنها: إلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الانسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى ﴿وأوحينا الى أمِّ موسى ان أرضعيهِ فإذا خِفْتِ عليهِ فألقيهِ في اليمِّ، ولا تَخَافي ولا تَحْزَني، إنا رادُّوهُ إليكِ وجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين﴾ [4].

* ومنها: وسوسة الشيطان ﴿وإنَّ الشياطينَ ليُوحونَ إلى أوليائِهم ليُجادِلُوكم﴾ [5] ﴿وكذلكَ جعلْنَا لكلِّ نبيٍّ عدواً شياطينَ الإنسِ والجنِّ يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً﴾ [6].

وقد تأتي كلمة (الوحي) بمعنى الأمر [7] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ [8].

---

(١) سورة مريم: ١١.
(٢) انظر «الكليات» لأبي البقاء ٣/٥ و ٣٥ ط دمشق.
(٣) سورة النحل: ٦٨ ـ ٦٩.
(٤) سورة القصص: ٧.
(٥) سورة الانعام: ١٢١.
(٦) سورة الانعام: ١١٢.
(٧) «تحفة الأحوزي» ٣٠١/٤.
(٨) سورة المائدة: ١١١.

ووحي الله تبارك وتعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة: وهما: الخفاء والسرعة [1].

وأوحى، ووحى لغتان، والأولى أفصح وبها ورد القرآن، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول أي (الموحى) [2].

الوحي في الشرع:

ومعنى الوحي في الشرع تكليم الله سبحانه واحداً من عباده بطريقة من طرق الوحي. والوحي أمر غيبي لا نستطيع أن نفصل القول فيه إلا بحدود ما ورد في شأنه من النصوص الشرعية.

إن كل من آمن بوجود الله وقدرته لزمه أن يسلم بموضوع الوحي على انه بديهية مسلمة لا يحتاج إلى مزيد من الأدلة عليه، فلا بُدَّ لنا إذا آمنا بوجود الخالق المدبر من أن نتبع هذا الايمان بالايمان بضرورة رعايته لخلقه، وتدبيره المستمر للكون على ما يرضى، ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا بالوحي.

أما إمكانية الوحي فإن العقل السليم لا يستبعدها، لأن الذي يؤمن بوجود الله ـ سبحانه ـ وكماله لا يصعب عليه الاقتناع عقلياً بإمكانية الوحي من الناحية الواقعية، ذلك أننا نجد في دنيا الواقع أن الانسان العاجز المحدود الطاقة استطاع أن يصل بواسطة بعض التصرفات والبحوث والآلات إلى أن يؤثر في إنسان مثله.. فما القول في قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك وعلى أكبر من ذلك؟.

ففي التنويم المغناطيسي نجد إنساناً عاجزاً يقوى على الإيحاء إلى إنسان آخر، وفي محطات الاذاعة يستطيع رجال الاعلام الموهوبون أن يوحوا إلى

---

(١) «الوحي المحمدي» لمحمد رشيد رضا: ٣٧.

(٢) «عمدة القاري» للعيني ١/١٤ و«تحفة الأحوذي» ٣٠١/٤.

نماذج عديدة من الناس ما يشاؤون من الأفكار والآراء. إذا كان ذلك كذلك فإن إيحاء الله إلى عبد من عباده اختاره لهداية الناس لا يمنع العقل السليم إمكان وقوعه، إذا كان صاحب هذا العقل مؤمناً بقدرة الله سبحانه وكماله.

* * *

صور الوحي:

هناك صور للوحي حددتها الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة، نورد بعضها فيما يأتي:

قال الله تعالى: ﴿وَما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حجابٍ، أو يُرْسِلَ رسولاً فَيُوحِيَ بإِذْنِهِ ما يَشَاءُ. إنهُ عليٌّ حكيمٌ﴾[1].

وجاء في الصحيحين عن أول بدء الوحي الحديث الآتي:

عن عائشة قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع[2] إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارىء».

قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني

(١) سورة الشورى: ٥١.
(٢) أي يرجع.

فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني»... الحديث[1].

وسنعدد هذه الصور التي يكون الوحي عليها:

١ ـ يكون الوحي بالرؤيا الصادقة:

وذلك كما في حديث عائشة الذي أوردناه قبل قليل: (أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم).

وكما في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى في المنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظرْ ماذَا تَرى﴾[2].

٢ ـ ويكون بإلهام النبي في حالة اليقظة وإلقاء المعنى في قلبه من غير أن يرى الملك، كما قال ﷺ: «إنَّ روح القدس نفث في روعي انَّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»[3].

---

(١) «صحيح البخاري» ١/٣ و«صحيح مسلم» ١/٩٧ و«الترمذي» ٤/٣٠١ و«سنن النسائي» و«المسند» ٦/١٥٣ و٢٣٢ وانظر شرح الحديث في «فتح الباري» ١/٢٢ وانظر «اللؤلؤ والمرجان» ١/٣٢ و«الإتقان» ١/٢٣ النوع السابع.

(٢) سورة الصافات: ١٠٢. وفي «صحيح البخاري» ١/٣٣: [قال عمرو: سمعت عبيد بن عمير يقول: رؤيا الأنبياء وحيٌ. ثم قرأ: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾].

(٣) «المستدرك» للحاكم ٢/٤ و«الفقيه والمتفقه» للخطيب ١/٩٢-٩٣ و«مناقب الشافعي» للبيهقي ١/٣٢٤ و«سنن ابن ماجه» ٢/٣ و«الحلية» لأبي نعيم ٣/١٥٦ و٧/١٥٨ و١٠/٢٧ و«ابن حبان» رقم ١٠٨٤ و«الرسالة» للشافعي ص٩٣ و«الترغيب والترهيب» للمنذري ٢/٢٣١ و«مجمع الزوائد» ٤/٧٢ و«فيض القدير» ٢/٤٥٠ و«الإتقان» ١/٤٤ وقال ابن حجر: أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود. وانظر «فتح الباري» ١/٢٠ وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» ١/٢٣١ وقال: رواه في «مسند الفردوس» عن جابر... وأبو نعيم والطبراني عن =

٣ ـ ويكون بتكليم النبي من وراء حجاب وبشكل مباشر ويسمع النبي الكلام، كما كلم الله سبحانه موسى عليه السلام من وراء الشجرة كما نص على ذلك القرآن: ﴿فلمّا أَتَاها نُودي من شاطِىء الوادِ الأيمنِ في البقعةِ المباركةِ من الشجرةِ: أنْ يا موسى إني أنَا اللهُ ربُّ العالمينَ﴾ [١].

٤ ـ ويكون بتكليم النبي بواسطة جبريل، وهذه الصورة لها شكلان: الشكل الأول: ان يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس [٢] وكان أشده عليه، حتى إن جبينه ليعرق [٣] وحتى تبرك راحلته [٤]. وقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه ﷺ على فخذ زيد بن ثابت فثقلت على فخذ زيد حتى كادت ترضها [٥].

الشكل الثاني: أن يأتيه جبريل ويتمثل له رجلاً، فيخاطبه. كما قال ﷺ: «أحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» [٦].

وزاد أبو عوانة في «صحيحه»: «وهو أهونه علي» [٧].

وكما في حديث جبريل عندما جاء ليعلم المسلمين أمور دينهم، وذلك عن

= أبي أمامة، والبزار عن حذيفة، وأخرجه ابن أبي الدنيا، وصححه الحاكم عن ابن مسعود. وصححه الألباني في تخريجه لكتاب «فقه السيرة» للغزالي ص٩٦ وانظر «عمدة القاري» ١/١٤.

(١) سورة القصص: ٣٠.

(٢) قال الخطابي: والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتثبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد (انظر «الإتقان» ١/٤٤).

(٣) انظر الحديث في «صحيح البخاري» ١/٣ و«صحيح مسلم» ٧/٨٢ و«الترمذي» ٤/٣٠١ و«النسائي» ٢/١١٣ و١١٤ و«الموطأ» ١/٢٠٢ و«مسند أحمد» ٦/١٥٨ و١٦٣ و٢٥٧.

(٤) انظر «مسند أحمد» ٦/١١٨ و٤٥٥ و«المستدرك» ٢/٥٠٥ ووافقه الذهبي.

(٥) انظر «صحيح البخاري» ٦/٤٠ و«سنن أبي داود» ٣/١٧.

(٦) انظر «صحيح البخاري» ١/٣ و«صحيح مسلم» ٧/٨٢ و«الترمذي» ٤/٣٠١.

(٧) «الإتقان» ١/٤٤.

طريق سؤال النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة[١] .

وقد يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها ، فيوحي اليه ما شاء الله ان يوحيه. وهذا وقع مرتين كما ذكر الله سبحانه في سورة النجم وفي سورة التكوير[٢] . ففي صحيح مسلم[٣] عن مسروق قال:

كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت: يا أبا عائشة (وهي كنية مسروق)[٤] ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية.

قلت: ما هن؟ .

قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

قال: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآه بالأُفُقِ المُبِينِ﴾[٥] ﴿ولقدْ رآهُ نَزْلَةً أُخْرى﴾[٦] .

فقالت: أنا أول هذه الأمة من سأل ذلك رسول الله ﷺ فقال: « انما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والارض ».

وقالت: أولم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ

---

(١) انظر الحديث في « صحيح مسلم » ١/٢٩ و« رياض الصالحين » باب المراقبة.

(٢) قال ابن القيم في « الزاد » ٢/٤٨: [وهذا هو جبريل رآه محمد ﷺ مرتين: مرّة في الأرض، ومرّة عند سدرة المنتهى] وانظر « تفسير ابن كثير » ٣/٢٣ و ٤/٢٥١ - ٢٥٢ عند تفسير سورة النجم.

(٣) «صحيح مسلم» ١/١١٠ وبرقم ١٧٧ في ط عبد الباقي وانظر «صحيح البخاري» ٦/١١٧ و«الفتح» ٨/٦٠٦ وانظر «الاجابة» للزركشي ط ١ ص ٩٦ وط ٢ ص ٨٥.

(٤) هو مسروق بن الأجدع الهمداني الكوفي. تابعي ثقة فقيه عابد. روى عن عدد من الصحابة. توفي سنة ٦٣ هـ.

(٥) سورة التكوير: ٢٣.

(٦) سورة النجم: ١٣.

يُدْرِكُ الأبصارَ وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ﴾ [1] أولم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿وما كانَ لبشرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وحياً أو مِنْ وراءِ حجابٍ أوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ [2].

قالت: ومن زعم أنَّ رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لمْ تفعلْ فما بَلَّغْتَ رِسالتَهُ﴾ [3].

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: ﴿قلْ لا يعلمُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ﴾ [4].

وهذه الصورة الرابعة وأعني الشكل الأول هي التي نزل بواسطتها القرآن.

آثار الوحي على الرسول:

صور لنا الصحابة فيما أوردوا من وصف الرسول ﷺ آثار هذه الظاهرة: ظاهرة الوحي، فذكروا ان الرسول ﷺ كانت تبدو على وجهه الكريم أمارات معينة في كل مرة ينزل عليه القرآن.

وكان أمر هذه الظاهرة لا يخفى على احد ممن ينظرون اليه، فكانوا ـ كما تروي الأحاديث الصحيحة ذلك ـ يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة، وأخذته البُرَحاء [5] حتى يتفصَّد جبينُه عرقاً في اليوم البارد، وثقل جسمه

---

(١) سورة الانعام: ١٠٣.

(٢) سورة الشورى: ٥١.

(٣) سورة المائدة: ٦٧.

(٤) سورة النمل: ٦٥.

(٥) برحاء الحمى: شدة أذاها.

حتى كاد يرض فخذه فخذ الجالس الى جانبه [1]، وحتى لو كان راكباً لبركت راحلته كما سبق أن مر بنا.

وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه ﷺ أصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل [2].. ثم لا يلبث أن تسرى عنه تلك الشدة فاذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً للعالمين [3].

وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله أن هذه الاوصاف كلها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبي داود والترمذي [3].

* * *

صدق ظاهرة الوحي:

ان هذه الظاهرة العجيبة لا يمكن ان تكون متكلفة ولا مصنوعة لاسيا إذا تأملنا تلك الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه النبوي الشريف.

ولو كانت صناعة وتكلفاً لكانت طوع يمينه، فكان لا يشاء يوماً أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاد في تحضيره [4].

وإليك بعض الأدلة على أن الوحي أمر لا يعود إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم:

---

(١) وهذا حديث زيد بن ثابت أورده البخاريّ معلقاً في أول كتاب الصلاة في باب الصلاة بغير رداء وأورده موصولاً في «صحيحه» ٤٠/٦ في تفسير سورة النساء في نزول قوله تعالى ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ وانظر «فتح الباري» ٤٧٩/١ و«أبو داود» ١٧/٣ و«الترمذي» ٩٢/٤ و«النسائي» ٩/٦ وانظر «معالم السنن» للخطابي ٣٦٨/٣.

(٢) أخرجه أحمد ٣٤/١ والترمذي ١٥١/٤والحاكم ٥٣٥/١ و ٣٩٢/٢ وانظر «شرح السنة» للبغوي ١٧٧/٥.

(٣) انظر «النبأ العظيم» ص ٧١.

(٤) «النبأ العظيم» ص ٧٢.

١ ـ كانت تنزل بالنبي نوازل يتطلب لها حلاً، وكذلك كل من حوله، ولكنه لا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس (١).

ومن هذه النوازل والأزمات حديث الإفك عن زوجه السيدة المصونة عائشة رضي الله عنها، فلقد أبطأ الوحي، وطال الانتظار، والناس يخوضون في هذا الحديث المؤذي، ويلوكون عرض النبي النقي، حتى بلغت القلوب الحناجر. وهو لا يستطيع أن ينهي هذه المشكلة، ويحسم هذا الموضوع، ومضى شهر بأكمله وهو ينتظر رأي السماء، وما زاد على أن قال لها آخر الأمر:

« يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله » (٢).

هذا كلام رجل من البشر لا يعلم الغيب. وكلام المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن اليه ـ أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، ويقطع بها ألسنة القاذفين المتخرصين وينسبها إلى الوحي؟

ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله (٣).

٢ ـ وفي مرات أخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه ويخطئه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فمن ذلك قوله

---

(١) « النبأ العظيم » ص ١٦.

(٢) انظر حديث الإفك في « البخاري » ٥/٩٦ و ٦/٨٨ و« مسلم » ٨/١١٢ و« الترمذي » ٤/١٥٥ ـ ١٥٧ و« تفسير ابن كثير » ٣/٢٦٨ وكتب السيرة.

(٣) « النبأ العظيم »: ص ١٧.

تعالى: ﴿وتُخْفي في نفسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النـاسَ واللهُ أحـقُّ أنْ تَخْشَاهُ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أذنتَ لَهُمْ حَتَّى يتبيَّنَ لكَ الذين صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبينَ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿أمَّا مَن استغنَى فأنتَ له تَصدَّى. وما عليك ألاَّ يَزَّكى. وأما من جَاءَكَ يَسْعى. وَهُوَ يَخْشَى. فأنتَ عَنْهُ تَلَهَّى. كَلاَّ﴾ (٣).

لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه: أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه (٤)؟؟.

٣ ـ ولقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد.

فهل هناك انسان توحي اليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معنـاه؟ وتـأمـر أمراً لا يعقل هو حكمته؟

أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟ (٥).

نزل قوله تعالى: ﴿وإنْ تُبْدُوا ما في أَنفُسِكُم أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسبْكم بهِ اللهُ﴾ (٦) فأزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً، وداخل قلوبهم منها شيء لم

---

(١) سورة الاحزاب: ٣٧. روى ابن جرير عن عائشة انها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي اليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ انظر «تفسير الطبري» ١٣/٢٢ وابن كثير ٤٩١/٣.

(٢) سورة التوبة: ٤٣.

(٣) سورة عبس: ٥ ـ ١٠.

(٤) انظر «النبأ العظيم» ص ١٨.

(٥) انظر «النبأ العظيم» ص ٢١.

(٦) سورة البقرة: ٢٨٤.

يداخلها من شيء آخر، لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها، فقالوا:

- يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها.

- فقال لهم النبي ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتسبتْ..﴾ (١).

فلو كان النبي ﷺ يعلم تأويلها من أول الامر لبيّن لهم خطأهم ولأزال اشتباههم من فوره، لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة اليه (٢).

الخلاصة:

وخلاصة ما يمكن أن نذكره في ظاهرة الوحي ما يأتي:

١ - انها حالة غير اختيارية.

٢ - وهي عارض غير عادي.

٣ - وهي قوة خارجية: لأنها لا تتصل بنفس النبي ﷺ إلا حيناً بعد حين.

٤ - وهي قوة عالمة: لأنها توحي إليه علماً.

٥ - وهي قوة أعلى من قوة النبي ﷺ: لأنها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦. وانظر «صحيح مسلم» ١/٨٠ - ٨١ باب بيان قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ و«المسند» ٢/٤١٢ و«المستدرك» ٢/٢٨٦ و«تفسير الطبري» ٦/١٠٤ - ١٢٣ ط محمود شاكر.

(٢) «النبأ العظيم» ص ٢٢.

٦ ـ وهي قوة خيرة معصومة: لأنها لا توحي إلا بالحق ولا تأمر إلا بالرشد [١].

* * *

(١) «النبأ العظيم» ص ٧٢ ـ ٧٤ وينبغي ان يقف القارىء على كلام سيد قطب رحمه الله عن الوحي في «ظلال القرآن» ٢٥/٥٣ ـ ٥٧ من المجلد السابع.

الفصل الرابع

في تنجيم القرآن

معنى التنجيم:

التنجيم في اللغة: التفريق. يقال: نجم المال تنجيماً: إذا أدّاه نجوماً.

وتنجيم القرآن أي نزوله مفرقاً على دفعات.

مدة التنجيم:

نزل القرآن منجماً في مدة ثلاث وعشرين سنة.

وقدرها الاستاذ الخضري باثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً معتبراً بدايته في ١٧ رمضان ونهايته في ٩ ذي الحجة للسنة العاشرة للهجرة [١].

وقد ردّ عليه الأستاذ الزرقاني رداً رفيقاً في «مناهل العرفان» فقال: (لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة لأنه..) [٢].

كمية النازل في كل نجم:

وكانت كمية الآيات تتفاوت في النزول، فأحياناً كانت تنزل آية من

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامي ص ٥.

(٢) انظر تفصيل ذلك في «مناهل العرفان» ١/٤٥.

القرآن على النبي ﷺ، وأحياناً ينزل بعض آية كما في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُولي الضرر﴾ [1] حيث نزلت وحدها في قوله تعالى: ﴿لا يَستوي القاعدونَ مِنَ المؤمنينَ غيرُ أُولي الضررِ والمجاهدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِهم وأنفسِهم﴾ [2].

وكما في قوله تعالى: ﴿وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنيكُم اللهُ من فضلِهِ إنْ شاءَ إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ﴾ [3] بعد قوله تعالى: ﴿إنَّما المشركونَ نجسٌ فلا يَقرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهم هَذا﴾ [3].

وأحياناً كانت تنزل عليه الآيتان والخمس والعشر فقد نزل في موضوع الإفك عشر آيات جملة واحدة من أول سورة النور [4].

وقد ذكر السيوطي في «الاتقان» أن من السور التي نزلت جملة واحدة (الفاتحة) و (الكوثر) و (تبت) و (لم يكن) و (النصر) و (المعوذتان) و (المرسلات) [5] و...

* * *

موقف المشركين من التنجيم:

كان تنجيم القرآن مثار الاعتراض من المشركين. وقد ذكر ذلك القرآن الكريم وأجاب عنه.

قال تعالى: ﴿وقالَ الذينَ كَفَرُوا: لَوْلا نُزِّلَ عليهِ القرآنُ جُمْلَةً واحدةً.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في «مناهل العرفان» ١/٤٥.

(٢) سورة النساء: ٩٥ وانظر الحديث في «صحيح البخاري» ٦/٤٠ و«سنن أبي داود» ٣/١٧ و«الترمذي» ٤/٩١ - ٩٢.

(٣) سورة التوبة: ٢٨.

(٤) من الآية ١١ حتى الآية ٢١.

(٥) «الاتقان» ١/٣٧.

كذلكَ لنثبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ ورتَّلْنَاهُ تَرْتيلاً﴾ [١].

ومن المفيد ان ننقل تعليق أبي شامة [٢] على الآية كما أورده السيوطي في «الاتقان» قال أبو شامة:

(فإن قيل: ما السر في نزوله منجماً؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عليه القرآنُ جُمْلَةً واحدةً﴾ [١] يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿كذلك﴾ أي أنزلناه كذلك مفرقاً ﴿لنثبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل) [٣].

حكم التنجيم وأسراره:

ونستطيع ان نذكر من حكم التنجيم وأسراره ما يأتي:

١ ـ تثبيت فؤاد النبي ﷺ: لأن في تجدد الوحي قوة لقلبه ﷺ واستشعاراً لعناية الله برسوله، هذا فضلاً عن مضمون الآيات المشجعة للرسول ﷺ المعزية له كما في قوله تعالى: ﴿واصْبِرْ على ما يَقُولُونَ

---

(١) سورة الفرقان: ٣٢.

(٢) هو عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي أبو القاسم شهاب الدين، مؤرخ محدث باحث ولد في دمشق سنة ٥٩٩ وفيها نشأ وولي مشيخة دار الحديث الاشرفية. دخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه فمات في دمشق سنة ٦٦٥. لقب أبا شامة لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر. وانظر كلام أبي شامة في كتابه «المرشد الوجيز» ص ٢٨. وقد طبع في بيروت ١٣٩٥ (١٩٧٥) بتحقيق طيار آلتي قولاج.

(٣) الاتقان ١/٤١.

واهجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً﴾[1] وقوله: ﴿فلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُم إنَّا نعلمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ﴾[2] وقوله: ﴿فَلعلَّكَ بَاخعٌ نَفْسَكَ على آثارِهِم إنْ لَمْ يُؤمِنُوا بهذا الحديثِ أسَفاً﴾[3] وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ لَيُحْزِنُكَ الذي يقولونَ فإنَّهُمْ لا يُكذِّبُونَكَ ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[4] وقوله: ﴿فلا تذهبْ نَفْسُكَ عليهم حَسَرَاتٍ﴾[5].

٢ ـ تسهيل حفظه على الرسول والمسلمين وتسهيل فهمه:

فإنه عليه الصلاة والسلام أمي لا يقرأ ولا يكتب، وكذلك كان العرب المسلمون، وقد سماهم الله أميين ﴿هُوَ الذي بَعَثَ في الأمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[6].

ولئن كان النبي ﷺ قد وعد بأنه سيعان على الحفظ بحيث لا ينسى كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾[7] إن المسلمين بحاجة إلى زمن يساعدهم على الحفظ، ومن أجل ذلك كان نزوله منجماً.

٣ ـ موالاة تقريع الكفار بالحجة بعد الحجة، وتجديد تذكيرهم بانحرافهم وسوء عقيدتهم: لو نزل القرآن دفعة واحدة لواجه الكفار هذه التقريعات، وتألموا لها أول مرة، ثم ألفوها، ونسيها الناس.

٤ ـ استغلال الحوادث والوقائع للرد على المشركين وفضح المنافقين:

وهذه حكمة عظيمة من حكم التنجيم، فقد كانت الآيات القرآنية

---

(١) سورة المزمل: ١٠.

(٢) سورة يس: ٧٦.

(٣) سورة الكهف: ٦.

(٤) سورة الانعام: ٣٣.

(٥) سورة فاطر: ٨.

(٦) سورة الجمعة: ٢.

(٧) سورة الاعلى: ٦.

النازلة في حادثة معينة ترد على المشركين وتفحمهم، وتفضح المنافقين وتكتشف خفاياهم، وهذا يجعلهم يتخوفون أبداً ان يُكشفوا كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ المنافقونَ أنْ تُنَزَّلَ عليهم سورةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا في قُلُوبِهِمْ. قُلِ استهزِئُوا إنَّ اللهَ مخرجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾ (١).

٥ ـ تعميق التأثير في النفس والتذكر:

ان ربط الآية بالحادثة والواقعة أدعى الى ان يتذكر الناس جميعا هذه الآية، وأعمق تأثيراً في النفس البشرية.

لأن الآية عندئذ تعالج جانباً من حياة الناس عاشوه، ومثل ذلك من البعيد ان ينسى.

ومن الامثلة على ذلك ربط آية القذف بحادثة الإفك. والأمثلة على ذلك كثيرة.

٦ ـ رعاية المجتمع الاسلامي والأخذ بيده في الحياة الجديدة على ضوء هداية الله: ذلك لأن كثيراً من الآيات التشريعية كانت تنزل في الغالب جواباً عن سؤال كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه قُلْ قتالٌ فيه كبيرٌ﴾ (٢) أو حلاً لاشكال ليس في الكتاب الكريم رأي فيه. كما في قصة مرثد الغنوي الذي عَرَضَتْ عليه امرأة مشركة الزواج، فقبل ووقف ذاك على إذن الرسول ﷺ له، فلما عرض قضيته على النبي ﷺ نزل(٣) قوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حتَّى يُؤمِنَّ﴾ (٤).

---

(١) سورة التوبة: ٦٤.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

(٣) هذا قول ابن عباس ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» ٢٤٥/١ وقد روَى هذه القصة بسياقٍ آخرَ الترمذيُّ (١٥٣/٤ من تحفة الاحوذي) وذكر انها سبب لنزول الآية التي في أول سورة النور وهي قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة﴾ وكذا رواه ابو داود ٢٩٨/٢ والنسائي ٥٤/٦ ـ ٥٥ واطبري ٥٦/١٨ وابن كثير ٢٦٢/٣.

(٤) سورة البقرة: ٢٢١.

وقد جلا هذه الناحية على خير وجه الأستاذ سيد قطب فقال:

(لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة وينشىء مجتمعاً، ويقيم نظاماً، والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثير وانفعال بالكلمة، والى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع. والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد. إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج وتتدرج في مراقيه رويداً رويداً. وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً. فلا تجفل كما تجفل لو قدّم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح بالتالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها والتذاذاً بها.

ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها، فجاء لذلك منجماً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها ووفق استعدادها الذي ينمو يوماً بعد يوم في ظل المنهج التربوي الالهي الدقيق، جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة.. جاء لينفذ حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة وتكليفاً تكليفاً، جاء لتكون آياته هي (الأوامر اليومية) التي يتلقاها المسلمون في حينها ليعملوا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندي في ثكنته او في الميدان (الأمر اليومي) مع التأثر والفهم والرغبة في التنفيذ، ومع الانطباع والتكيف وفق ما يتلقاه... من أجل هذا كله نزل القرآن مفصلاً)[1].

لقد كان الناس في جزيرة العرب قبل الاسلام في شرك وجهالة، وبعد عن ذاك المستوى الرفيع الذي جاء في القرآن من توحيد الله وعبادته وحده، وإرادة الخير للناس، وتحريرهم من الظلم، وكان العالم كله في حالة

---

(١) «في ظلال القرآن» ١٩/٣٤.

انحلال وجور وجهل، وكان أهل الكتاب قد حرّفوا كتبهم، وأحلوا الخرافات والباطل مكان الحق.. فكان طبيعياً جداً ان يكون الكتاب الأخير آخذاً بمنهج التدرج في التشريع لإصلاح ذلك الواقع قال تعالى: ﴿وقُرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ (١).

والتدرج في التشريع وسيلة رعاية المجتمع الاسلامي، والأخذ بيده كما رأينا، ومن أبرز الامثلة على التدرج في التشريع الآيات التي ذكر فيها الخمر.

فلقد حرمت الخمر بعد ان امتلأت نفوس المسلمين مخافة من الله ورغبة في ثوابه، وحباً في التزام هديه.

وكان تحريم الخمر على مراحل كما هو معروف:

- نزل أولاً قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ: فِيهمَا إِثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناسِ، وإثمهما أكبرُ مِنْ نفعِهما﴾ (٢).

فلم تصرح الآية بطلب الكف عنها، ولكنها اكتفت بذكر ان اثمهما اكبر من نفعهما، وفي ذلك تهيئة النفس لقبول ما سينزل من الآيات بحقها.

- ثم نزل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تَقْرَبُوا الصلاةَ وأنتُمْ سُكَارى حتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولونَ﴾ (٣).

وفي هذه الآية نجد المنع مؤقتاً بحالة السكر. ومعلوم ان المسلم مكلف بالصلاة في أوقات متقاربة، لا يذهب خلالها أثر السكر، فكان ذلك سبباً في تركها سحابة النهار، وكانوا اذا صلوا العشاء سكر من أراد منهم السكر. وفي ذلك تدريب على تركها مدة طويلة من يقظة الانسان.

---

(١) سورة الاسراء: ١٠٦.

(٢) سورة البقرة: ٢١٩ وانظر «تفسير القرطبي» ٥٢/٣.

(٣) سورة النساء: ٤٣.

ـ ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمنُوا إنَّمَا الخمرُ والميسرُ والأَنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إنَّما يُريدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بينكُم العَداوَةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ. فهل أنتُم مُنْتَهُونَ﴾ (١).

فانتهى المسلمون، وتركوا الخمر، وأهرقوا ما في دورهم منها.

روى البخاري عن عائشة قالت:

(إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام. ولونزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولونزل (لا تزنوا) لقالوا: (لا ندع الزنا أبداً) (٢).

وكذلك فإنَّ التدرج كان في عقوبة الزنا أيضاً، اذ كان الحبس في البيوت حتى الموت للزانيات أو يجعل الله لهن سبيلاً، ثم نزل الحد. جاء في تفسير الجلالين في تفسير قوله تعالى: ﴿واللاتِي يَأتِينَ الفَاحِشَةَ من نِسَائِكُمْ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتَوفّاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ (٣): [أمروا بذلك أول الإسلام، ثم جعل لهن سبيلاً بجلد البكر مائة وتغريبها عاماً ورجم المحصنة] وروى مسلم انه ﷺ قال: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» (٤).

---

(١) سورة المائدة: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) «صحيح البخاري» ١٥٢/٦ وانظر «الاتقان» ٤٢/١ أقول: بهذا التدرج والاعتماد على العقيدة نجح الاسلام في تحريم الخمر والقضاء عليه كما تقول السيدة عائشة، بينما أخفقت حكومة أمريكا عندما أرادت منعه على الرغم من الأموال والجهود الكثيرة التي بذلتها واضطرت إلى اباحته مرة اخرى سنة ١٩٣٣ وانظر «ماذا خسر العالم» ص ٩١.

(٣) سورة النساء: ١٥.

(٤) «صحيح مسلم» ١٣١٦/٣ ط عبد الباقي.

٧ ـ اثبات الاعجاز:

في التنجيم دليل قاطع على الاعجاز، وذلك من وجهين:

الأول: في كونه محافظاً على المستوى الرفيع في البيان، والدرجة العالية في البلاغة، ذلك لأننا لا نعرف في مجال الأدب والبيان فصيحاً استطاع ان يبقى محافظاً على مستوى سامٍ في نتاجه الادبي مدة طويلة. بل إننا لنجد ان للنابغين من أئمة البيان سقطات، وكلما زاد احدهم تفوقاً عظمت سقطته، فالمتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس والذي ترك دويًّا في دنيا الفكر والأدب كبيراً جداً نجد له عدداً من الهفوات التي أخذت عليه[1] وكذلك شأن أبي تمام[2] وأبي نواس[3] وهما ـ كما يقول الجرجاني ـ سيدا المطبوعين وإماما أهل الصنعة[4] وكذلك شأن امرىء القيس وهو كبير شعراء الجاهلية فما اكثر الابيات التي عيبت عليه وأطال النقاد في ذكرها.

قال الباقلاني:

(ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الاحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فاذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم[5]، لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم، فإذا كان الاختلال يتأتى في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه استغنينا عن ذكر من هو دونهم، وكذلك

---

(١) انظر «الوساطة» للجرجاني ص ٦٤ ـ ٧٧.

(٢) انظر «الوساطة» للجرجاني ص ٥١ ـ ٦٢.

(٣) انظر «الوساطة» للجرجاني ص ٤٢ ـ ٥١.

(٤) انظر «الوساطة» للجرجاني ص ٦٤.

(٥) سمّى الباقلاني قبل هذا الكلام عدداً من الشعراء وهم: امرؤ القيس والنابغة وزهير فقال: [ولذلك ضرب المثل بامرىء القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبـزهير اذا رغب].

يستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها.... وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا) [١].

والقرآن ادب كلما أمعنت نظراً فيه أطلعك على نواح جديدة من الجمال، وكلما تقدم الزمان بدا من روعة اسلوبه وسحر بيانه ما لم يكن بادياً. هذا في القرآن على طول المدة التي نجم فيها.

وكذلك فإن مما يتصل بهذا المعنى بسبب هو ان التنجيم يبرز معنى الإعجاز في كون القرآن يعالج الموضوع الواحد اكثر من مرة، ويتكرر عرضه في ظروف متعددة متباعدة ويبقى الاسلوب في كل مرة رائعاً معجزاً.

قال الباقلاني:

(وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بيناً، ويختلف اختلافاً كبيراً، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر لأن الذي يقدرون عليه قد بينّا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب) [٢].

الثاني: في كون الآيات نزلت في أوقات متباعدة، واستجابة لأسباب معينة، وعلى الرغم من ذلك فقد بدت السورة ذات موضوعات متماسكة، كل موضوع يمسك برقبة الذي بعده، ويسود السورة انسجام وائتلاف

(١) «إعجاز القرآن» ص ٣٧ طبع دار المعارف تحقيق السيد صقر.

(٢) «إعجاز القرآن» تحقيق الصقر طبع دار المعارف ص٣٧ ـ ٣٨.

وكأنها أنزلت مرة واحدة، وقد يكون أول السورة قد نزل بعد آخرها.
وقد حلل هذه الناحية الدكتور محمد عبد الله دراز على أحسن وجه فقال: (اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول اكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها؟ ووطأت أولاها لأخراها؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها او مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد ام في نجوم شتى، ولسوف تحسب ان السبع الطول من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها قد نزلت نجوماً)[1].

(١) «النبأ العظيم» ص ١٧٣ وانظر ما كتب الدكتور دراز حول هذا الموضوع ص ١٦١ - ١٨٠.

الفصل الخامس

في الآية والسورة

١ ـ الآية:

١ ـ الآية في اللغة:

تدل كلمة الآية على معان عدة، نذكر أهمها فيما يأتي:

١ ـ المعجزة: ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بني إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيةٍ بينةٍ﴾[(١)].

٢ ـ العلامة الظاهرة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُم التابوتُ فيهِ سكينةٌ من ربِّكُمْ﴾[(٢)]. وقوله: ﴿ قالَ ربِّ اجعلْ لي آيةً قال آيَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيَّامٍ إلاَّ رَمْزاً﴾[(٣)].

ومنه قول العرب: بيني وبين فلان آية، اي علامة. ومنه قول النابغة:

تَـوهمـتُ آيـاتٍ لَهـا فعـرفْتُهَـا   لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سـابـعُ[(٤)]

٣ ـ الامر العجيب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابنَ مَرِيَمَ وأُمَّهُ

---

(١) سورة البقرة: ٢١١.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٨ والتابوت: الصندوق.

(٣) سورة آل عمران: ٤١.

(٤) ديوان النابغة ص ٧٢.

آيةً﴾ [١]. قال الراغب: (وانما قال: وجعلنا ابن مريم وأمه آية ولم يقل: آيتين. لأنَّ كل واحدٍ صار آيةً بالآخر) [٢].

٤ ـ العبرة: ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً﴾ [٣].

٥ ـ البرهان والدليل: ومنه قوله تعالى: ﴿ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكُمْ وألوانِكُمْ﴾ [٤].

٦ ـ الجماعة: ومنه قولهم: خرج القوم بآيتهم، او بآياتهم أي بجماعتهم. قال برج بن مسهر الطائي [٥]:

خَرَجْنَا مِنَ النقبينِ لاحيَّ مِثْلُنا بآياتنا نُزْجِي اللقاحَ المطافلا

* * *

وزنها:

اختلف علماء العربية في أصل (آية) ووزنها.

ـ فقال سيبويه: (أيَيَة) على وزن (فَعَلَة) مثل (أكَمَة) و (شَجَرَة) فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفاً فصارت (آية).

ـ وقال الكسائي: أصلها (آيية) على وزن (فاعلة) مثل (آمنة) فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع.

ـ وقيل: غير ذلك.

* * *

(١) سورة المؤمنون: ٥٠.
(٢) «مفردات الراغب» ص ٣٢.
(٣) سورة آل عمران: ٤٩.
(٤) سورة الروم: ٢٢.
(٥) شاعر جاهلي من المعمرين، كانت إقامته في ديارطي بنجد وذكر الزركلي في «الاعلام» انه توفي نحو ٣٠ قبل الهجرة.

اشتقاقها:

ذكر العلماء أقوالاً في اشتقاقها غير أن أقربها للصواب القول بأنها مشتقة من (التأيّي) الذي هو التثبت والاقامة على الشيء. يقال: تأيّ، أي ارفق.

* * *

جمعها:

آي، وآيات، وآياء.

* * *

الآية في القرآن:

هي طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها، لها مبدأ ومقطع، وهي مندرجة في سورة ومعرفتها توقيفية على القول الراجح.

* * *

كيف تعرف الآيات:

القول الراجح أن معرفة الآيات لا يكون إلا بخبر عن النبي ﷺ وهذا معنى قولنا (معرفة الآيات توقيفي). وقد سبق في تعريف الآية.

* * *

وهناك من يذهب إلى أن من الآيات ما معرفته سماعية توقيفية، ومنها ما معرفته اجتهادية، يقولون: ما ثبت أن النبي ﷺ وقف عليه دائماً تحققنا أنه نهاية آية، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس نهاية آية، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون تعريف الفاصلة او للاستراحة، وبالاجتهاد نستطيع تحديد نهاية الآية في مثل ذلك.

العلاقة بين المعنى اللغوي والقرآني:

ـ سميت الآية آية لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله. أي هي بائنة من أختها ومنفردة.

وقالوا: الآية من القرآن كأنها العلامة ينتقل منها الى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية.

ـ وقيل: سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه.

ـ وقيل: سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن الاتيان بمثلها [١].

٢ ـ السورة:

قال ابن فارس: السين والواو والراء أصلٌ واحد يدلُّ على علوٍّ وارتفاع [٢].

في نطقها لغتان: أولاهما (السؤرة) مهموزة، والثانية: (السورة) بلا همز، وهي الأشهر.

ـ أما الاولى ـ أي التي تهمز ـ فمشتقة من (أسأر) أي أبقى منها بقية. و (السؤر) البقية التي تزيد عن شرب الشارب في الاناء.

وسميت السؤرة سؤرة لأنها قطعت من القرآن على حدة، فهي قطعة من القرآن.

ـ وأما الثانية ـ أي التي لا تهمز ـ فقد قالوا في اشتقاقها أقوالاً كثيرة [٣].

فقد قيل: إن أصلها (سؤرة) ثم سهلت الهمزة، وتكون العلاقة بين معناها اللغوي والقرآني هي التي ذكرناها آنفاً.

---

(١) انظر «البرهان» ١/٢٦٦ و«الاتقان» ١/٦٨.

(٢) «معجم مقاييس اللغة» ٣/١١٥.

(٣) انظر «الاتقان» ١/٥٢ و«نكت الانتصار» ص ٥٧ و«البرهان» للزركشي ١/٢٦٣.

وقيل: هي من السورة التي تعني في كلام العرب المنزلة الرفيعة.
قال النابغة:

ألم تـر أن الله أعطـاك سـورة ... ترى كل ملك دونها يتذبـذب[1]

أي منزلة شريفة ارتفعت اليها عن منزلة الملوك. وقال الحطيئة:

لعمـري لنعـم المرء لا متهـاون ... عن السورة العليا ولا متخـاذل[2]

وقال:

وأبنـاؤه بيـض كـرامٌ نما بهم ... إلى السورة العليا أبٌ غير تـوأم[3]

وسميت السورة سورة لارتفاعها وشرفها.
وقيل: هي من السور، وسور المدينة حائطها المشتمل عليها.
فالسورة تضم آيات من القرآن تحيط بها إحاطة السور وتشتمل عليها.
وقيل: سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده كسور البناء.
وقيل: سميت بذلك لتمامها وكمالها، من قول العرب للناقة التامة: سورة.

جمعها:

وجمع السورة سُوَر، وسُورات، وسُوَرات.

السورة خاصة بالقرآن:

قال العلماء في تعريف السورة: هي طائفة من آيات القرآن، مُسَمَّاةٌ باسم خاصّ، لها فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.
ونقل السيوطي عن الجاحظ قوله:

---

(١) «ديوان النابغة» ص ٣١.
(٢) «ديوان الحطيئة» ص ٢٤.
(٣) «ديوان الحطيئة» ص ٨٩.

(سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل:

سمّى جملته قرآناً كما سموا ديواناً،

وبعضه سورة كقصيدة،

وبعضها آية كالبيت،

وآخرها فاصلة كقافية.) (١)

من سمى سور القرآن؟

ذهب السيوطي إلى أنها مسماة بتوقيف من النبي ﷺ وقال: (وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الاطالة لبينت ذلك) (٢).

هذا، وقد يكون للسورة اسمان فأكثر، والغالب أن لها اسماً واحداً.

---

(١) «الاتقان» ١/٥٠ النوع السابع عشر.

(٢) «الاتقان» ١/٥٢.

الفصل السادس

في ترتيب آيات القرآن وسوره

١ ـ ترتيب آيات السورة:

أما ترتيب الآيات في السورة الواحدة فقد كان في عهد النبي ﷺ وباشارة منه، وهذا مدلول قول زيد بن ثابت الذي رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين قال: «كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع»[١].

قال البيهقي: شبيه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيه باشارة النبي ﷺ، فقد جاء في حديث عثمان الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان أنه قال: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وفي رواية عنه قال: كان النبي ﷺ مما تنزل عليه الآيات فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له: «ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآية والآيتان فيقول مثل ذلك»[٢].

---

(١) «المستدرك» ٢/٢٢٩ و ٦١١

(٢) «أبو داود» ١/٢٩٠ و «الترمذي» ٤/١١٣ ـ ١١٤ و«المسند» ١/٥٧ و«المستدرك» ٢/٢٢١ و ٣٣٠ و«السنن الكبرى» ٢/٤٢. وانظر «المرشد الوجيز» ص ٣٣.

ومن الأدلة على أن ترتيب الآيات توقيفي حديث حذيفة الذي رواه مسلم في «صحيحه» قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها [١]... وهناك إجماع على أنه توقيفي. لا خلاف فيه بين المسلمين.

قال الباقلاني:

(ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا) [٢] وقال أيضاً:

(ان ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر، ولا أخر منه مقدم، وإن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آيات كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة) [٣].

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في هذا الصدد:

(وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم كما قدموا سورة على سورة لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً وأما ترتيب السور فمفوض الى اجتهادهم) [٤].

قال الاستاذ سيد قطب رحمه الله:

إنَّ وضع الآيات في السور وترتيبها في مواضعها كان يتم بأمر رسول

---

(١) «صحيح مسلم» ١٨٦/٢ ط استانبول و٥٣٦/١ ط عبد الباقي. وانظر «رياض الصالحين» باب المجاهدة ص ٦٧.

(٢) «الاتقان» ٦١/١ وانظر «عنوان البيان» لمخلوف ٧٢.

(٣) «الاتقان» ٦١/١ وانظر «المرشد الوجيز» ص ٤٥.

(٤) «مجموع الفتاوى» ٣٩٦/١٣.

الله ﷺ في حياته، وإن سوراً متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد فاذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعاً قائماً أو تكمل حكماً او تعدله وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين أمر رسول الله ﷺ أن توضع في موضعها من سورتها، وبذلك كانت هناك حكمة في أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات، وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة.

ولقد لاحظنا ـ كما أثبتنا ذلك مراراً في التعريف بالسور ـ أن هناك «شخصية» خاصة لكل سورة، وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية، كما أن هناك جواً معيناً وظلالاً معينة ثم تعبيرات بعينها في السورة الواحدة تؤكد هذه الملامح وتبرز تلك الشخصية)[1].

لماذا لم ترتب الآيات حسب نزولها؟

شاءت ارادة الله أن يوحي الى الرسول ﷺ بموضع الآية من السورة كما رأينا، وأن يجمع على غير ترتيب نزوله ليظل معجزة الى أبد الآبدين. وفي ذلك يقول الأستاذ محمد المدني في كتابه «المجتمع الاسلامي كما تصوره سورة النساء»:

(لو أنه جمع على حسب ترتيب نزوله لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها، أو أنه حلول وقتية للمشكلات التي كانت على عهد الرسول فحسب، والله تعالى يريد كتابه عاماً خالداً لا يختص بعصر دون عصر، ولا بقوم دون قوم. لذلك اقتضت الحكمة بأن يرتب ترتيباً يحقق هذا العموم وهذا الخلود، ويبتعد عن الترتيب الزمني الذي نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله)[2].

---

(١) «في ظلال القرآن» ١٠/١١٠١.

(٢) نقلا عن كتاب «القرآن والعلم الحديث» لعبد الرزاق نوفل ص ١٤.

٢ ـ ترتيب سور القرآن:

أما ترتيب السور فأمر مختلف فيه. فبعضهم يقول: إنَّه توقيفي [١]. وبعضهم يرى أنه اجتهاد من الصحابة. ويستدلُّ كل فريق بأدلة. فأما الذين يذهبون إلى انه باجتهاد من الصحابة، فقد قالوا: مما يدل على ذلك اختلاف مصاحف السلف من الصحابة كعلي وابن مسعود وأُبي بن كعب وغيرهم في هذه المصاحف من ناحية ترتيب السور. وقد أشار الى هذا الخلاف القرطبي في «التفسير» [٢] والسيوطي في «الاتقان» [٣]. قال الباقلاني:

(يمكن ان يكون الرسول ﷺ قد رتب سوره، وان يكون قد وَكَل ذلك إلى الأمة بعده. ولم يتولَّ ذلك بنفسه، وهذا الثاني أقرب) [٤].

وذكر أبو بكر الطرطوشي أنه قيل لمالك: كيف قدمت السور الكبار في التأليف وقد نزل بعضه قبل بعض؟ قال: أجل، ولكن أراهم أنما ألفوه على ما كانوا يسمعون من قراءة النبي صلّى الله عليْه وسلَّم [٥].

ويرى شيخ الاسلام ابن تيمية أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً، بل كان مفوضاً الى اجتهادهم، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد وكذلك مصحف غيره [٦].

وقد نقل السيوطي في «الاتقان» أن جمهور العلماء على ان ترتيب السور اجتهادي من الصحابة [٧] وأورد رأياً لابن حجر يقول فيه: ترتيب بعض

---

(١) «تناسق الدرر في تناسب السور» للسيوطي ٦٨ و٦٩ و«عنوان البيان» ٧٣ ـ ٧٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١/٥١.

(٣) «الاتقان» ١/٦٢.

(٤) «الاتقان» ١/٦١.

(٥) «الحوادث والبدع» ٩٧.

(٦) «مجموع الفتاوى» ١٣/٣٩٦

(٧) «الاتقان» ١/٦٢.

السور أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً ثم ذكر أدلته على ذلك [١].

ونقل السيوطي عن أبي عطية أنه مال إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصَّل. وأنَّ ما سوى ذلك يمكن أن يكون فُوِّض الأمر فيه إلى الأمة بعده [٢].

ومهما يكن من أمر فالذي أراه في هذا الموضوع هو:

ان ترتيب السور كما هو في المصحف واجب الاتباع، وان كان في بعضه أو معظمه يعود إلى ترتيب الصحابة. ولا يجوز أن تُرتَّب سور المصحف على خلاف الترتيب الذي ارتضاه الصحابة رضوان الله عليهم، وانعقد الاجماع عليه في الأجيال المتتالية التي جاءت من بعدهم حتى عصرنا هذا، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، ولذلك فإن ترتيب السور ترتيباً جديداً يراعى فيه النزول أمر مخالف للإجماع ولا يجوز، وهو غير ممكن، ذلك لأن هناك سوراً نزل آخرها قبل أولها واستغرق نزولها مدة من الزمن.

أما ترتيب آيات السورة ترتيباً جديداً فالأمر فيه أشد وهو محظور بإجماع المسلمين، بل قد حكم بعض العلماء بكفر من يفعل ذلك، لأن ترتيب آيات السورة - كما رأينا آنفاً - كان بأمر من النبي ﷺ بناء على أمر جبريل.

والله أعلم.

* * *

(١) «الاتقان» ١/٦٣ و«تناسق الدرر» ٧٠ و ٧١.

(٢) «تناسق الدرر» ٦٩ و«مقدمتان في التفسير» ٢٧٦ و«البرهان» ١/٢٥٧.

الفصل السابع

في إعجاز القرآن

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله محمد بن عبد الله ﷺ. وهذا يقتضينا ان نقدم بين يدي بحثنا في الاعجاز حديثاً عن المعجزة.

المعجزة:[1]

المعجزةُ ظاهرة تكررت في حياة الأنبياء صلوات الله عليهم، لتكون دليلا على صدق دعواهم النبوة. وقد قص القرآن الكريم علينا كثيراً من أنباء المعجزات التي جاءت مصدقة لرسل الله المتقدمين من أمثال ناقة صالح وعصا موسى، وركوبه البحر، وإحياء عيسى الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص.

ولا بد في المعجزة من أن تتوافر فيها أمور ثلاثة:

١ ـ انها أمر خارق للعادة غير جار على ما اعتاد الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية. ولذا فهي غير قابلة لتفسيرها على نحو ما يجري عادة في الحياة.

٢ ـ انها أمر مقرون بالتحدي، تحدي المكذبين أو الشاكين، ولا بد

---

(١) انظر «تعريف عام بدين الاسلام» ١٩٥ ـ ٢١١ و«نظام الاسلام: العقيدة والعبادة» ١٠٥ ـ ١٠٨.

أن يكون الذين يتحدون من القادرين على إتيان مثل المعجزة إن لم تكن من عند الله، وإلا فإن التحدي لا يتصور، إذ أننا لا نستطيع ان نتصور بطلا في الملاكمة يتحدى طفلا، لأن هذا الطفل عاجز عن مقابلته[1].

٣ ـ انها أمر سالم عن المعارضة، فمتى أمكن لأحد أن يعارض هذا الأمر ويأتي بمثله بطل أن يكون معجزة.

والمعجزة على نوعين: حسية وعقلية.

والملاحظ أن أكثر معجزات الأنبياء السابقين كانت حسية، بينما نجد ان المعجزة الكبرى التي جاء بها نبينا محمد ﷺ عقلية، ونعني بهذه المعجزة القرآن، وهناك معجزات أخرى للنبي ﷺ جاء في الصحيح أخبارها وهي كثيرة[2].

ولعل مرد ذلك الى أن هذه الشريعة آخر الشرائع وستبقى الى أبد الدهر الى يوم القيامة، ومن أجل ذلك فقد خصت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذوو البصائر في كل العصور ومهما تقدم الزمان.

... وهكذا فإن معجزات الانبياء السابقين ـ عليهم السلام ـ قد انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، بينما معجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة.

وبنحو من هذا الذي ذكرنا فسَّر العلماء قوله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة:

---

(١) وفي ذلك رد لزعم أبي إسحاق النظام من أن العرب سلبوا القدرة على الاتيان بالقرآن مع امكانهم ذلك.

(٢) وقد استوفى الكلام عليها القاضي عياض في كتابه القيم «الشفا في حقوق المصطفى» وابن كثير في «البداية والنهاية» ٦/٦٥ ـ ٣٠١ ووليد الأعظمي في «المعجزات المحمدية».

« ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله اليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة »[1].

* * *

الاعجاز:

كان القرآن معجزاً للعرب ذوي الفصاحة وأولي البلاغة، تحداهم فلم يقدر أحد منهم على معارضته، وقد قرَّر القرآن ان مجرد سماع العرب لآياته حجة كبرى عليهم، وكفى هذا دليلا على إعجازه. قال تعالى في صدد الرد على طلبهم المعجزات مشيراً إلى أن هذا الكتاب يغني عن كل معجزة: ﴿وقالُوا: لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ من ربِّهِ. قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ، وإنَّما أنَا نذيرٌ مبينٌ. أَوَلَمْ يكْفِهِم أنَّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الكتابَ يُتْلَى عليهم﴾[2].

فأخبر سبحانه: ان الكتاب الكريم الذي أنزله الله والذي يتلى عليهم آية من آيات الله كاف في الدلالة على صدق نبوته، قائم مقام معجزات كثيرة. فلماذا يطلب هؤلاء القوم الآيات؟ أولا يكفيهم هذا الكتاب الذي يفوق كل معجزات الأنبياء السابقة في الدلالة على نبوته؟

ويقول تعالى: ﴿وإنْ أحدٌ مِنَ المشركينَ استجارَكَ فَأجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾[3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن في باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ١٥٠/٦ وفي كتاب الاعتصام في باب قول النبي ﷺ « بعثت بجوامع الكلم » ٧٥/٩ ورواه مسلم في كتاب الايمان في باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد ﷺ ٩٢/١ وانظر « اللؤلؤ والمرجان » ٣٠/١ وانظر شرح الحديث في « فتح الباري » ٦/٩ وفي « شرح مسلم » للنووي ١٨٦/٢ و « البداية والنهاية » ٦٩/٦ و « الاتقان » ١١٦/٢ حيث نقل عن شراح الحديث كلاماً وافياً. وانظر « مبارق الازهار في شرح مشارق الأنوار » لابن الملك ٣٠٣/١.

(٢) سورة العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١.

(٣) سورة التوبة: ٦.

وإذا سمع كلام الله وتذوقه قاده ذلك إلى الإيمان ان كان من المنصفين، لأنه لا يسمعه متذوق منصف إلا وينتهي به إلى الإيمان.

هذا وقد أيد الواقع التاريخي ذلك، فقد حدثتنا كتب السيرة انَّ مجرد سماع العربي للقرآن كان يوقفه على المعجزة العظمى، ويحمله ذلك على الايمان. وأدرك ذلك كفار قريش، فكانوا ينهون عن سماع القرآن، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم: ﴿وقالَ الذينَ كَفرُوا: لا تَسْمَعُوا لِهَذا القرآن والغَوْا فيهِ لعلَّكم تَغْلِبُون﴾[1].

وكانوا يسعون جهدهم للحيلولة بين رسول الله ﷺ وبين من يأتي من وفود العرب الى مكة. ومن ذلك ما جاء في «سيرة ابن هشام» عن اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي:

(قدم الطفيل مكة، ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل شريفاً شاعراً لبيباً. فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين اظهرنا قد أعضل بنا[2]، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا. فلا تكلمنَّه ولا تسمعن منه شيئاً. قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ان لا اسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا[3] فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه.

فغدوت إلى المسجد، فاذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً

---

(١) سورة فصلت: ٢٦.
(٢) أي اشتد أمره بنا.
(٣) الكرسف: القطن.

حسناً، فقلت في نفسي: وا ثكل أمي، والله اني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وان كان قبيحاً تركته.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ الى بيته، فاتبعته، حتى اذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا.. فوالله ما برحوا يخوفونني امرك حتى سددت اذني بكرسف لئلا اسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعت قولا حسناً، فاعرض عليَّ أمرك. فعرض عليَّ رسول الله ﷺ، وتلا عليَّ القرآن. فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق)(١).

ومن أشهر الذين دخلوا في الاسلام بسبب إعجابهم باعجاز القرآن: عمر بن الخطاب وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ وغيرهم.

قال الاستاذ سيد قطب:

(سحر العرب منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للاسلام، ومن جعل على بصره غشاوة.

وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد ﷺ وحدها هي داعيتهم إلى الايمان في أول الأمر. كزوجه خديجة. وصديقه أبي بكر. وابن عمه علي، ومولاه زيد، وأمثالهم، فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم، أو أحد العوامل الحاسمة في ايمان من آمنوا أوائل أيام الدعوة، يوم لم يكن لمحمد ﷺ حول ولا طول، ويوم لم يكن للاسلام قوة ولا منعة.

---

(١) «سيرة ابن هشام» ١٣٠/٢ المطبوعة مع الروض الأنف و«البداية والنهاية» ٩٨/٣ - ١٠١ و«تقريب السيرة النبوية لابن هشام» تصنيف محمد الشبراوي ص ١٤٥ وما بعدها، وانظر تتمة القصة هناك وكيف كان هذا الرجل داعية إلى الاسلام بعد ذلك.

وقصة ايمان عمر بن الخطاب وتولي الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة للايمان والتولي، وكلتاهما تكشف عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى، وتبينان في اتجاهين مختلفين عن مدى هذا السحر القاهر الذي يستوي في الاقرار به المؤمنون والكافرون)[1].

وقصة ايمان عمر معروفة[2]، وأما قصة تولي ابن المغيرة فيحسن أن نذكر بها:

وموضوع الشاهد منها أن قريشاً أوفدت أبا جهل اليه يطلب منه أن يقول في القرآن قولا يعلم منه الناس جميعاً أنه كاره له، فأجابه الجواب الآتي الذي يدل على تأثره بجمال القرآن: (ماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وانه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه).

قال ابو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني افكر فيه.

فلما فكر قال: (إنْ هذا إلا سحر يؤثر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه).

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إنهُ فكَّرَ وقدَّر، فَقُتِلَ كَيْفَ قدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ، ثُمَّ أدْبَرَ واستكبَر، فقالَ: إنْ هَذا إلاّ سحرٌ يُؤْثَر﴾[3].

---

(١) «التصوير الفني في القرآن» ص ١١.

(٢) أنظرها في «سيرة ابن هشام» ٢/٩٥ و«البداية والنهاية» ٣/٧٩ و«تقريب السيرة» ص ١٢٤ - ١٣٠.

(٣) سورة المدثر: ١٨ - ٢٤ وقد أخرج هذه القصة الحاكم عن ابن عباس وانظر «الاتقان» ٢/١١٧ و«تفسير القرطبي» ١٩/٧٤ و«سيرة ابن هشام» ٢/١١ و«البداية والنهاية» ٣/٦١ و«تقريب السيرة» ص ٩٤.

وقد كتب الجاحظ مقالة في موضوع الاعجاز أرى أن اوردها هنا، فإنها مقالة جديرة بالاهتمام، قال الجاحظ:

(بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، واحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر، وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف. فنصب لهم الحرب، ونصبوا له وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساء الى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات.

فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر... فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال. وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الاسجاع والمزدوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم. فمحال ـ أكرمك الله ـ أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، وقد احتاجوا اليه،

والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة؟ فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه)[1].

* * *

مدار الاعجاز:

الاعجاز دليل النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد، **ومدار الاعجاز الذي رافقه التحدي إنما كان اسلوب القرآن ونظمه وبيانه، ولم يكن لشيء خارج عن ذلك وآيات التحدي كثيرة.**

لقد تحدى الانس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك مع توافر دواعي اعدائه على معارضته وفصاحتهم وبلاغتهم.

﴿قُلْ لَئِنِ اجتمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى اَنْ يَأْتُوا بمثل هَذا القرآنِ لا يَأْتُون بمثله، ولَوْ كَانَ بعضُهم لبعض ظهيراً﴾[2]. ﴿أم يقولونَ تقوَّلَهُ بلْ لا يُؤمنون. فَليأتُوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانُوا صادقين﴾[3].

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا:

﴿أم يقولونَ افتراهُ. قُلْ فأْتُوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادْعُوا مَن استطعتُم مِنْ دُون الله إنْ كُنْتُم صادقينَ. فإن لَمْ يَستجيبُوا لكم فاعلمُوا أَنَّما أُنزِلَ بعلمِ الله وأنْ لا إلهَ إلاَّ هُوَ فَهَلْ أنْتُمْ مُسْلَمُون﴾[4].

ثم تنازل الى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم

---

(١) الاتقان» ٢/١١٧.

(٢) سورة الاسراء: ٨٨.

(٣) سورة الطور: ٣٤.

(٤) سورة هود: ١٣ ـ ١٤.

وتقصيرهم عن ذلك، وأن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبداً: ﴿وإنْ كُنْتُمْ في ريبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنا فأْتُوا بسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فإنْ لَمْ تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّت للكافرين﴾ (١).

قال الامام ابن كثير رحمه الله:

(ومثل هذا التحدي انما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الاتيان بمثله، ولو كان من متقول من عند نفسه لخاف أن يعارض فيفتضح، ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له. ومعلوم لكل ذي لب أن محمداً ﷺ من أعقل خلق الله، بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق، فما كان ليقدم على هذا الامر إلّا وهو عالم بأنه لا يمكن معارضته.

وهكذا وقع، فانه من لدن رسول الله ﷺ والى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبداً)(٢).

* أما إخبار القرآن عن الأمم السابقة فدليل على صدق نبوة الرسول ﷺ، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم: ﴿كذلكَ نَقُصُّ عليكَ من انباءِ ما قَدْ سَبَقَ، وقد آتيناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ (٣).

﴿ذلكَ مِنْ أنباءِ القُرى نقصُّه عَلَيْكَ، مِنْها قائمٌ وحَصِيدٌ﴾ (٤).

﴿تِلكَ مِنْ أنباءِ الغيب نُوحيها إليكَ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنْتَ ولا قومُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فاصبرْ إن العاقِبَةَ للمتقين﴾ (٥) وقال تعالى مخبراً عن

(١) سورة البقرة: ٢٣ وما بعدها.
(٢) «البداية والنهاية»: ٦٥/٦.
(٣) سورة طه: ٩٩.
(٤) سورة هود: ١٠٠.
(٥) سورة هود: ٤٩.

بهتان اليهود: ﴿وبكفرهم وقولِهم على مَرْيَمَ بهتاناً عظيماً وقولِهم إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسول اللهِ، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّهَ لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ علم إلا اتِّبَاعَ الظنِّ، وما قَتَلُوهُ يقيناً بَلْ رَفَعَهُ الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[1].

* وكذلك فان إخبار القرآن عن الغيوب المستقبلة يقوم دليلا على صدق نبوة محمد ﷺ[2]، وعلى أن هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن انتصار الروم على الفرس ﴿ألم. غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض وهُم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبُونَ في بضعِ سنين﴾[3]. وكاخباره عما سيكون عليه الصحابة ﴿علِمَ أنْ سيكونُ منكم مَرْضى وآخرونَ يضربونَ في الأرضِ يَبْتَغُون من فضلِ اللهِ وآخرون يُقاتِلون في سبيلِ الله﴾[4] وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة. وكاخباره عن انتصار المسلمين في المستقبل ﴿أم يقولونَ نحنُ جميعٌ منتصرٌ سَيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلّونَ الدُّبُر﴾[5] وقد وقع مصداق هذه الهزيمة يوم بدر بعد ذلك. وكإخباره بدخولهم المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ﴿لقد صَدَقَ اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقِّ لتدخلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ محلقين رؤوسَكُمْ ومُقَصِّرين لا تخافون﴾[6] فدخلوه بعد سنة معتمرين، ودخلوه بعد سنتين فاتحين. وكاخباره بالاشارة الموحية عن حدوث وسائط

---

(١) سورة النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) ذكر البغدادي في «الفرق بين الفرق» ص١٢٨ أنَّ من فضائح أبي الهذيل قوله: إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي ﷺ ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الاخبار عن الغيوب.

(٣) سورة الروم: ١ ـ ٢ وانظر تفصيل هذا الإخبار في كتاب «الاسلام يتحدى» لوحيد الدين خان من ص ١٩٤ حتى ص ٢٠٤.

(٤) سورة المزمل: ٢٠.

(٥) سورة القمر: ٤٤ ـ ٤٥.

(٦) سورة الفتح: ٢٧.

للنقل جديدة غير الوسائل المعروفة وذلك في قوله سبحانه ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلقُ مالا تعلمونَ﴾ (١).

* وكذلك فان ما تضمنه القرآن من الاخبار عن السرائر ودخائل النفوس من غير ان يظهر منهم بقول أو فعل دليل على صدق نبوته، وعلى ان هذا القرآن من عند الله ولكنه ليس موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن حديث نفس خطر ببالهم، فأطلع الله عليه نبيه ﷺ وأنزل قوله: ﴿إذ همّتْ طائفتانِ منكمْ انْ تَفْشَلا (٢) والله وليُّهما وعلى الله فليتوكلِ المؤمنونَ﴾ (٣) والطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة اللتان همتا بالتقاعد عن الخروج يوم أحد. وكاخباره عن قول قاله اليهود في أنفسهم: ﴿ويقولونَ في انفسِهم لَوْلاَ يُعذِّبُنَا الله بما نقولُ. حسبُهم جهنمُ يَصْلَوْنَها فبئسَ المصيرُ﴾ (٤).

* وكذلك فان احتواء القرآن على شريعة كاملة صالحة لكل زمان ومكان امر يدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي..

* وكذلك فان اشتمال القرآن على نظرات صائبة الى حقائق الكون، وإشارات صادقة الى بعض الامور العلمية في الكون والانسان التي كشف عنها العلم الحديث (٥).. ان ذلك يدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلى ان

---

(١) سورة النحل: ٨ وأنظر أخباراً أخرى أوردها محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى ٨٤٠ في كتابه «البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع» ص ٣٢ - ٣٣ ط المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٩.

(٢) أي أن تجبنا وتضعفا.

(٣) سورة آل عمران: ١٢٢.

(٤) سورة المجادلة: ٨.

(٥) أنظر امثلة عليها في كتب التفسير العلمي. ومنها ما نقره ومنها ما نرده ونأباه.

هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي.

* إذن فالاعجاز الذي رافقه التحدي إنما هو في اسلوب القرآن ونظمه، وليس في شيء خارج عن ذلك مما أشرنا اليه آنفاً وإن كانت كلها ممَّا يعجز البشر عن ان يأتوا بمثلها وهي دليل على صدق النبي ﷺ ولكن بحثنا عن الإعجاز الذي رافقه التحدي، وقد جلا هذه الفكرة الكاتب الكبير الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى فقال:

(كيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ؟ وكيف اجتمع على الاقرار بسحره المؤمنون والكافرون سواء؟

بعض الباحثين ينظر الى القرآن جملة ثم يجيب. وبعضهم يذكر غير النسق الفني للقرآن أسباباً اخرى يستمدها من موضوعاته بعد أن صار كاملا:

* من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكان.

* ومن إخبار عن الغيب يتحقق بعد أعوام.

* ومن علوم كونية في خلق الكون والانسان.

ولكن البحث على هذا النحو انما يثبت المزية للقرآن مكتملا، فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم، ولا تجمع بطبيعة الحال كل المزايا المتفرقة في القرآن.

ان هذه السور القلائل قد سحر العرب بها منذ اللحظة الاولى، وفي وقت لم يكن التشريع المحكم، ولا الاغراض الكبرى هي التي تسترعي إحساسهم وتستحق منهم الاعجاب.

لا بدّ إذن ان تلك السور القلائل كانت تحتوي على العنصر الذي

يسحر المستمعين ويستحوذ على المؤمنين والكافرين، وإذا حسب الاثر القرآني في اسلام المسلمين فهذه السور الاولى تفوز منه بالنصيب الأوفى مهما يكن عدد المسلمين من القلة في ذاك الاوان، ذلك أنهم إذ ذاك تأثروا بهذا القرآن وحده.... يجب إذن ان نبحث عن منبع السحر في القرآن قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية، وقبل العلوم الكونية. فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الاولى كان مجرداً من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد، وكان مع ذلك محتوياً على هذا النبع الأصيل الذي تذوقه العرب فقالوا: إن هذا إلّا سحر يؤثَر) [١].

وقال أيضاً:

(قصة تولي الوليد بن المغيرة واردة في سورة المدثر، وهي السورة الثالثة غالباً في ترتيب النزول، سبقتها العلق وسورة المزمل، أو هي على العموم من السور الأولى في القرآن. فلننظر في هذه السور، إننا نقرأ الآياتِ المكية في هذه السور فلا نجد تشريعاً محكماً ولا علوماً كونية ولا نجد إخباراً بالغيب. فأين هو السحر الذي تحدث عنه ابن المغيرة بعد التفكير والتقدير؟) [٢].

ثم أخذ الاستاذ سيد قطب في تحليل سورة العلق وسورة المزمل ليؤكد ما ذكره من أن موضوع الجمال الفني هو الذي سحر العرب، وهو بالتالي الذي كانَ موضع الإعجاز.

ثم عمد إلى النظر بشكل عام وإجمالي في الآيات والسور التي سبقت في النزول سورة طه، ذلك لان آيات من هذه السورة كانت السبب في إيمان عمر بن الخطاب الذي سحر بالقرآن وجماله.

---

(١) «التصوير الفني في القرآن» ص ١٧ ـ ١٨.
(٢) «التصوير الفني في القرآن» ص ١٨ ـ ١٩.

قال الاستاذ سيد قطب:

(واننا لننظر فلا نجد فيها جميعاً الا القليل من تلك الاغراض التي يراها بعض الباحثين أكبر مزايا القرآن، ولكننا نجد في هذه السور جمالاً في العرض، وقوة في الاداء، وايقاعاً في العبارة، وإيحاء في الاشارة، على نحو فريد.

ونجد القضية الاعتقادية التي تتولى عرضها معروضة في إطار من مشاهد الكون ومشاعر النفس تستجيش الحسَّ وتستنهض الخيال) [1].

وهكذا أثبت الاستاذ سيد بالدليل الملزم أن إعجاز القرآن الذي رافقه التحدي، وكان معه هذا الاعجاب والسحر إنما كان بلفظه ونسقه وبيانه ونظمه، وليس بشيء خارج عن ذلك [2].

ومن المعلوم أن العرب لم يستطيعوا أن يأتوا بشيء مما تحداهم، مع ما نعلم من حرصهم على ان يقطعوا حجته، ومن لددهم في الخصومة، ومع ما نعرف من فصاحتهم وقدرتهم على البيان فلمّا عجزوا عن معارضته والاتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادى عليهم باظهار العجز بالآية التي سبق أن اوردناها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لئنِ اجتمَعَتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾ [3].

بل لم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك، لأنهم كانوا من المعرفة على جانب يصدهم عن مثل هذه المحاولة الحمقاء، وكذلك كانوا أمناء على البلاغة لا يغالطون فيها ولا يكابرون، فعدلوا الى المعاندة

---

(١) «التصوير الفني في القرآن» ص ٢٣.

(٢) وانظر أيضاً مقدمة استاذنا محمود محمد شاكر لكتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي رحمه الله.

(٣) سورة الاسراء: ٨٨.

والاستهزاء، والى أن يقولوا: ﴿إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأولين﴾[1] أو أن يقولوا: ﴿إنْ هذا إلا سحر يؤثر﴾[2].

ثم بعد ذلك ارتضوا أن يحكموا السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم، واستباحة أموالهم.. فلو علموا أن الاتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه لأنه كان أهون عليهم.

القول بالصرفة:

زعم النظّام[3]، وهو من ائمة المعتزلة في العصر العباسي، أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وكان مقدوراً لهم.

وقد أنكر هذا القول الباطل[4] جمهرة علماء اللغة والدين، وتولوا الرد عليه منذ أيام الجاحظ ثم القاضي عبد الجبار المعتزلي[5] حتى العصر الحاضر، ونورد فيما يأتي طائفة من أقوال العلماء في استنكار هذا الرأي.

* قال الباقلاني رحمه الله:

(على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حطّ من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الاتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن انزاله على النظم البديع، واخراجه

---

(١) سورة الانفال: ٣١. (٢) سورة المدثر: ٢٥.

(٣) هو إبراهيم بن سيار، أبو اسحاق النظام، توفي سنة ٢٣١ هـ.

(٤) بل نقل الإمام عبد الواحد التميمي في كتابه «اعتقاد الإمام المنبل أبي عبدالله أحمد ابن حنبل» أنَّ الإمام أحمد [كان يكفر من يقول: إن القرآن مقدور على مثله، ولكنَّ الله تعالى منع من قدرتهم. بل هو معجز في نفسه، والعجز قد شمل الخلق] انظر «طبقات الحنابلة» ٢/٣٠٢.

(٥) قال محمود محمد شاكر في مقدمته لكتاب «دلائل الاعجاز» ص ٥:
[لأن القاضي عبد الجبار نفسه، وهو إمام المعتزلة في زمانه، ردَّ مقالة «الصرفة» ونقضها في كتاب «المغني» ١٦/٣٢٣-٣٢٨].

في المعرض الفصيح العجيب، على أنه لو كانوا صرفوا لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف.. فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان... ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه)[1].

* وقال ابن تيمية رحمه الله:

(ومن أضعف الاقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها، أو بسلب القدرة الجازمة، وهو أن الله صرف قلوب الامم عن معارضته مع قيام المقتضي التام، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً)[2] ثم قال: (الصواب المقطوع به ان الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر)[2].

* وقال ابن كثير رحمه الله:

(وأما من زعم من المتكلمين ان الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع امكان[3] ذلك، أو هو سلب قدرتهم على ذلك فقول باطل)[4] ثم قال:

(فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله، ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك، لا تقدر الرسل الذين هم أفصح الخلق

---

(١) «اعجاز القرآن» تحقيق السيد صقر ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) «الجواب الصحيح» ٤/٧٦.

(٣) في الاصل: (مع انكار ذلك) وهو تصحيف.

(٤) «البداية والنهاية» ٦/٦٩.

وأعظم الخلق وأكملهم أن يتكلموا بمثل كلام الله. وهذا القرآن الذي يبلغه الرسول ﷺ عن الله أسلوب كلامه لا يشبه أساليب كلام رسول الله صلّى الله عليْه وسلّم...) (١).

* وقال الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله:

(هذا هو القول بالصرفة الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة، وهو وان كان اعترافاً في الجملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعجمي وشبهه ممن لم يذق للبلاغة طعماً، ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ، ولا أحد من علماء العربية، وهو يعد خلاف ما عرف العرب من أنفسهم كما سنبينه) (٢).

* وقال الاستاذ سيد قطب رحمه الله:

(أما الرأي القائل بصرفهم عن المحاولة فليس له وزن يقام) (٣).

* وقد لخص السيوطي الأفكار التي يتضمنها الرد بأربعة:

١ - قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن...﴾ (٤) يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لأنهم عندئذ يكونون كالموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.

٢ - أجمع العلماء على ان الإعجاز مضاف إلى القرآن. فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز؟ بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة.

٣ - يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي.

---

(١) «البداية والنهاية» ٦/٦٩.

(٢) «النبأ العظيم» ص ٨٩ واقرأ الرد على هذا القول ص ٦٢ من المصدر نفسه.

(٣) «التصوير الفني في القرآن» ص ١٥.

(٤) سوزة الاسراء: ٨٨.

ويخلو القرآن عندئذ من الإعجاز. وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ان معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن.

٤ ـ لو كانت المعارضة ممكنة وانما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون بالمنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه (١).

* * *

تلخيص:

ونستطيع أن نلخص ـ فيما يأتي ـ الأمور التي لا بد من معرفتها في موضوع الإعجاز:

١ ـ قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء.

٢ ـ الإعجاز في أسلوب القرآن ونظمه وبيانه. وخصائصه الفنية مباينة للمعهود من خصائص البيان البشري.

٣ ـ ما في القرآن من إخبار بالغيب وحديث عن الماضي بدقائقه وتفصيلاته، وإخبار بدخائل النفس وأسرارها، وكشف عن حقائق علمية وكونية، وإحكام في التشريع يضمن مصالح الناس... كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز وإن كان دليلاً على انه من عند الله، ولكنه لا يدل على ان نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وانه بهذه المباينة كلام رب العالمين (٢).

٤ ـ العرب الذين تحداهم القرآن هم أئمة البيان والفصاحة، ولديهم

---

(١) «الاتقان» ٢/١١٨ وانظر في الرد على القائلين بالصرفة «نكت الانتصار» للصيرفي ص ٢٨٦ وكتاب «لوامع الانوار البهية» للسفاريني ١/١٧٤.

(٢) انظر مقدمة محمود محمّد شاكر لكتاب «الظاهرة القرآنية».

القدرة على تمييز ما كان من كلام البشر، وما ليس من كلامهم، وقد أدركوا أنهم بالتحدي طولبوا بأن يأتوا بمثل هذا الكلام.

٥ ـ إن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثل معاني القرآن، بل قصد أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض مما يعتلج في نفوس البشر.

٦ ـ هذا التحدي مستمر إلى يوم القيامة وموجه الى الثقلين أيضاً.

٧ ـ وأخيراً فإن العرب الذين نزل عليهم هذا القرآن كانوا يحسون بجماله ويدركون إعجازه، واستمر الأمر كذلك جيلين من الناس الى أن داخلت العجمة سواد الناس فأفسدت سلائقهم، وبدأت العلوم والمعارف الدخيلة تتسرب إلى حياتهم، وقام دجالون مغرضون يريدون تشويه حقيقة الإسلام وساعدهم على تحقيق غرضهم بُعْدُ الناس عن تذوق القرآن وكان من هؤلاء الجعد بن درهم[1] الذي كان يقول بخلق القرآن وينفي عن الله ما أثبت لنفسه من صفات في القرآن، ثم جاء النظام ابراهيم بن سيار فقال بالصرفة. ورد عليه الجاحظ في كتابه «نظم القرآن».

وقد أكثر المعتزلة من إثارة قضية إعجاز القرآن، وكذلك فإن عدداً من علماء أهل السنة المتذوقين للبيان العربي كتبوا في ذلك من أمثال الإمام عبد القاهر الجرجاني[2] والرازي[3] والزملكاني[4].

* * *

---

(١) هو مبتدع له آراء ضالة وذكره بعضهم في الزنادقة. قتله خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٨ هـ. وانظر «الميزان» ١/٣٩٩ و«البداية والنهاية» ٩/٣٥٠ و«لسان الميزان» ٢/١٠٥ و«تاريخ الجهمية والمعتزلة» لجمال الدين القاسمي ص٣٦-٣٧ ط مؤسسة الرسالة ١٤٠١ (١٩٨١).

(٢) هو الامام الكبير واضع اسس البلاغة، والذواقة عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ.

(٣) هو محمد بن عمر التيمي البكري المتوفى سنة ٦٠٦ هـ صاحب التفسير.

(٤) هو عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الانصاري الزملكاني المتوفى سنة ٦٥١ هـ.

ومن الكتب المؤلفة في القرنين الرابع والخامس عن إعجاز القرآن: كتاب الرماني وهو «النكت في إعجاز القرآن»[1] ومؤلفه هو علي بن عيسى الرماني المتوفى ٣٨٤ هـ، وكتاب الخطابي وهو «بيان إعجاز القرآن»[1] ومؤلفه هو حمد بن محمد الخطّابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وكتاب الباقلاني وهو «إعجاز القرآن»[2] ومؤلفه هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ. وكتب الجرجاني وهي «الرسالة الشافية في إعجاز القرآن»[1] و«دلائل الإعجاز»[3] و«اسرار البلاغة»[3] ومؤلفها هو الامام المشهور عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١.

ترجمة القرآن:

هذا وإن مما يتصل بموضوع إعجاز القرآن وسمو بيانه موضوع ترجمة القرآن والحق في هذه المسألة التي كثر الأخذ والرد فيها ان نقرر ان ترجمة القرآن أمر مستحيل، لأن أي نص بليغ تتعذر ترجمته في أي لغة من لغات الأرض فما القول بالكلام الآلهي المعجز؟

أما تفسير معاني آياته بغير اللغة العربية فأمر لا مانع منه، بل إنه واجب، ولكنه لا يسمى قرآناً بحال من الأحوال[4].

---

(١) طبع هذا الكتاب في دار المعارف بمصر تحت عنوان «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن» بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام. ثم أعاد تحقيق هذا الكتاب محمود محمد شاكر وألحقه بنشرته لكتاب «دلائل الاعجاز» للجرجاني من ٥٧٥ إلى ٦٢٨.

(٢) طبع أكثر من مرة، ومن أجود طبعاته طبعة السيد صقر.

(٣) طبع أكثر من مرة، وأجود طبعاته طبعة محمود محمد شاكر التي صدرت عام ١٤٠٤.

(٤) انظر في ترجمة القرآن: «تفسير الرازي» ١/٢٠٩ و«الموافقات» للشاطبي ومقال محمد الخضر حسين في ترجمة القرآن مجلة نور الاسلام السنة الثانية ١٣٥٠ (١٩٣١ م) و«بلاغة القرآن» لمحمد الخضر حسين جمع علي الرضا التونسي طبع دمشق (١٣٩١) ١٢ - ٢١ و٦٠ - ٦٣ و«الفرقدان النيران في بعض المباحث المتعلقة بالقرآن» للشيخ محمد سعيد الباني و«القول الفصل في ترجمة القرآن إلى اللغات الاعجمية» للشيخ محمد شاكر طبع مصر سنة ١٣٤٣ هـ و«مسألة ترجمة القرآن» لمصطفى صبري، و«حدث الاحداث =

= في الاسلام الاقدام على ترجمة القرآن» لمحمد سليمان و« الادلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية» لمحمد فريد وجدي و« مناهل العرفـان» ٢/٣-٦٩ وانظر ما كتبه محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر في كراسة أعـاد نشرهـا في بيروت سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) صلاح الدين المنجد بعنوان « بحث في ترجمة القرآن وأحكامها» وانظر « مجلة الأزهر» المجلد السابع و« المعجزة الكبرى» لمحمد أبو زهرة ٦١١-٦١٩ و« ترجمة القرآن الكريم غرض للسياسة وفتنة في الديـن» لمحمـد الهيـاوي و« ترجمة القرآن» لعبدالله شحادة.

الباب الثاني

تاريخ جمع القرآن

سنتحدث في هذا الباب عن كتابة القرآن في عهد النبي ﷺ ، ثم عن جمعه في صحف ، أيام أبي بكر ، ثم عن نسخه في مصاحف أئمة ، أيام عثمان ، وسنتحدث أيضاً عن كتابة المصحف وتطورها ، وعن جواز كتابته بالإملاء المصطلح عليه بين الناس ، وعن نشره وطباعته.

الفصل الأول

في كتابة القرآن في عهد النبيّ ﷺ

كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه أمي فقال عز وجل: ﴿فآمنُوا بالله ورسولِهِ النبيِّ الأُميّ﴾[1]. وكان ﷺ حريصاً على حفظ ما ينزل عليه حرصاً جعله يسابق الملك ويعجل بتلاوة ما انزل عليه قبل أن يفرغ ويحرك به لسانه وشفتيه[2] حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿لا تُحرّكْ به لسانكَ لتَعْجَل به إنَّ علينَا جَمْعُه وقُرآنَهُ. فإذا قَرأنَاهُ فاتبع قُرآنَهُ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بيَانَهُ﴾[3] جاء في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس: (ان علينا أن نبينه بلسانك. قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله)[2]. وقال تعالى: ﴿فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ ولا تعجلْ بالقرآنِ من قبل ان يُقضى إلَيكَ وحيُهُ وقل ربِّ زدني علماً﴾[4].

وكان ﷺ يخشى أن ينسى شيئاً منه حتى تعهد الله له بعدم نسيان شيء منه وذلك بقوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾[5] أي لا تتعب

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٨.

(٢) رواه البخاري ٦/١٦٠ ومسلم ٢/٣٥ والترمذي ٤/٢٠٩ من «تحفة الاحوذي».

(٣) سورة القيامة: ١٦ ـ ١٩.

(٤) سورة طه: ١١٤.

(٥) سورة الأعلى: ٦.

نفسك ولا تعجل بالقراءة انك لا تنسى [١].

وكان ﷺ إذا ما انتهى الوحي تلا الآيات التي أنزلت وأمر كتبة الوحي بكتابتها بين يديه فيكتبونها. وكانوا يكتبون على الرقاع والعسب واللخاف والعظام [٢].

وكتاب الوحي عديدون أحصى أسماءهم عدد من العلماء وكان من أكثرهم استيعاباً الحافظ العراقي إذ ذكر اثنين وأربعين كاتباً لرسول الله ﷺ [٣] وعدهم البرهان الحلبي في (حواشي الشفا) فأوصلهم الى ثلاثة وأربعين [٤]. ومن أشهرهم الخلفاء الأربعة ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب. وليس من شك في أن كتبة الوحي في مكة كانوا أقل عدداً من كتبة الوحي في المدينة، كما كانت مهمة الكتابة ذاتها لم تأخذ طابعها الرسمي الذي أخذته في المدينة. ومهما يكن من أمر فمن المقطوع به أن الكتابة بدأت مع تنزل الوحي، وأن الصحابة كانوا يكتبون الآيات القرآنية في رقاع ومخطوطات شخصية لاستعمالهم، وإننا لنقرأ في

---

(١) انظر «المرشد الوجيز» ص ٢٩ ـ ٣٠ و«تفسير الجلالين» سورة الأعلى.

(٢) الرقاع: تكون من الجلد والرق والكاغد. والعسب: الاطراف العريضة من جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. واللخاف: صفائح الحجارة وهي جمع لخفة. والعظام معروفة وأشهرها الاكتاف كما جاء في رواية أخرى. وانظر شرحها في «فتح الباري» ٩/٢٢ و«الإتقان» ١/٥٨.

(٣) انظر «شرح الالفية في السيرة» ص ٤٤ و«التراتيب الادارية» للكتاني ١/١١٦.

(٤) «التراتيب الادارية» للكتاني ١/١١٧ وانظر في كتاب الوحي «تاريخ دمشق» لابن عساكر و«بهجة المحافل» لابن عبد البر، و«الاستيعاب» له عند ترجمة زيد، و«عيون الأثر» لابن سيد الناس ١/٣١٥ ط القدسي ١٣٥١ و«إمتاع الاسماع» للمقريزي ١/١٠١ و«فتح الباري» ٩/٢٣ و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي ١/٢٩ و«المرشد الوجيز» ٤٦ و«كتاب النبي» لمحمد مصطفى الأعظمي و«تفسير القرطبي» ١٣/٣٥٣ و«حاشية الشبراملسي على المنهج» عند كتاب القضاء و«حواشي الشفا» للبرهان الحلبي و«المطالع النصرية» للهوريني ص ١٤ و«عنوان البيان في علوم التبيان» لمحمد حسنين مخلوف ص ٦٨.

السيرة ان إسلام عمر كان بسبب قراءته آيات وجدها مكتوبة عند اخته[1].

إن عدد كتبة الوحي قليل بالنسبة الى جماهير المسلمين القراء الذين كانوا يحفظون القرآن بعد أن يتلقوه مشافهة من الرسول ﷺ، والذين كانوا يرددون آياته آناء الليل وأطراف النهار، فنحن نقرأ في أخبارهم أن القرآن ملأ حياتهم كلها، فإذا أووا إلى المسجد كانت تلاوة القرآن ديدنهم، وإذا سحب الليل بثيابه السود على الأرض قاموا في هدوء الليل يتهجدون بالقرآن تسمع لهم دوياً به وحنيناً.

إنَّ من المؤكد المقطوع به أنَّ القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ لكنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد. قال زيد بن ثابت عن القرآن: (وقبض النبي ﷺ ولم يكن جمع في شيء)[2] وذلك لما نعلم من أن سور القرآن كان معظمها مفتوحاً ومعرضاً لأن تنزل آيات توضع في بعضها، إذ ثبت كما مر أن الرسول ﷺ كان يأمر الكتبة أن: «ضعوا الآية بعد آية كذا من السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»[3] ولما كان يتوقع من ورود ناسخ لبعض احكامه أو تلاوته. فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة[4].

* * *

---

(١) انظر «سيرة ابن هشام» ٢/٩٥ و«البداية والنهاية» ٣/٧٩ وانظر «مدخل الى القرآن الكريم» لمحمد عبد الله دراز ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) انظر «فتح الباري» ٩/٩ و«الاتقان» ١/٥٧.

(٣) انظر «السنن الكبرى» ٢/٤٢ والمراجع التي سبق أن ذكرتها في الفصل السادس في ترتيب آيات القرآن وسوره. وانظر مقدمة تفسير سورة التوبة في «ظلال القرآن» ١٠/١١١ من المجلد الرابع.

(٤) هذا قول الخطابي. وانظره في «الاتقان» ١/٥٧.

الفصل الثاني

كتابته في عهد أبي بكر

كان جمع القرآن في موضع واحد في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك بعد معركة اليمامة التي كانت سنة ١٢ هـ[١]، وقد قتل فيها كثيرون كان عدد كبير منهم من القراء، جاء في خبر هذه المعركة - كما يروي الطبري - أنه (قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلثمائة وستون. قال سهل: ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين ثلثمائة)[٢]

وقال: زيد بن طلحة: قتل يوم اليمامة من قريش سبعون، ومن الأنصار سبعون، ومن سائر العرب خمسمائة[٣]. وفي البخاري عن قتادة قال:

(ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً وأعز يوم القيامة من الأنصار).

قال قتادة: (حدثنا أنس أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون ويوم اليمامة سبعون)[٤].

---

(١) هذا قول، وهناك قول آخر أنها كانت سنة ١١ والجمع بينهما ان ابتداءها كان في سنة ١١ والفراغ منها كان في سنة ١٢

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٣/٢٩٦ و«البداية والنهاية» ٦/٣٢٥.

(٣) «مختصر السيرة» لعبدالله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٤٧٥.

(٤) وانظر «البداية والنهاية» ٦/٣٢٣ وما بعدها. وانظر «صحيح البخاري».

ويروي لنا قصة جمع القرآن زيد بن ثابت فيقول:

(أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحرّ[1] يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن).

فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم؟.

قال عمر: هو والله خير.

فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك. قال أبو بكر يخاطب زيداً:

إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله[2] كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القر

قلت: كيف معلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟.

قال: هو والله خير.

فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر. قال زيد: فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال... وكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر)[3].

---

(١) أي اشتد.

(٢) هذا من كلام زيد.

(٣) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» ٦/١٥٠ والترمذي ١٢٢/٤ والبيهقي في «السنن الكبرى» ٤١/٢ وقد نقله الزركشي في «البرهان» ٢٣٣/١ والسيوطي في «الاتقان» =

وفي كلام أبي بكر رضي الله عنه ذكر للدوافع التي حملته على ترشيح زيد لهذا العمل. وقد ذكرها ابن حجر في « الفتح » فقال:

(ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك:

١ ـ كونه شاباً، فيكون أنشط لما يطلب منه.

٢ ـ وكونه عاقلا، فيكون أوعى له.

٣ ـ وكونه لا يتهم، فتركن النفس إليه.

٤ ـ وكونه كان يكتب الوحي، فيكون أكثر ممارسة له.

وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره لكن مفرقة) (١).

وتدل الروايات العديدة أن عمر بن الخطاب ساعد زيداً مساعدة تامة في هذا الموضوع، ولا عجب في ذلك، فانه صاحب الفكرة وهو الذي اقترحها على أبي بكر رضي الله عنهما. جاء في « كتاب المصاحف » (٢) لابن أبي داود أنَّ أبا بكر قال لعمر وزيد: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه (٣).

وقد فسره الشيخ علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ في كتابه « جمال القراء وكمال الاقراء » بأن المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

= عنه ١/٥٧ وانظر أيضا في « جامع الاصول » ٥٣/٣. وذكر محمد عبدالله دراز رحمه الله في كتابه « مدخل الى القرآن الكريم » ص ٣٦ هذه الرواية وعلق عليها قائلا: (بعد أن أورد لوبلوا LEBLOIS هذه الرواية أردف قائلا: من ذا الذي لم يتمن لو أن أحداً من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة) قال ذلك في كتابه « القرآن والتوراة العبرية » ص ٤٧ مذكرة ٥.

(١) « فتح الباري » ١٣/٩.

(٢) كتاب « المصاحف » ص ٦.

(٣) قال ابن حجر في « فتح الباري » ١٥/٩: ورجاله ثقات مع انقطاعه.

وكان غرضهم ـ على ما يقول ابو شامة ـ أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ [١].

ويدل هذا على زيادة في التحري، ومبالغة في الاحتياط، فزيد حافظ للقرآن وقد أوتي حظاً كبيراً من المعرفة بكتاب الله، ومع ذلك فلم يكن يكتفي بأن يوافق حفظ غيره حفظه، بل كان يطلب مع ذلك شيئاً مكتوباً، ويطلب من يشهد له على أن هذه الكتابة كانت بين يدي النبي ﷺ أي لم يكن يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً [٢].

قال الليث بن سعد: «أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد. وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل» [٣] ونقل السيوطي عن كتاب «المصاحف» أن عمر قال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان وهذا يدل على أنَّ زيداً كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ القرآن، فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط [٤].

ونقل ابن حجر في «فتح الباري» [٥] عن كتاب «المصاحف» [٦] ثناء علي بن أبي طالب على صنيع أبي بكر رضي الله عنهما فقال: (ويؤيده ما

---

(١) «الاتقان» ١/٥٨ وانظر «المرشد الوجيز» ٥٧.

(٢) انظر «المصاحف» لابن ابي داود ص ٥ وقد نقل ذلك عنه السيوطي في «الاتقان» ١/٥٧.

(٣) «الاتقان» ١/٥٨.

(٤) «الاتقان» ١/٥٨.

(٥) «فتح الباري» ٩/١٢.

(٦) انظر «كتاب المصاحف» ص ٥.

أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف» باسناد حسن عن عبد خير قال: سمعت علياً يقول: أعظم الناس أجراً أبو بكر رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله).

إذن فقد تولى أمر الجمع أحد كتاب الوحي الثقات العارفين، وهو زيد ابن ثابت الأنصاري، الذي كان من أكثر الناس حفظاً للقرآن، وكان يساعده في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت خطتهما التوثق من نقل ما كتب بين يدي النبي ﷺ مما يحفظانه، وأن يشهد الثقات العدول بأن الكتابة كانت على مرأى من الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

وكانت الكتابة على قراطيس وصحف كما جاء في «الاتقان»[1] (عن ابن عمر قال: جمع أبو بكر القرآن في قراطيس). وجمعت هذه الصحف في مكان واحد بعد أن كانت على عسب ولخاف ورقاع وأكتاف في أمكنة متعددة. وقد بذل زيد جهوداً ضخمة إذ أنه استطاع انجاز ذلك في سنة وفي خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

ويظهر أنه كان الى جانب هذا العمل الرسمي الذي تولته الدولة محاولات فردية من قبل بعض الصحابة، فقد جمع القرآن في صحف الصحابي الجليل أبي بن كعب، وكذلك فعل المقداد بن عمرو، وعبدالله ابن مسعود، وأبو موسى الأشعري.

فقرأ أهل دمشق على نسخة أُبي وأهل حمص على نسخة المقداد وأهل الكوفة والبصرة على نسختي عبدالله بن مسعود وأبي موسى الأشعري.

وبعد أن انتهى زيد من عملية الجمع سلم ما جمعه الى الخليفة أبي بكر الذي احتفظ به الى أن توفي فآلت هذه الصحف الى الخليفة عمر لأن أبا

---

(١) «الاتقان» ١/٥٩ و«الفتح» ٩/١٦ وأورد أبو شامة قريباً من هذا الخبر في «المرشد الوجيز» ٥٩ - ٦٢ - ٦٤ - ٧٠.

بكر عهد بها إليه لأنه المرشح للخلافة، ثم قام عمر بتسليمها الى ابنته حفصة أم المؤمنين في آخر حياته لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع في ذلك الوقت [١].

* * *

(١) «المدخل الى القرآن الكريم» ص ٣٧.

الفصل الثالث

نسخ المصاحف أيام عثمان رضي الله عنه

كلمة المصحف:

المصحف مثلثة الميم. وقيل: ان الفتح لا يعرف إلا من قبل الكسائي.

والمصحف: مأخوذ من أصحف، أي جعلت فيه الصحف المكتوبة بين دفتين جمعت فيه [١].

وهناك خبر في «كتاب المصاحف» لابن اشته، ذكره السيوطي في «الاتقان» [٢] يدل على أن هذه الكلمة كانت قبل زمان عثمان. وهو:

عن ابن بريدة قال: أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة، أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه، فجمعه، ثم ائتمروا ما يسمونه، فقال بعضهم: سموه السفر قال: ذلك تسمية اليهود، فكرهوه. فقال: رأيت مثله بالحبشة يسمى: المصحف، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف. وقال السيوطي تعليقاً على هذا الخبر: اسناده منقطع. وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب «المصاحف» أن أول من سمّى المصحف مصحفاً هو أبو بكر [٣].

---

(١) انظر «مختار الصحاح» «والقاموس» و«تاج العروس» و«لسان العرب».

(٢) انظر «الاتقان» ١/٥٨.

(٣) «التراتيب الإدارية» ٢/٢٨١ نقلاً عن السيوطي في كتابه «الوسائل إلى معرفة الأوائل» وذكر عبد السلام هارون في «تحقيق النصوص ونشرها» ص ١١ [أنَّ عمر أول من جمع =

سبب نسخ المصاحف وطريقة النسخ:

يبدو أن خلافاً وقع بين المسلمين في قراءتهم للقرآن ومَردُّه الى أمرين:

١ ـ اختلاف الحروف واللهجات والروايات.

٢ ـ اختلاف ما بين أيديهم من الصحف التي جمعها ناس من الصحابة أشرنا الى بعضهم في الفصل السابق. والأمر الثاني مترتب على الأمر الأول،فإنَّ اختلاف الصحف التي يقرأ بها الناس مقصور على اختلاف الحروف واللهجات.

يدل على ذلك الاختلاف ما رواه البخاري عن أنس قال:

(قدم حذيفة بن اليمان على عثمان ـ وكان يغازي أهل الشام في فتح ارمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ـ فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل الى حفصة ان ارسلي الينا الصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها اليك، فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت[١] وعبدالله بن الزبير[٢] وسعيد بن العاص[٣] وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام[٤] فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّها عثمان الى

= القرآن في مصحف، وتعددت مصاحف المسلمين حتى جمعهم على مصحف واحد] ولم يذكر مصدره في ذلك.

(١) هو زيد بن ثابت الأنصاري ولد سنة ١١ ق هـ وتوفي سنة ٤٥ هـ.

(٢) هو عبدالله بن الزبير الأسدي القرشي ولد سنة ١ هـ وقتل سنة ٧٣ هـ.

(٣) هو سعيد بن العاص الأموي القرشي ولد سنة ٣ هـ وتوفي سنة ٥٩ هـ. وانظر الرسالة التي كتبناها في دراسة حياته.

(٤) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي ولد سنة ١ هـ وتوفي سنة ٤٣ هـ.

حفصة، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن المكتوب في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)[1].

وجاء في «الاتقان» نقلا عن ابن أشته ان أنس بن مالك قال:

اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون[2]، أي لم يقتصر الأمر على الجند كما في حديث البخاري السابق بل جاوز ذلك الى المعلمين والغلمان.

وذكر ابن كثير انه (اجتمع خلق من أهل الشام ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود[3] وأبي الدرداء، وجماعة من أهل العراق ممن يقرأ على قراءة عبدالله بن مسعود وأبي موسى وجعل من لا يعلم بسوغان القراءة على سبعة أحرف يفضل قراءته على قراءة غيره، وربما خطأ الآخر أو كَفَّرَه فأدى ذلك الى اختلاف شديد، وانتشار الكلام السيء بين الناس)[4]. وأخرج البغوي عن مصعب بن سعد قال: لما كثر اختلاف الناس في القرآن قالوا: قراءة ابن مسعود، وقراءة أُبيّ، وقراءة سالم مولى أبي حذيفة. قال: فجمع عثمان أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت أن اكتب مصاحف على حرف زيد بن ثابت، ثم ابعث بها إلى الأمصار. قالوا: نعم ما رأيت. قال: فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال: فأي الناس

---

(١) «صحيح البخاري» ١٥١/٦ و«الترمذي» ١٢٣/٤ و«السنن الكبرى» للبيهقي ٤١/٢ و«شرح السنة» للبغوي ٥٢٠/٤ و«المقنع» ٥ ـ ٦ أقول: هذه هي الرواية الصحيحة التي تجعل رجال اللجنة أربعة وحسبنا أن البخاري أخرجها. وهناك روايات نجد فيها زيادة ونقصاً. ومن ذلك ما جاء في «المقنع» ٤.

(٢) «المقنع» ٧ و«الاتقان» ٦١/١.

(٣) وهو المقداد بن عمرو وانظر خبره في «الاصابة» ٤٣٣/٣ ـ ٤٣٤ توفي سنة ٣٣ وهو ابن سبعين سنة.

(٤) «البداية والنهاية» ٢١٧/٧ و«السنن الكبرى» ٤٢/٢ وانظر قريباً منه في «فتح الباري» ١٨/٩.

اكتب؟ قالوا: زيد بن ثابت كاتب الوحي. قال: فليملِ سعيد وليكتب زيد بن ثابت[1].

فكان عمل عثمان رضي الله عنه جمعاً للناس على مصحف واحد، ودرءاً لفتنة ومفسدة. أما الصحف التي اعتمدتها اللجنة الرباعية فقد أعادها عثمان الى حفصة بعد الانتهاء من النسخ، وبقيت عندها حتى وفاتها. جاء في «المصاحف» لابن أبي داود ما يأتي: (حاول مروان بن الحكم أن يأخذها منها ليحرقها، فأبت، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف وأحرقها، وقال: انما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الامام، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب)[2].

ذكر السيوطي نقلا عن كتاب ابن اشته انهم عندما اجتمعوا للكتابة كان عملهم انهم إذا اختلفوا وتدارؤوا في أي آية قالوا: هذه اقرأها رسول الله ﷺ فلاناً، فيرسل اليه وهو على رأس ثلاث من المدينة. فيقال له: كيف اقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا. فيكتبونها[3]. ويبدو انه قد اتبع في هذا الجمع ما اتبع في الجمع الأول أيام أبي بكر من البحث عن الآيات مكتوبة في عصر النبي ﷺ وأن يشهد اثنان بكتابتها في عصره[4].

ولقد بذلت هذه اللجنة الرباعية قصارى جهودها في سبيل اتقان العمل وتحري الصواب فيه حتى كان عملها كاملاً تاماً.

---

(١) «شرح السنة» ٤/٥٢٣ ـ ٥٢٤ و«المصاحف» ٢٣ ـ ٢٤ و«فضائل القرآن» لابن كثير ص ٢١.

(٢) «المصاحف» ص ٢٤.

(٣) «الاتقان» ١/٩٥ و«فتح الباري».

(٤) المعجزة الكبرى القرآن» لمحمد أبو زهرة ص ٣٣ وانظر «تفسير القرطبي» ١/٥١.

قال ابن حجر: وكان ذلك في حدود سنة ٢٥ هـ وغفل بعض من أدركناه فزعم أنه كان في حدود سنة ٣٠ ولم يذكر له مستنداً [١].

ونستطيع أن نقرر الأمور التالية عن عمل عثمان رضي الله عنه:

١ ـ اختيرت اللجنة اختياراً موفقاً من الأنصار والمهاجرين، وكان نصيب قريش فيها كبيراً لأن القرآن نزل بلغة قريش كما قال عثمان [٢]. وأفرادها من الصلاح والحفظ والمعرفة بمكان كبير، ومع ذلك فقد كانت لا تدخر وسعاً في السؤال والبحث، والتثبت ما استطاعت الى ذلك سبيلا، وكان افرادها يحفظون القرآن في صدورهم.

ولا بد من التنبيه الى أنَّ أحد أعضائها وهو زيد بن ثابت هو الذي قام بالجمع في المرة الأولى أيام أبي بكر الصديق.

٢ ـ جردت المصاحف مما ليس قرآناً كالشروح والتفاسير التي كان يثبتها بعض الصحابة على مصاحفهم.

٣ ـ اعتمدت اللجنة على صحف أبي بكر رضي الله عنه اعتماداً رئيسياً، حيث جعلتها الأصل، ثم استعملت كل ما أمكنها من وسائل التثبت والاستيثاق.

٤ ـ كتب القرآن بشكل يجمع القراءات التي نزل بها القرآن، وقد ساعد على ذلك عدم التشكيل وعدم التنقيط [٣].

---

(١) «فتح الباري» ٩/١٧.

(٢) «الاتقان» ١/٥٩. وهذا القول مروي عن عمر رضي الله عنه. قال ابن تيمية: (ثبت عن عمر بن الخطاب أنه قال لابن مسعود: أقرىء الناس بلغة قريش فإنَّ القرآن نزل بلسانهم) «الفتاوى» ١٩/٢٨ و «فتح الباري» ٩/٩. وقال أبو شامة ص ٦٩: (ومعنى قول عثمان «إن القرآن أنزل بلسان قريش» أي معظمه بلسانهم ... أو المراد نزل في الابتداء بلسانهم ثم أبيح بعد ذلك أن يقرأ بسبعة أحرف).

(٣) أقول: وهناك من يزعم أنَّ القرآن كان منقوطاً مشكولاً، ويعتمدون في زعمهم الباطل هذا على نصٍّ ورد في «النشر» ١/٣٣. =

٥ ـ استطاعت هذه اللجنة أن تنجح في عملها خير نجاح، فلقد حسمت هذه المصاحف الخلاف، وحالت دون فرقة المسلمين حول كتاب الله الخالد الكريم.

قال ابن تيمية يلخص عملية جمع القرآن:

(... فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه جبريل به (أي بالقرآن) مرتين، والعرضة الاخيرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف، وكتبها أبو بكر... ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف، وارسالها الى الأمصار باتفاق من الصحابة)[1].

* * *

= ولو كان ذلك كذلك لاستفاض النقل في ذلك ولم يقتصر الأمر على هذا الخبر الواهي ولما كان هذا التورع الشديد من استعمال النقط والتشكيل من عدد من علماء السلف كما سيمرُّ معنا.

هذا شيءٌ ومعرفة الناس للنقط في وقت مبكر شيءٌ آخر، ويعتمد من يرى مثل هذا الرأي على النص المشار إليه آنفاً وعلى ورقة من أوراق البردي زعموا في تقديرهم أن تاريخها يعود إلى سنة ٢٧ هـ ووجدوا فيها هذه النقط. وهذا محل نظر كبير ودون ثبوته خرط القتاد.

هذا وقد قرَّر ـ خطأ ـ القلقشندي في «صبح الأعشى» ١٥١/٣ (أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف) قرّر هذا بعدما أورد أسطورة تدّعي أنَّ أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من قبيلة بولان وهم: مرارة بن مرة الذي وضع الصور، وأسلم بن سدرة الذي فصل ووصل، وعامر بن جدرة الذي وضع الإعجام. وقال مرجحاً ما تقتَضيه هذه الأسطورة الباطلة المضحكة: (إذ يبعد أن الحروف قبل ذلك ـ أي قبل إعجام المصحف ـ مع تشابه صورها كانت عريَّةً عن النقط إلى حين نقط المصحف) أقول: وهذا الذي استبعده هو الذي تقتضيه طبيعة نشأة العلوم والفنون والمخترعات تبدأ بسيطة ثم تدخل عليها إضافات. وانظر في هذا أيضاً «مصادر الشعر الجاهلي» لناصر الدين الأسد الذي ذهب مثل هذا المذهب الباطل معتمداً على حجج باطلة وأدلة واهية. والله أعلم.

(١) «فتاوى ابن تيمية» ٣٩٥/١٣.

عدد المصاحف العثمانية:

* المشهور انها خمسة مصاحف، ارسل بها عثمان رضي الله عنه الى الآفاق الخمسة وهي: مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، واحتفظ بواحد منها لأهل المدينة.

* وهناك قول آخر أنها سبعة، ولكن هناك خبران في أسماء البلاد التي ارسلت اليها فالأول أورده ابن كثير في «البداية والنهاية»[1] فحواه أن عثمان رضي الله عنه كتب سبعة مصاحف: ارسل الى مكة مصحفاً، والى أهل مصر آخر، وبعث الى البصرة مصحفاً والى الكوفة بآخر، وأرسل الى الشام مصحفاً، والى اليمن مثله، وأقر بالمدينة مصحفاً.

والثاني أورده ابن أبي داود في «المصاحف»[2] وذكره أبو شامة في «المرشد»[3] والسيوطي في «الاتقان»[4] فحواه أن عثمان رضي الله عنه وجه بسبعة مصاحف، هذه الخمسة المشهورة (أي لمكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة) وأرسل مصحفاً الى اليمن ومصحفاً الى البحرين. قال أبو علي الأهوازي: ووجه بمصحف الى اليمن، وبمصحف الى البحرين فلم نسمع لهما خبراً، ولا رأينا لهما أثراً[5]. قال السيوطي: ولكن لم يسمع لهذين المصحفين خبر.

والفرق بين الخبرين هو المصحف السابع، أأرسل إلى مصر أم إلى البحرين.

* ولم يكتف عثمان رضي الله عنه بتوجيه هذه المصاحف الى هذه البلاد

---

(١) «البداية والنهاية» ٧/٢١٧.

(٢) «المصاحف» ص ٢٤.

(٣) «المرشد الوجيز» ص ٧٣ وص ١٥٨.

(٤) «الاتقان» ١/٨١.

(٥) «المرشد الوجيز» ص ١٥٩.

وانما اختار حفاظاً يثق بهم وأنفذهم الى الأقطار الاسلامية التي أرسل اليها المصاحف ليقرئوا أهل البلد المرسل اليهم، فأرسل مع كل مصحف قارئاً متقناً يقوم بمهمة التعليم والاقراء[١] .

* ويقال لهذه المصاحف الائمة، وليست مكتوبة بخط عثمان، وانما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة الى أمره وزمانه وامارته[٢] .

رأي الصحابة في صنيع عثمان:

كان جمع الناس على مصحف واحد من مناقب عثمان الجليلة، وحسناته العظيمة، وقد ذكر ابن كثير أن حذيفة بن اليمان عندما جاء عثمان وأخبره بما أخبره مما أشرنا اليه آنفاً قال: (فعند ذلك جمع عثمان الصحابة، وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجمع الناس في سائر الاقاليم على القراءة به دون سواه)[٣] .

وذكر ابن أبي داود عن علي رضي الله عنه انه قال:

(لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا. قال عثمان: ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً؟ قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت[٤]).

إذن فما كان صنيع عثمان إلا عن موافقة من الصحابة وبعد استشارتهم.

---

(١) «مناهل العرفان» ١/٣٩٦.

(٢) «البداية والنهاية» ٧/٢١٧ وانظر «فضائل القرآن» لابن كثير ص ١٥ طبعة عيسى البابي الحلبي الملحقة بالتفسير.

(٣) «البداية والنهاية» ٧/٢١٧، وانظر «فضائل القرآن» ص ١٥.

(٤) «المصاحف» ص ٢٢. ونقله عنه السيوطي في «الاتقان» ١/٥٩.

ونقل ابن كثير عن البيهقي وغيره أنهم رووا عن علي رضي الله عنه أنه قال:

(أيها الناس إياكم والغلو في عثمان تقولون: حرق المصاحف، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ ولو وليت مثلما ولي لفعلت مثل الذي فعل[1]).

وروى الطبري عن علي قوله:

(لا تسموا عثمان شقاق المصاحف، فوالله ما شقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ولو وليتها لعملت مثل الذي عمل[2]).

الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان:

* كان جمع أبي بكر الصديق للقرآن خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه ـ جزاه الله عن الاسلام خيراً ـ في صحف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم.

* وكان جمع عثمان حسماً لخلاف ذر قرنه في صفوف المسلمين، وجمعاً للمسلمين على نسخة موحدة من المصحف، ذلك أنه كثر اختلافهم في وجوه القراءة، فأدى ذلك بهم الى أن يخطىء بعضهم بعضاً، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد، مرتباً لسوره الترتيب النهائي[3] واقتصر في الكتابة من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم كما قال للقرشيين الثلاثة: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فانه انما نزل بلسانهم)،

---

(١) «البداية والنهاية» ٢١٨/٧، و«المقنع» ص٨.

(٢) «تاريخ الطبري» ١١٤/٦.

(٣) «الاتقان» ٥٩/١.

وانه ان كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم في بادىء الأمر دفعاً للحرج والمشقة، فإنَّ الحاجة الى ذلك قد انتهت، فاقتصر على لغة قريش[١] وكذلك فقد حذف عثمان من المصاحف كل الشروح والتأويلات وما نسخت تلاوته[٢].

قال الباقلاني: (لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وانما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيلٍ، ومنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد)[٣].

أين المصاحف العثمانية الآن؟

لا يُعرف لهذه المصاحف الآن مكان توجد فيه على وجه اليقين. على أنَّ هذه المصاحف العثمانية كانت موجودة طوال العصور السابقة.

فقد ذكر ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ في رحلته عند حديثه عن جامع دمشق أنَّ (في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه، وهو المصحف الذي وجّه به إلى الشام، وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله)[٤].

وقد رأى ابن فضل الله العمري (أحمد بن يحي بن محمد أبو العباس) المتوفى سنة ٧٤٩ هـ مصحفاً في دمشق وصفه بأنه أحد المصاحف العثمانية.

---

(١) «عنوان البيان في علوم التبيان» لمحمد حسنين مخلوف ص ٩٧.

(٢) «الاتقان» ١/٦٠.

(٣) «البرهان» ١/٢٣٥ و«الاتقان» ١/٦٠.

(٤) «رحلة ابن جبير» تحقيق حسين نصار ص٢٥٧.

قال: (..وإلى جانبه الأيسر المصحف العثماني بخط أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه) [1].

وذكر ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ في كتابه « فضائل القرآن » أنَّ في دمشق مصحفاً من هذه المصاحف فقال:

أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق، عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديماً بمدينة طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود [2] سنة ٥١٨ هـ. وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً فخماً بخط حسن مبين قويّ، بحبرٍ محكم في رق [3] أظنه من جلود الابل) [4].

كما ذكر ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩ في « رحلته » هذا المصحف الشامي فقال: (وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجَّهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام، وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة، بعد الصلاة، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم..) [5]

---

(١) « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمري تحقيق أحمد زكي باشا صفحة ١٩٥. وقوله (بخط أمير المؤمنين) تجوُّزٌ منه. والأقرب للصواب (بأمر أمير المؤمنين).

(٢) قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » صفحة ٤٢٨: (وفيها ـ أي في سنة ٤٩٢ هـ ـ نقل المصحف العثماني من طبرية إلى دمشق خوفاً عليه، وخَرَجَ الناس لتلقيه، فآووه في خزانة بمقصورة الجامع).

(٣) جاء في « صبح الأعشى » للقلقشندي ٤٨٦/٢ ما يأتي: (وأجمع رأي الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرَّق لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذٍ، وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة، وقد كثر الورق، وفشا عمله بين الناس أمر ألاّ يكتب الناس إلا في الكاغد..).

(٤) « فضائل القرآن » لابن كثير ص ١٥ طبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م، الملحقة بالجزء الرابع من « تفسير ابن كثير ».

(٥) « رحلة ابن بطوطة » ٥٤/١.

وذكر ابن بطوطة أيضاً أنه رأى مصحفاً من المصاحف العثمانية عندما دخل البصرة في رحلته فقال:

وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق، وإيناس للغريب وقيام بحقه، فلا يستوحش فيما بينهم غريب، وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته... وهذا المسجد من أحسن المساجد، وصحنه متناهي الانفساح، مفروش بالحصباء الحمراء... وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ [١] .

وذكر ابن بطوطة أنه رأى بعض تلك المصاحف العثمانية أو بعض صحائف منها خلال رحلته في مراكش وغرناطة وبعض المدن الاخرى[٢] . والله أعلم.

ويبدو أن ابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ قد رأى المصحف الشاميّ الذي تحدثنا عنه آنفاً[٣] .

واستمرَّ هذا المصحف الشاميُّ محفوظاً في الجامع الأموي إلى مطلع القرن الرابع عشر، ثم فقد هذا المصحف. فبعضهم يرى أنه نقل الى استامبول، ثم لم يعرف مكان وجوده، وبعضهم يرى أنه موجود في مكتبة من مكتباتها. وبعضهم يرى أنه احترق.

قال الأستاذ محمد كرد علي خلال حديثه عن الجامع الأموي:

(حتى إذا كانت سنة ١٣١٠ هـ سرت النار إلى جذوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات.. وحرق فيه مصحف كبير بالخط

---

(١) «رحلة ابن بطوطة» ١/١١٦.

(٢) نقل ذلك صبحي الصالح عن المستشرق كازانوفا. وانظر «مباحث في علوم القرآن» ص ٨٧.

(٣) «مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح ٨٨ ـ ٨٩.

الكوفي، كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى، وكان الناس يقولون: إنه المصحف العثماني) [١] .

وقال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر:

(وكان لدمشق الشام أن حصلت على نسخة من هذه المصاحف العثمانية، ولكنها يا للأسف أتلفتها النار في الحريق الذي التهم الجامع الأموي منذ ثلاثين سنة) [٢] وقد كتب هذا الكلام في شهر نيسان سنة ١٩٢٢ م.

ونقل الدكتور صبحي الصالح عن الدكتور يوسف العش عن الشيخ عبد المحسن الأسطواني [٣] أنه قد رأى هذا المصحف قبل احتراقه وكان محفوظاً بالمقصورة وله بيت خشب [٤] .

وذكر الأستاذ الكوثري أن الشيخ عبد الحكيم الأفغاني المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) نسخ مصحفاً مطابقاً لرسم هذا المصحف العثماني قبل وفاته وزعم الكوثري أن هذا المصحف العثماني نقل في أثناء الحرب العامة الى استامبول [٥] . أما مصحف الأفغاني فذكر أنه محفوظ عند بعض أصحابه بدمشق [٥] .

وذكر الكوثري أيضاً أن مصحف الكوفة كان في حمص وأنه نقل إلى العاصمة استامبول في أثناء الحرب العامة [٥] ولم يذكر في أي مسجد كان في حمص.

وكذلك فقد ذكر أن مصحف المدينة كان في المدينة وانه نقل أيضاً

---

(١) «خطط الشام» لمحمد كرد علي ٥/٢٧٩.
(٢) «مذكرات عبد الرحمن الشهبندر» صفحة ٣٤ طبع دار الإرشاد.
(٣) انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي وفي كتاب «عشرة من الناس» لزهير المارديني.
(٤) «مباحث في علوم القرآن» ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٥) «مقالات الكوثري» ص ١٢.

الى استامبول في أثناء الحرب[١] .

وذكر الكوثري أن كثيراً (من الماكرين يجترئون على تلطيخ بعض المصاحف القديمة بالدم، ليظن أنه الذي كان بيد عثمان رضي الله عنه حينما قتل، وكم من مصاحف ملطخة بالدم في خزانات الكتب، والله ينتقم منهم)[٢] .

وهناك الآن مصاحف أثرية في دار الكتب المصرية يقال عنها: إنها مصاحف عثمانية، ولكنَّا نستبعد أن تكون كذلك لوجود الزركشة والزينة والنقوش الفاصلة بين السور، ولوجود علامات لبيان أعشار القرآن.

قال الزرقاني: (ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ومن النقَط والشكل أيضاً)[٣] .

---

(١) «مقالات الكوثري» ص ١٢ وإن صحَّ هذا الخبر فلعلَّه هو الذي ذكره منير نصيف في مجلة العربي العدد ١١٠ (شهر كانون الثاني سنة ١٩٦٨) في استطلاع قام به عن استامبول قال ص٤٢ من العدد المذكور: (شاهدنا القرآن الكريم المخطوط على جلد الغزال، الذي كان يتلوه ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما استشهد في منزله، وعلى صفحة منه رأينا آثار دمائه الطاهرة).

(٢) «مقالات الكوثري» ص ١٣ .

(٣) «مناهل العرفان» ١/٣٩٧ .

وانظر خبر المصاحف العثمانية في الكتب التي ذكرناها في حواشي هذا البحث وانظر ما ذكره المقري في «نفح الطيب» ٨٦/٢ و ٩٩ و١٣٥. ومما يتصل بالمصاحف القديمة الخبر الذي نشرته جريدة الأهرام القاهرية بعددها الصادر بتاريخ ١٩٧٦/٤/٨ صفحة ٥ . وجاء في الخبر ما يأتي: (يدور الآن تحقيق حول المصحف الذي اختفى من دار الكتب، وتمَّ العثور عليه بالصدفة عندما اشترى الدكتور هنري عوض من بائع (روبابيكا) - أي بائع الملابس والأمتعة العتيقة- بسبعين جنيهاً في حين يؤكد وكيل الآثار بأن قيمته لا تقدر بثمن. والمصحف- موضوع الحديث- مكوَّن من ١٤١ ورقة من الرَّق، كتبه أبو سعيد الحسن البصري في عام سبعة وسبعين هجرية.. خلال خلافة عبد الملك ابن مروان، وقد كتبه بالخط الكوفي الدقيق وفي كل صفحة ٣٠ سطراً. وفاتحة الكتاب ورؤوس السور وفواصل الآيات بها زخارف مذهبة. وهو أول مصحف مؤرخ موجود الآن في العالم).

خاتمة

وبذلك فاننا نستطيع الجزم بأن النقل للقرآن كان متواتراً ويقول هذا بعض أعداء الاسلام أو بعض الناس الذين ليسوا مسلمين، فقد نقل الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ما يلي:

(قال لو بلوا: إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه تغيير يذكر) (وقال موير: إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الاطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الاسلامية الواسعة فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الاسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الاجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يُعَدُّ أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا) [1].

* * *

(١) «مدخل الى القرآن» ص ٤٠.

الفصل الرابع

كتابة المصاحف وتطورها

الاملاء العثماني:

الاملاء الذي كتبت به اللجنة املاء خاص بعصر الصحابة، وهو مختلف عن املائنا، فهو خال من النقط والشكل والزخرفة، وهو مخالف في عدد من كلماته لقواعد الاملاء المعروفة، وذكر السيوطي القواعد الستة التي ينحصر أمر الرسم فيها فقال:

(وينحصر أمر الرسم في ست قواعد: الحذف، والزيادة، والهمز، والبدل، والوصل، والفصل، وما فيه قراءتان فكتب على إحداهما)[1].

ثم فصل القول في كل قاعدة، وذكر ما لم يدخل تحت هذه القواعد منها.

وقد اكتسب هذا الرسم الذي سمي بالرسم العثماني كثيراً من القدسية، بسبب إجماع المسلمين على استحسان عمل عثمان رضي الله عنه.

ان هذه المبالغة في احترام هذا الرسم لتمثل لنا الامعان في المحافظة على هذا الكتاب الكريم من كل زيادة أو نقصان من قبل المسلمين، حتى اننا ما زلنا الى الآن نرى المصاحف مكتوبة بالرسم العثماني الذي كتبت به

---

(١) «الاتقان» ٢/١٦٧.

المصاحف أيام عثمان رضي الله عنه، وهذا ما لم يحظ به أي كتاب في تاريخ الفكر الانساني على الاطلاق [1].

تطور هذه الكتابة:

ان موضوع رسم المصحف علم قائم بذاته، وقد أُلفت فيه المؤلفات قديماً وحديثاً.

فمن المؤلفين القدامى أبو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ هـ (أو ٢٥٥ هـ) الذي ألف كتاب «رسم القرآن» وأبو عمرو الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ الذي ألف في هذا الفن كتاب «المقنع» [2] وأبو العباس أحمد بن محمد الازدي المراكشي المعروف بابن البنا المتوفى سنة ٧٢١ هـ الذي ألف كتاب «عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل».

ومن المؤلفين المحدثين الشيخ علي محمد الضباع الذي ألف «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين». والشيخ محمد خلف الحسيني الذي شرح أرجوزة المتولي، وذيل الشرح بكتاب سماه: «مرشد الحيران الى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن» [3].

هذا وقد تعرضت كتابة المصحف الى تطور تناول منها الاعجام والشكل وما الى ذلك، أما هيكل حروف الكلِمة فقد بقي على حالته الاولى.

والذي يذكره العلماء أن شخصيات مشهورة قامت بدور طيب في

---

(١) انظر رأينا في وجوب التزام كتابته تحت عنوان «كتابة المصحف والرسم العثماني» من هذا الفصل.

(٢) «كشف الظنون» ١٨٠٩/٢ و «مناهل العرفان» ٣٦٢/١ وقد نشر «المقنع» المستشرق أوتوبرتزل عام ١٩٣٢ في ألمانيا، وأعاد نشره محمد أحمد دهمان في سنة ١٣٥٩ هـ بدمشق.

(٣) «مناهل العرفان» ٣٦٢/١.

ادخال بعض التحسينات الاضافية على كتابة القرآن، وهذه الشخصيات هي:

أبو الاسود الدؤلي[١] ونصر بن عاصم[٢] أو يحيى بن يعمر[٣]، والخليل ابن أحمد[٤] وهناك اختلاف في نسبة الأولوية لبعض هؤلاء دون بعض. ويبدو أن أقرب الأقوال للصواب في تحديد دور كل منهم كالآتي:

١ ـ ذهب بعضهم الى أن أبا الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ أراد أن يعمل كتاباً في العربية يقوّم الناس به ما فسد من كلامهم، اذ كان ذلك قد فشا في الناس. فقال:

أرى أن أبتدىء بإعراب القرآن أولاً. فأحضر من يمسك المصحف، وأحضر صبغاً يخالف لون المداد وقال للذي يمسك المصحف عليه:

اذا فتحت فمي[٥] فاجعل نقطة فوق الحرف.

واذا كسرت فمي[٥] فاجعل نقطة تحت الحرف.

واذا ضممت فمي[٥] فاجعل نقطة أمام الحرف.

---

(١) هو ظالم بن عمر الدؤلي البصري أول من أسس النحو كان شاعراً من سادات التابعين توفي سنة ٦٧ أو سنة ٦٩ هـ.

(٢) هو نصر بن عاصم الليثي النحوي، كان فقيهاً من كبار التابعين توفي سنة ٨٩ هـ.

(٣) هو يحيى بن يعمر العدواني من علماء التابعين، كان فصيحاً كاتباً ولي قضاء مرو، وتوفي سنة ١٢٩ هـ.

(٤) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الازدي واضع علم العروض ولد في البصرة سنة ١٠٠ هـ وتوفي فيها سنة ١٧٠ هـ.

(٥) وردت هكذا: (فمي) في «الفهرست» لابن النديم ٦٦ و «نور القبس المختصر من المقتبس» لليغموري ص ٤ و «المطالع النصرية» ص ٢٠٥ ووردت هكذا: (فتحت شفتي) في «نزهة الألباء» لابن الأنباري ص ٢٠. لكن وردت هذه الكلمة في رواية الداني لهذه القصة هكذا: (فاي) وذلك في أول كتاب «النقط» المطبوع بعد «المقنع» ص ١٢٤ وكذلك وردت في «صبح الأعشى ٣/١٥٦. =

فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركة غنة (يعني تنويناً) فاجعل نقطتين.
ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف[1].

اذن فعمل أبي الاسود هو وضع علامات تشير الى الفتحة والكسرة والضمة والتنوين. وكانت هذه الاشارات تكتب بمداد يخالف المداد الذي كتب به الاصل.

٢ ـ واستمر الناس يقرؤون في مصحف عثمان وفي بعض المصاحف اشارات أبي الاسود، فلما كثر التصحيف واللحن وانتشر بالعراق فزع الحجاج بن يوسف الى كتابه، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات، فيقال: أن نصر بن عاصم الليثي أو يحي بن يعمر قام بإعجام الحروف المتشابهة ووضع النقط افراداً وازواجاً وخالف بين أماكنها[2]. وذكر ابن حجر عن هارون بن موسى أن أول من نقط المصاحف يحي بن يعمر[3]. اذن فالعمل الثاني الذي تمّ زمن الحجاج هو تنقيط الحروف المتشابهة أزواجاً وافراداً من فوق ومن تحت.

٣ ـ وجاء الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ فكان أول من وضع

= وهذه الرواية الأخيرة مخالفة لما ذكره النحويون من أنَّ الأسماء الخمسة تُعربُ بالحروف إن لم تضف إلى ياء المتكلم.
وقد تكون رواية (فاي) على لغة القصر، وإن كانوا ذكروا أن القصر ورد في ثلاثة أسماء فقط وهي (أب وأخ وحم).
وانظر «المحكم في نقط المصاحف».

(١) ذكرنا المصادر التي أوردت هذه القصة في التعليق السابق.
(٢) «التنبيه على حدوث التصحيف» لحمزة الأصفهاني طبع دمشق صفحة ٢٧ و «وفيات الأعيان» ٣٤٤/١ و «مقدمتان في علوم القرآن» ٢٧٦ و «نقط المصحف» للداني طبع استانبول صفحة ١٣٢ و «كتاب التصحيف» لأبي أحمد العسكري و «ضحى الإسلام» ٢٨٦/٢.
(٣) «تهذيب التهذيب» ٣٠٥/١١.

الهمزة والتشديد والروم والاشمام [١].

ويقال: إن الخليل اخترع أيضاً ضبط الحروف بالحركات فاستغنى الناس عن ضبط أبي الاسود [٢]، وكان العلماء يسمون ضبط الخليل شكل الشعر، وكان كثير منهم يكرهون استعماله [٣].

* * *

وما زال كل ذي موهبة فنية في الخط يبذل قصارى جهده ليبدع في كتابة المصاحف. وقد قامت مهنة خاصة عرفت بكتابة المصاحف، يقوم رجالها بنسخ المصاحف لقاء أجر، وكان بعض أهل العلم يتخذها مورد عيش له.

واختلف العلماء في الحكم على هذه الزيادات والتطورات.

* فمنهم من تشدد فحظرها، فقد ذكروا عن النخعي وابن سيرين انهما كرها نقط المصاحف [٢] وروي عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط حتى بالحمرة [٤].

وكانوا يقولون: جرّدوا القرآن [٥].

قال الغزالي: والظن بهؤلاء انهم كرهوا فتح هذا الباب خوفاً من أن

(١) «الاتقان» ٢/١٧١ و«تهذيب اللغة» للأزهري ١/٥٠ والروم: حركة مختلسة مختفية وهي أكثر من الاشمام لأنها تسمع، والاشمام: ضم الشفتين كمن يريد النطق بضمة إشارة إلى أن الحركة المحذوفة ضمة من غير أن يظهر لذلك أثر في النطق. (أنظر في ذلك كتب التجويد ومباحث بناء الفعل للمجهول والوقف في كتب قواعد اللغة العربية وكتب المعاجم مادة (روم) ومادة (شمم)).

(٢) «المحكم» للداني ص ٧ و «الاتقان» ٢/١٧١ وانظر ص ٢٦ من كتاب «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين» للشيخ علي محمد الضباع.

(٣) «المحكم» للداني.

(٤) «احياء علوم الدين» ١/٢٨٤ وانظر «المدخل» لابن الحاج ١/٧٤.

(٥) «احياء علوم الدين» ١/٢٨٤.

يؤدي الى احداث زيادات وحسماً للباب، وتشوقاً الى حراسة القرآن عما يطرق اليه تغييراً [1].

* ومنهم من منع شكل المصحف إلا إذا احتاجت الكلمة الى شكل، فقد نقل عن ابن مجاهد أنه قال: ينبغي الا يشكل الا ما يشكل [2].

* ومنهم من أجازها بشرط أن تكتب بلون مخالف. قال الداني: لا استجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم، وأرى أن تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة، والهمزات بالصفرة [3].

* ومنهم من استحبها، وهو الصواب. قال النووي:

نقط المصحف وشكله مستحب لانه صيانة له من اللحن والتحريف [2].

وقال الغزالي:

يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها، فانها تزيين وتبيين، وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه.

ثم قال: واذا لم يؤد الى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به [1].

* ومما يندرج تحت عنوان تطور كتابة المصحف تلك الاشارات التي وضعوها عند انتهاء كل آية. وقد أخرج ابن ابي داود عن يحي بن أبي كثير انه قال: كانوا لا يقرون شيئاً مما في هذه المصاحف الا هذه النقط الثلاث التي عند رؤوس الآي [4].

---

(١) «احياء علوم الدين» ١/٢٨٤.
(٢) «الاتقان» ٢/١٧١.
(٣) «النقط» المنشور مع «المقنع» ص ١٢٥ ـ ١٢٦ و «الاتقان» ٢/١٧١.
(٤) «المصاحف» ١٤٣.

وكذلك فان مما استحدث في المصاحف الفواتح والخواتم والتعشير والتحزيب والتجزئة وكتابة اسماء السور وعدد الآيات والسجدات واشارات الوقوف وأرقام الآيات.

وقال الاستاذ علي محمد الضباع: (وأما النقط والشكل وما في حكمه من علامات الفواصل والسجدات والاجزاء والاحزاب وأقسامها والخموس والعشور والمواقف والفواتح والخواتم فقد اختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال:

١ ـ الجواز مطلقاً.

٢ ـ الكراهة مطلقاً.

٣ ـ الجواز في المصاحف التي يتعلم فيها الغلمان ومن في حكمهم دون المصاحف الامهات وقد نسب الامام الداني في «المحكم»[١] هذه الأقوال الى أربابها. والعمل في وقتنا هذا على الترخص في ذلك دفعاً للالتباس ومنعاً للتحريف والخطأ في كلام رب العالمين[٢].

* * *

كتابة المصحف والرسم العثماني:

هناك آراء ثلاثة في كتابة المصاحف:

١ ـ تحريم مخالفة مصحف عثمان في حرف، ووجوب كتابته على الكتبة الأولى.

٢ ـ جواز مخالفته.

---

(١) «المحكم» للداني تحقيق عزة حسن.

(٢) «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين» ص ٢٦ وانظر كتاب «الحوادث والبدع» للطرطوشي ص ٩٧ وانظر أيضاً «مقدمتان في علوم القرآن» ص ٢٧٦.

٣ - وجوب كتابته بالاملاء الشائع عند الناس ولا سيما للعامة والطلبة الصغار.

* أما الرأي الأول فهو الرأي الذي مال اليه الكثرة من العلماء، وليس الحق دائماً مع الكثرة، ولا شك في أن الدافع اليه الحرص على توفير السلامة لنص القرآن والمحافظة عليه من كل عوادي الزمان.

ومن القائلين بهذا الرأي الامام مالك الذي حكي عنه وجوب الكتابة على الكتبة الأولى (١).

ومنهم الامام أحمد الذي كان يقول: تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك (٢). وقد كتب الاستاذ علي محمد الضباع فصلاً ضافياً في كتابه «سمير الطالبين» (٣) ولم يأت بحجة شافية ولا دليل مقنع، وقد ذكر شيئاً لا دليل عليه وهو أن النبي ﷺ أملاه على الكتبة من تلقين جبريل ثم قال: «ويشهد لكونه من املائه ﷺ ما ذكره صاحب «الابريز» عن شيخه العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ انه قال: رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة وكمال الرفعة وهو صادر من النبي ﷺ وليس للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وانما هو بتوقيف من النبي ﷺ وهو الذي أمرهم أن يكتبوا على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها ونحو ذلك، لأسرار لا تهتدي اليها العقول إلا بفتح رباني، وهو سر من الاسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر

---

(١) «الحوادث والبدع» ص ٩٧ و «المقنع» ٩ - ١٠ و «الاتقان» ٢/١٦٧.

(٢) «الاتقان» ٢/١٦٧ و «البرهان» ١/٣٧٩ وقال أبو عمرو الداني في «المقنع» ص ٢٨: يعني الواو والألف المزيدتين في الرسم لمعنى المعدومتين في اللفظ نحو الواو في (أولوا الالباب) و (أولات) و (الربوا) ونحوه.

(٣) انظر «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين» ص ٢٣ - ٢٤ ويعتمد مؤلفه على أن الرسم كان بإجماع الصحابة. وهذه دعوى يصعب على مدعيها أن يأتي عليها بدليل. وانظر «عنوان البيان في علوم التبيان» لمحمد حسنين مخلوف ص ٦٤ - ٦٦.

الكتب السماوية فكما أن نظم القرآن معجز فرسمه معجز أيضاً، وهذا الكلام ليس عليه أي دليل وهو غاية في مباعدة الحق.

* أما الرأي الثاني فقد قال به جماعة من أهل العلم وحجتهم في ذلك أن رسم المصحف اصطلاحي لا توقيفي. قال أبو شامة: (.. وأما ما يرجع إلى الهجاء وتصوير الحروف فلا اعتبار بذلك في الرسم، فانه مظنة الاختلاف، وأكثره اصطلاح)[1].

ومن القائلين بهذا الرأي القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وسنورد قول كل منهما فيما يأتي:

قال القاضي الباقلاني: (وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً اذ لم يأخذ على كتّاب القرآن وخطاطي المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه. اذ وجوب ذلك لا يدرك الا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز الا على وجه مخصوص، وحد محدود، لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في اجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية.

بل السنّةُ دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه، ولم يبين لهم وجهاً معيناً، ولا نهى عن كتابته بغيره، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف[2]، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد أو ينقص لعلمه ان ذلك اصطلاح،

---

(١) «المرشد الوجيز» ١٧٣ وانظر الأدلة الخمسة التي أوردها الكردي في كتابه «تاريخ القرآن وغرائب رسمه» ص ١٠١-ص ١٠٥.

(٢) قال ابن تيمية في «الفتاوى» ١٣/٤٢٠: (فإن مالكاً كان يقول عن أهل الشورى ان لكل منهم مصحفاً يخالف رسم مصحف عثمان) وانظر «المقنع» ٩٢ و«تاريخ القرآن وغرائب رسمه» لمحمد طاهر الكردي ص ٩٨.

وان الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الاول، وأن تجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان.

والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الاشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكتابة به على أي صورة كانت.

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب ان يقيم الحجة على دعواه. واني له ذلك؟)[1].

وقال ابن خلدون: (كان الخط العربي لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة، ولا الى التوسط، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الاجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ وخير الخلق من بعده، المتلقون لوحيه من كتاب الله

---

(١) «الانتصار» للباقلاني وقد نقلت هذا الكلام من مقدمة «تفسير المراغي» ١/١٣ - ١٤.

وكلامه... ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وان ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما يتخيل، بل لكلها وجه. ويقولون في مثل زيادة الألف في ﴿لا اذبحنه﴾ [1] أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع. وفي زيادة الياء في ﴿بأييد﴾ [2] أنه تنبيه على كمال القدرة الربانية.. وأمثال ذلك مما لا أصل له الا التحكم المحض.

وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط، وحسبوا أن الخط كمال، فنزهوهم عن نقصه، ونسبوا اليهم الكمال باجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه. وليس ذلك بصحيح) [3].

* وأما الرأي الثالث فان أشهر القائلين به الامام العز بن عبد السلام رحمه الله المتوفى سنة ٦٦٠ هـ الذي يرى أنه لا تجوز كتابة المصحف للعامة بالرسم العثماني الاول لئلا توقع هذه الكتابة في تغيير من الجهال.

وإليك كلامه كما نقله عنه الزركشي. قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: (لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الاولى باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجهال) [4].

ومن القائلين به من المعاصرين عدد من العلماء منهم العلامة الشيخ أحمد

---

(١) سورة النمل: ٢١.

(٢) سورة الذاريات: ٤٧.

(٣) «مقدمة ابن خلدون» ط وافي ١٠٨٦/٣ - ١٠٨٩ ط ٢، وفي طبعة بولاق ٣٩٦، وفي طبعة عبد الرحمن محمد في المطبعة البهية المصرية ٣٦٥، وفي طبعة بيروت ٤١٩ وجاء كلام ابن خلدون هذا في الفصل الثلاثين في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية.

(٤) «البرهان» ٣٧٩/١ و «إتحاف فضلاء البشر» ص ٩ وقد نقله أيضاً المراغي في «تفسيره» ١٥/١.

مصطفى المراغي الذي قال في مقدمة تفسيره: (وقد جرينا على الرأي الذي أوجبه العز بن عبد السلام في كتابة الآيات أثناء التفسير للعلة التي ذكرها، وهي في عصرنا أشد حاجة إليها من تلك العصور)[1].

وقد جرى الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - على هذا الرأي فكتب الآيات في «الظلال» بالاملاء الحديث في الطبعة الأولى.

ويبدو أنه لا مانع عند أصحاب هذا الرأي من المحافظة على الرسم العثماني للخاصة باعتبار أنه من الآثار النفيسة التي ينبغي أن تبقى في أيدي العارفين.

ورأينا أن القول الأول غير صحيح، وأن أقرب هذه الأقوال للصواب هو القول الثالث ولئن قال العز بن عبد السلام: إن كتابة القرآن على الرسم العثماني توقع الجهال في زمانه في تغيير إن هذه الكتابة الآن توقع جمهور المثقفين وعامة الناس في هذا التغيير والتبديل، ذلك لأن الناس في زمانه كانوا يتلقون القرآن عن طريق المشافهة والأخذ من الاستاذ في الكتاتيب، والكتّاب مدرسة قائمة على القرآن بشكل أصيل. وقد انقرضت هذه الكتاتيب اليوم من جميع انحاء العالم الاسلامي، وزاحمتها المدارس العصرية التي تقوم على مناهج متأثرة بحضارة الغرب، وضعت في معظم بلاد المسلمين من قبل الاجانب أو تلامذتهم وعملائهم. وإذا نظرنا الى واقع المسلمين فقلما نجد مثقفاً ممن خرّجتهم هذه المدارس ولم يتلق ثقافته من مصدر آخر قلما نجده يستطيع أن يقرأ القرآن قراءة سليمة.

ومن أجل ذلك فاننا نرى أن يكتب القرآن للتعليم بالاملاء المعاصر ويحتفظ بالكتابة العثمانية أثراً نفيساً من آثار السلف. اننا بذلك نقرب القرآن للناس، ونحول دون أن تكون هناك هوة سحيقة بين الناس وبين

---

(١) «تفسير المراغي» ١/١٥.

القرآن، وتبقى المصاحف المكتوبة على الكتبة الأولى دليلاً على الاتصال باملاء السلف، وتطبع من أجل كثير ممن تعلموا القراءة في المصحف المكتوب تلك الكتابة، ومن أجل معرفة القراءة الثابتة التي جعلوا من شروطها موافقة المصحف الامام.

أما أولئك الذين يظنون أنهم بمنعهم أي كتابة غير الكتابة الأولى يبقون على الكتابة ذاتها فهم مخطئون لأن الكتابة التي تجدها في المصاحف مشكولة منقوطة وليست كذلك الكتابة الأولى، أضف الى ذلك أن عدداً من طبعات المصاحف قد دخلها كثير أو قليل من التعديل في الاملاء.

وقد أحسن الاستاذ إبراهيم الابياري عندما قال:

(واخشى ما نخشاه نحن اليوم، أو بعد اليوم، أن يبقى القرآن برسمه القديم الذي يختلف واملاء العصر، فيخلق بلبلة على الالسن. وما نحن في كل بيئة نملك حفاظاً يضبطون الألسنة عن أن تلتوي، وإن ملكنا في كل بيئة حفاظاً فمحال أن يجد كل قارىء حافظا الى جواره.

يجب ان نخاف ما خافه السلف، وان نحتاط كما احتاط السلف. ويجب أن نفصل بين وحي الله واقلام الكتاب)[1].

* * *

نشر المصحف وطبعه في العصر الحاضر:

ما ان جاء العصر الحاضر وظهرت الطباعة حتى شرعت المطابع تطبع المصحف وتعنى به عناية كبرى، والطبعات الاولى طبعات اوربية اشرف عليها مستشرقون.

---

(١) «تاريخ القرآن» لابراهيم الابياري ص ١٣٩ وانظر في رسم القرآن كتاب «تاريخ القرآن» لمحمد طاهر الكردي ص ١٠١ وما بعدها وكتاب «القرآن المجيد» لمحمد عزة دروزة ص١٢٨ وما بعدها وكتاب «الفرقان» لابن الخطيب ص ٦٠ ـ ٩٠.

١ ـ فقد طبع للمرة الأولى في البندقية من ايطاليا سنة ٩٣٧ هـ/ ١٥٣٠ م.

٢ ـ ثم طبع في (هامبورغ) من المانيا سنة ١١٠٦ هـ/١٦٩٤ م.

٣ ـ ثم طبع في (بادوا) من ايطاليا سنة ١١١٠هـ/١٦٩٨ م.

٤ ـ والطبعة الاسلامية الأولى كانت في روسيا في مدينة (سانت بترس بورغ) سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٧ م قام بها مولاي عثمان.

٥ ـ ثم طبع في ايران طبعتين حجريتين: الاولى في طهران سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨ م والثانية في تبريز سنة ١٢٤٩ هـ/١٨٣٣ م.

٦ ـ ثم توالت الطبعات المختلفة في اوربا، ومن ذلك طبعة (فلوجل) للقرآن في (ليبزيغ) من المانيا سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م.

٧ ـ وطبع مرات في الهند والاستانة والبلاد العربية.

٨ ـ وفي سنة ١٣٣٧ هـ/١٩١٨ م. طبع المصحف طبعة جميلة مشرفة رائعة دقيقة دقة متناهية عرفت بطبعة الملك فؤاد. وقد أشرفت على طباعته لجنة مؤلفة من الاساتذة:

محمد علي خلف الحسيني المتوفى سنة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٩ م شيخ المقارىء المصرية.

وحفني ناصف المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ/١٩١٩ م المفتش الأول للغة العربية.

ومصطفى عناني المتوفى سنة ١٣٦٢ هـ/ ١٩٤٣ م المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية.

واحمد بن علي الاسكندري المتوفى سنة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية.

وفي الطبعة الثانية للمصحف قام بتصحيحه ومراجعته مراجعة دقيقة على

المصحف الذي ظهر في عهد الملك فؤاد شيخ المقارىء المصرية الشيخ علي محمد الضباع مراجع المصاحف الشريفة بمشيخة المقارىء.

٩ ـ وما زالت المطابع تنشر الملايين من نسخ المصاحف، ولم تستطع طبعة أخرى أن تزاحم طبعة مصحف الملك فؤاد حتى الآن في دقتها وجودتها.

* * *

الباب الثالث

علوم القرآن

علوم القرآن هي المباحث التي تتعلق بالقرآن وجوانب منه. ويبدو أن عدداً من الائمة المتقدمين ألفوا كتباً في موضوعات تتصل بالقرآن، ذكر بعضها ابن النديم في « الفهرست »[1].

وهذه هي المرحلة الاولى في نشوء ما عرف بعلوم القرآن.

ثم جمعت هذه المباحث تحت عنوان (علوم القرآن)، ثم لم يلبث أن أصبح هذا العنوان عَلَماً على عِلْم بذاته، أرادوه أن يكون نظيراً لعلم المصطلح أو علوم الحديث.

ومن المفيد أن نذكر فيما يأتي بعض أسماء المؤلفين المتقدمين، وما ألفوا من كتب في هذا الموضوع:

فمن أقدم هؤلاء المؤلفين أولئك الذين تركوا كتباً في التفسير، من أشهرهم سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

ومنهم ابو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ الذي ألف كتاب « غريب القرآن ».

---

(١) « الفهرست » من ص ٥٦ ـ ٦٤.

ومؤرج السدوسي المتوفى سنة ١٩٥ هـ الذي ألف كتاب «غريب القرآن».

والأصمعي المتوفى سنة ٢١٤ هـ الذي ألف كتاب «لغات القرآن».

ومحمد بن ايوب الضُرَيْس المتوفى سنة ٢٩٤ هـ الذي ألف في موضوع المكي والمدني[1].

وخلف بن هشام البزار المتوفى سنة ٢٢٩ هـ الذي ألف «كتاب القراءات».

وابو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ هـ أو ٢٥٥ هـ الذي ألف كتاب «رسم القرآن» وكتاب «النقط والشكل».

ومحمود بن الحسن الذي ألف كتاب «متشابه القرآن».

وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ الذي ألف كتاب «ناسخ القرآن ومنسوخه».

والإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ الذي ألف كتاب «أحكام القرآن».

وعلي بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ الذي ألف كتاب «أسباب النزول».

وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ الذي ألف كتاب «مشكل القرآن». الى غير ذلك من موضوعات لا يكاد يحصيها العد.

أما أول من جمع هذه العلوم في كتاب واحد فمن الصعب الجزم

---

(١) حقق هذا الكتاب مسفر سعيد دماس بإشرافي ونال به شهادة الماجستير في جامعة الملك سعود سنة ١٤٠٣ هـ.

بتحديده، ويذكر الاستاذ الزرقاني[١] أن أول من ألف في علوم القرآن هو علي بن إبراهيم بن سعيد المشهور بالحوفي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ وقد ترك كتاب «البرهان في علوم القرآن». وهذا غلط، وقد اوقع الزرقاني في هذا الغلط الخطأ في عنوان الكتاب، فليس اسمه كما ذكره، بل اسمه كما في «كشف الظنون»[٢]: «البرهان في تفسير القرآن» وهو كتاب في التفسير لا في علوم القرآن.

ثم ألف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابين في علوم القرآن هما: «فنون الافنان في علوم القرآن»[٣] و«المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن»[٤].

ثم ألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاب «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»[٥].

ثم جاء الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ وألف كتابه المشهور: «البرهان

---

(١) انظر «مناهل العرفان»: ١/٢٧ - ٢٨.

(٢) «كشف الظنون» ١/٢٤٢. أقول: ومخطوطة الكتاب موجودة، وقد بلغني ان جامعة من الجامعات العربية تعتزم طبعه. وانظر كتاب «المدخل لدراسة القرآن» لمحمد أبو شهبة ص ٣٥.

(٣) قال صلاح المنجد في «معجم المخطوطات المطبوعة» ٣/١٧: [نشره أحمد الشرقاوي وإقبال المراكشي في الدار البيضاء سنة ١٩٧٠ م]. ولم أر هذه النشرة، ثم وقفت على طبعة سيئة جداً للكتاب نشرته مكتبة ابن سينا في القاهرة سنة ١٤٠٨ (١٩٨٨) وعلى غلاف الكتاب ما يأتي:

فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن للحافظ... ابن الجوزي ـ دراسة وتحقيق محمد إبراهيم سليم. وقد أفسد الكتاب إفساداً كبيراً، وجاء بما لم نعهده في التحقيق. وإنا لله وإنا إليه راجعون. وانظر ما ذكره العلوجي في «مؤلفات ابن الجوزي» حول هذا الكتاب ص ٤٠ وص ١٣٠.

(٤) ذكر العلوجي في ص ١٥٨ اماكن وجود مخطوطات لهذا الكتاب.

(٥) وقد حققه طيار آلتي قولاج ونشرته دار صادر في بيروت سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م).

في علوم القرآن »[1].

ثم جاء البلقيني المتوفى سنة ٨٤٢ وألف كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم ».

وأخيراً جاء السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وألف كتابه الجامع: « الاتقان في علوم القرآن ».

هذا وللمعاصرين كتب عدة في علوم القرآن، منها الموجز ومنها ما فوق ذلك ومنها الجيد ومنها ما دون ذلك.

وسندرس في هذا الباب موضوعات ثلاثة هي: المكي والمدني، والمحكم والمتشابه، والقراءات. ونرد القراء الراغبين في الاطلاع على العلوم الاخرى من علوم القرآن، إلى مطالعة كتب علوم القرآن المطولة.

(١) طبعه محمد أبو الفضل إبراهيم وصدر في أجزاء أربعة.

الفصل الأول

المكيّ والمدنيّ

استمر نزول القرآن ثلاثا وعشرين سنة. وقد وقع خلال هذه المدة حادث عظيم لعله أعظم الأحداث في حياة النبي ﷺ بعد البعثة. هذا الحادث هو الهجرة الى المدينة المنورة.

وكان هذا القرآن الكريم يتنزل في مكة على النبي ﷺ ليواجه به مجتمع الجاهلية العنيد، وليوجه القلة المستضعفة المغلوبة على أمرها ممن آمن واهتدى.

ولكنه في المدينة كان يواجه مجتمعاً قائماً على أساس الايمان والانقياد لتعاليم هذا الدين، فكان من الطبيعي أن يكون هناك اختلاف بين موضوعات كل من المرحلتين، ويتبع هذا الاختلاف في الموضوع الاختلاف في خصائص الاسلوب.

لقد نزل القرآن ليربي أمة العقيدة، التي تبقى مهمتها ما بقيت على الأرض حياة... فلا عجب إذن أن يتبين العلماء نوعين في هذا القرآن.

وإن مما يكاد يأخذ بالألباب هذه العناية التي لقيها هذا الكتاب الكريم، فلقد نقل المسلمون عن آياته: متى نزلت؟ حتى إننا لنستطيع القول: إنه ليست هناك آية إلا وقد ورد ما يدل على تاريخ نزولها. بل اننا لنجد أكثر من ذلك دلالة على العناية بالكتاب الكريم، فلقد ذكر المؤلفون في

علوم القرآن الحضري منه والسفري، والليلي منه والنهاري، والصيفي منه والشتائي، والفراشي والنومي، وما الى ذلك من علوم تجدها في كتب علوم القرآن مما يؤكد هذه العناية، التي لم يعرفها تاريخ الفكر الانساني بالنسبة الى كتاب آخر سماوي أو ارضي.

* * *

تعريف المكي والمدني:

القول الصحيح الراجح أن المكي ما نزل من القرآن قبل الهجرة، وأن المدني ما نزل بعدها.

وهناك قولان آخران في تعريفهما لا يصحان ولا يطردان وهما:

١ - المكي ما خوطب به أهل مكة، والمدني ما خوطب به أهل المدينة.
٢ - المكي ما نزل في مكة، والمدني ما نزل في المدينة.

* * *

خصائص المكي:

١ - نرى المكي غالبا يعالج موضوع بناء العقيدة بطريقة وجدانية وعقلية. وموضوعه الأساسي في اختصار كما يقول الاستاذ سيد قطب (حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وحقيقة العلاقات بينهما، وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه، وتنحية كل ما أدخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء، ورد الناس الى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته)[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» ١١/٨٩ وانظر أيضاً ٧/٢٩.

٢ ـ ونرى في هذا النوع من القرآن جدالا للمشركين يبين خطأهم الواضح، والغاءهم العقل، واتباعهم العادات المألوفة، التي وجدوا عليها آباءهم، ونرى فيه هجوماً عنيفاً على الشرك والوثنية والعادات القبيحة، وزجراً وتهديداً ووعيداً للكافرين الذين يصدون عن ذكر الله ويعرضون عن آياته.

٣ ـ ونرى أن القرآن المكيَّ يكثر من عرض قصص المكذبين.

٤ ـ ونرى ان المكي يغلب على آياته القصر، وتكثر فيه كلمة (كلا) التي فيها زجر، ويكثر فيه افتتاح السور بالحروف من امثال (ق) و (حم) و (كهيعص). قال الزركشي: (وكل سورة فيها حروف المعجم فهي مكية إلا البقرة وآل عمران. وفي الرعد خلاف)[١].

وأسلوب عرضه أسلوب موحٍ عميق الايقاع، بالغ التأثير حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير من البناء اللفظي إلى المؤثرات الموضوعية[٢].

خصائص المدني:

١ ـ نرى المدني غالبا يعالج بناء المجتمع المسلم، قال ابن القيم: (خاطبهم بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب بـ ﴿يا أيها الناس﴾ فمشترك)[٣]، ويعالج بناء الاسرة المسلمة بتفصيل احكام الشريعة في نواحي الحياة المختلفة، من معاملات وزواج وطلاق وميراث، كما نرى في سورة البقرة وسورة النساء المدنيتين. وكانت هذه الاحكام معتمدة على العقيدة ومنبثقة عنها. ولا يعني هذا خلوَّ المكيِّ من أحكام

---

(١) «البرهان» ١٨٨/١.

(٢) «في ظلال القرآن» ٨٩/١١ و ج ٢٩ ص ٧.

(٣) «زاد المعاد» ٥٨/٢.

تشريعية، بل هناك أحكام ترجع إلى العبادات والمعاملات، لكن كلامنا عن الغالب[1].

٢ - ونرى في هذا النوع من القرآن فضحا للمنافقين، وكشفا لمؤامراتهم، وعرضا لتناقضاتهم وتسفيها لشعاراتهم المخادعة التي يطرحونها، كما نرى في سورة النساء وسورة المائدة وسورة المنافقين.

٣ - ونرى فيه مجادلة لاهل الكتاب، ومناقشة لآرائهم التي تعارض أحياناً حقائق التاريخ وإليك المثال الآتي: كان اليهود يدعون ان ابراهيم يهودي وكانت النصارى تدعي انه نصراني، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتابِ لِمَ تُحَاجُّون في إبراهيمَ وما أُنزِلَتِ التوراةُ والانجيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُون﴾[2].

٤ - ونرى فيه ذكرا لاحكام الجهاد والحرب والسلم والهدنة مما يتصل بشؤون الدولة المسلمة وعلاقاتها الدولية كما في الأنفال والتوبة ومحمد.

٥ - ونلاحظ أن هذه الاغراض وغيرها عرضت بأسلوب يناسبها، فليس من شك في ان موضوع النص يحدد لون الاسلوب وطريقته، ولهذا فاننا نرى ان الآيات في القرآن المدني يغلب عليها الطول.

ولكن اسلوب القرآن في النوعين: المكي والمدني يبقى هو الاسلوب المعجز الذي تميز عن اساليب البشر، ويبقى هو الاسلوب الذي بلغ الذروة في الجمال والبيان والروعة.

كيف نعرف المكي من المدني؟

نرجع في ذلك الى ما ورد عن الصحابة الذين عاصروا الوحي وشهدوا

---

(١) انظر كتاب شيخنا محمد الخضر حسين «محمد رسول الله» ص ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران: ٦٦.

مكانه، وعاشوا أسباب نزوله. جاء في صحيحي البخاري ومسلم[1] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت؟ ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت؟ ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه) وقد أورد السيوطي في «الاتقان» السور المدنية والسور المكية والسور التي اختلف في تحديدها العلماء، وفصل في ذلك تفصيلا جيدا. وينبغي أن نشير الى أن بعض السور كان مؤلفاً من النوعين المكي والمدني.

وقد اشارت معظم المصاحف المطبوعة الى المكي والمدني منه، اعتماداً على ما ذكره العلماء.

* * *

فوائد معرفة المكي والمدني:

١ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ على وجه يحدد لنا الحكم الباقي الواجب اتباعه.

٢ ـ معرفة طريقة القرآن التي سلكها في تنشئة الأمة المسلمة وتربيتها والخطوات التي خطاها في اقامة الدولة الاسلامية حتى يكون في ذلك عبرة لدعاة الاصلاح، وقادة الفكر الاسلامي الذين يتطلعون الى استئناف الحياة الاسلامية من جديد.

٣ ـ التعرف على مدى الخدمة الفائقة والعناية البالغة التي حظي بها القرآن الكريم من المسلمين من عهد الصحابة حتى يومنا هذا.

---

(١) انظر باب القراء من اصحاب النبي ﷺ من «صحيح البخاري» ١٥٤/٦ وانظر باب فضائل عبدالله بن مسعود وأمه من «صحيح مسلم» ١٤٨/٧ وانظر «الكفاية» للخطيب ص ٥٦٩.

٤ ـ واخيراً فاننا نستفيد من معرفتنا للمكي والمدني من القرآن في فهم الآية وتفسيرها على وجه افضل واكمل، ولا سيما ان وقفنا مع ذلك على اسباب النزول. ومن أوضح الأمثلة على ذلك آيات الجهاد التي نزلت على مراحل (١).

* * *

(١) انظر «زاد المعاد» ط الأرناؤوط بدمشق ١٥٨/٣ و«معالم في الطريق» ط وهبة بمصر لسيد قطب: فصل الجهاد في سبيل الله ص ٧٥.

الفصل الثاني

المحكم والمتشابه

ذكر القرآنُ الكريمُ نفسُه أنَّ منه آياتٍ محكمات، وأنَّ منه آيات متشابهات، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي أنزل عَلَيْكَ الكتابَ مِنْهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهاتٌ. فأمَّا الذين في قُلوبهم زيغٌ فيتَّبعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تَأْوِيلِهِ. وما يَعْلَمُ تأْويلَهُ إلاَّ اللهُ. والراسخونَ في العلمِ يَقولُونَ: آمنَّا به. كُلٌّ من عِنْدِ ربِّنا وما يذَّكَّرُ إلا أُولُو الأَلْبابِ﴾ (١)

وسنعرف المراد من (المحكم) و (المتشابه)، ولكنَّنا نودُّ قبل ذلك أَنْ نشير إلى أنَّ هاتين الكلمتين وَرَدَتا بمعنى آخر في آيات أُخَر من كتاب الله. من ذلك قوله تعالى: ﴿كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِـنْ لَـدُنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾ (٢) أي أحكمت في النظم والرصف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جلودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تلينُ جُلودُهم وقُلُوبُهم إلى ذكرِ اللهِ. ذلكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ من يشاءُ. وَمَنْ يُضلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمرن: ٧.

(٢) سورة هود: ١.

(٣) سورة الزمر: ٢٣.

أيْ يشبه بعضُه بعضاً في الهداية والبلاغةِ والسلامة من التناقض والتفاوت ويصدِّق بعضُه بعضاً.

وهاتان الكلمتان: (المحكم والمتشابه) جاءتا في آيتي هود والزمر على أنهما وصف للقرآن كله، فهو كتابٌ أحكمت آياته كلها في النظم، وتشابهت آياته كلها في الحسن والبلاغة والتأثير.

بينما تدلُّ آيةُ آل عمران التي أوردنا في مطلع هذا البحث على أن بعض آيات القرآن محكم وبعضها متشابه. فما تعريفها؟

تعريف المحكم والمتشابه

المحكم ـ لغةً ـ: اسم مفعول من أحكم؛ أي أتقن. يقال: بناءٌ محكم، أي متقنٌ لا وهن فيه ولا خلل.

والمتشابه ـ لغةً ـ اسم فاعل من تشابه أي أشبه بعضُه بعضاً.

أما من ناحية الاصطلاح فللعلماء تعريفات عدة لها. وأحسن هذه التعريفات التعريف الآتي:

المحكم: ما عُرِف المرادُ منه إمَّا بالظهور وإمَّا بالتأويل [1].

والمتشابه: ما تعذَّر ذلك. واستأثر الله بعلمه، كقيام الساعة، والحروف المقطعة في أوائل السور [1].

قال القرطبيُّ: هذا أحسن ما قيل في المتشابه.

وقيل في تعريفها: المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً والمتشابه: ما احتمل أوجهاً فاشتبه منه مراد المتكلم على السامع [2].

(١) «تفسير القرطبي» ٤/١٠ و«الاتقان» ٢/٢ و«الكليات» ٤/٢٥٧.

(٢) «الكليات» ٤/٢٥٧ وانظر تعريفات أخرى أوردها السيوطي في «الاتقان» وانظر «الاحكام في أصول الأحكام» للآمدي طبع الرياض ١/١٦٥ سنة ١٣٨٧ هـ.

إذن فالمحكم والمتشابه نوعان موجودان في القرآن، ويتعلقان ـ كما رأيت ـ بوضوح المعنى وعدمه.

وهذا أمر طبيعي فالتفاوت في الوضوح يوجد في كل كلام، فهناك الواضح الذي لا غموض فيه ولا يحتاج إلى جهد في فهمه وتفسيره، بل معناه مفهوم يتبادر الى الذهن مباشرة، وهناك نصوص محتملة ليست في تلك الدرجة من الوضوح، ولا يقوى الناس جميعاً على فهمها وإدراك مغزاها.

والآية المتقدمة تشير إلى أنَّ الذين يريدون الحق لا يذهبون الى تلك النصوص المتشابهة ويحمّلونها ما لا تحمل، ولا يستغلون غموضها لتأويلها. بما يتناسب واغراضهم، فذلك فعل الذين في قلوبهم زيغ، وأما المؤمنون العلماء فانهم يلتزمون الواضح فيعملون به ويؤمنون بالمتشابه انه من عند الله، ويدعون محاولة التعسف في فهمه وتأويله.

* * *

هل المتشابه مما يمكن معرفته؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

الأول: انه يمكن الاطلاع على علم المتشابه للراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، واختار هذا القول الامام النووي فقال في «شرح مسلم»:

إنه الاصح، لانه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لاحد من الخلق إلى معرفته.

الثاني: أنه لا يمكن لأحد الاطلاع على علمه ولا يعلمه الا الله، وأما الراسخون في العلم فانهم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا.

وأيد السيوطي هذا القول بأنه قول اكثر الصحابة والتابعين.

وهذا الرأي الذي نرجحه، وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

وقد اختصَّ الله بمعرفته كما قال عزَّ من قائل: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

وهذا القول يقتضي الوقوف على قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ ثم تأتي واو الاستئناف ويبدأ كلام جديد هو: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾. ومما يدل على ذلك ما ذكر ابن قدامة في «روضة الناظر» حيث قال:

[...لأنَّ في الآية قرائن تدلُّ على أنَّ الله سبحانه متفرّد بعلم المتشابه، وأن الوقوف الصحيح عند قوله تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ لفظاً ومعنىً:

أما اللفظ فلأنه لو أراد عطف (الراسخين) لقال: (ويقولون آمنا به) بالواو.

وأما المعنى فلأنه ذمَّ مبتغي التأويل، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذمُوماً.

ولأنَّ قولهم ﴿آمنا به﴾ يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه، سيما إذا أتبعوهُ بقولهم ﴿كل من عند ربنا﴾ فذكرُهم ربَّهم ها هنا يعطي الثقة به والتسليم لأمره، وأنَّه صدر من عنده كما جاء من عنده المحكم.

ولأنَّ لفظة (أمَّا) لتفصيل المجمل. فذكره لها في الذين في قلوبهم زيغ مع وصفه إيَّاهم باتباع المتشابه وابتغاء تأويله يدلُّ على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة وهم الراسخون.

ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل وإذ قد ثبت أنَّه غير معلوم التأويل لأحد فلا يجوز حمله على غير ما ذكرنا][1].

وممّا يؤيد أنَّ الواو استئنافية لا عاطفة دلالة الاستقراء في القرآن ذلك أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً وأثبته لنفسه فقد دلّ الاستقراء ـ كما يقول الأستاذ الشنقيطي في «أضواء البيان» ـ [أنه لا يكون له في ذلك الاثبات شريك كقوله تعالى ﴿قل لا يعلم مَنْ في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[2].

وقوله ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾[3].

وقوله ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[4].

فالمطابق لذلك أن يكون قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ معناه أنه لا يعلمه إلاّ هو وحده كما قاله الخطابي وقال: لو كانت الواو في قوله ﴿والراسخون﴾ للنسق ـ أي للعطف ـ لم يكن لقوله ﴿كل من عند ربنا﴾ فائدة.

والقول بأنَّ الوقف تام على قوله ﴿إلا الله﴾ وأن قوله ﴿والراسخون في العلم﴾ ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء للأدلة القرآنية التي ذكرنا. وممن قال بذلك عمر وابن عبّاس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وابن مسعود وأبي بن كعب وغيرهم كثير][5].

أنواع المحكم:

المحكم درجات في وضوحه، ومن أجل ذلك يتفاوت الناس في

---

(١) روضة الناظر ١/١٨٦ ـ ١٨٩ طبع مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤).

(٢) سورة النمل: ٦٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٧.

(٤) سورة القصص: ٨٨.

(٥) «أضواء البيان» ٢/٢٣٦.

استيعابه كله وفهمه والإحاطة بمعانيه ومدلولاته.

فهناك آيات واضحات جداً يستطيع أن يفهمها الناس العاديون الذين عرفوا اللغة العربية ووعوها.

* وهناك آيات لا يفهمها إلاّ العلماء الواقفون على أسرار العربية القادرون على الإفادة من قواعد الاستنباط وأصول الفقه وقواعد البلاغة والذين أوتوا موهبة التذوّق للكلام الجميل، وهذا التفاوت في الوضوح أمرٌ مشاهد معروف حتى في كلام البشر، فهذه مواد القوانين لا يستوي الخاصّة من القضاة في فهمها، وهذه القصائد الشعرية، والنصوص النثرية متفاوتة في وضوحها وفيها نصوص لا يفهمها ولا يتذوقها إلا من أوتي حظاً حسناً من الثروة اللغوية والحسّ الجمالي.

وإدخال الآيات التي من هذا القبيل في المتشابه غلط دون شك.

أنواع المتشابه:

المتشابه أنواع بحسب موضوعه، وذلك كالحروف المقطعة ومعرفة وقت الساعة[1]، ومعرفة حقيقة ما تدل عليه الأسماء والصفات وما إلى ذلك. وكل ذلك مما لا يعلم تأويله إلا الله تبارك وتعالى. وهو درجات فبعضها أشدُّ تشابهاً من بعض. هذا ما نراه في أنواع المتشابه. أما العلماء الذين يقولون: إنَّ المتشابه يمكن أن يعرف فقد ذكروا أنواعاً عدة له، ومعظمها من المحكم الذي لا يعرفه إلا العلماء المتذوقون مما سبق ذكره آنفاً. وتوسعوا في ذلك توسعاً كبيراً حتى جعلوا الكلمة الغريبة التي يكشف عن معناها في كتب غريب القرآن أو معجمات اللغة جعلوها من المتشابه.

وقسموا المتشابه تقسيمات متعددة، وسَنُلِمُّ بهذه التقسيمات إلماماً سريعاً، وإن كُنَّا لا نسلِّمُ بصحتها كلها.

---

(١) أنظر مقدمة الطبري لتفسيره ١/٧٤ تحقيق محمود شاكر.

التقسيم الأول:

ذكروا أنَّ المتشابه ثلاثة أنواع:

١ ـ متشابه من جهة اللفظ: وهو الذي أصابه الغموض بسبب اللفظ وهو نوعان:

أ ـ نوع يرجع إلى الألفاظ المفردة: وذكروا له ضربين:

ضرباً يرجع إلى الغرابة مثل (الأب) في قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ (١).

وضرباً يرجع إلى الاشتراك (٢).

ب ـ نوع يرجع إلى جملة الكلام المركب: وذكروا لذلك ثلاثة أضرب:

ضرب ينشأ عن اختصار الكلام.

وضرب ينشأ عن بسط الكلام.

وضرب ينشأ بسبب نظم الكلام.

وذكروا لكل من هذه الأنواع أمثلة تقنع المرء بأن الذي ذهبوا إليه في تفسير المتشابه غير صحيح.

٢ ـ ومتشابه من جهة المعنى: وهو الذي أصابه الغموض بسبب المعنى نفسه. وذكر الراغب في «مفرداته» أنّ منه أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة؛ إذ هو سبحانه ليس كمثله شيء، وأحوال القيامة ممَّا لا نستطيع تصورها، لأن فيها مالاعينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد ذهب ابن تيمية رحمه الله إلى أن اعتبار آيات الصفات من المتشابه

---

(١) سورة عبس: ٣١.

(٢) أنظر في الاشتراك «المزهر» ١/٣٦٩ و«فقه اللغة» لمحمد المبارك ١٩٨ وكتب فقه اللغة الأخرى.

غلط، وردَّ على القائلين بذلك ردّاً مفصلاً[1]، وإن كان قد قرَّرَ أنَّ حقيقة ما تدلُّ عليه الآياتُ من حقائق الأسماء والصفات من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، قال: (وأما حقيقة ما دلَّ عليه ذلك من حقائق الأسماء والصفات فهذا من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله)[2].

٣ ـ ومتشابه من جهتها ـ أي من جهة اللفظ والمعنى ـ وذكروا له خمسة أنواع[3].

التقسيم الثاني:

وذكروا للمتشابه تقسيماً آخر من حيث إمكانية معرفته فقالوا: إنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام[4]:

١ ـ قسم لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة.

٢ ـ وقسم للانسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة.

٣ ـ وقسم متردد بين الأمرين، يختصُّ بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم.

قلت: والمتشابه من هذه الأضرب هو الأول. أما الألفاظ الغريبة والضرب الذي يستطيع إدراكه الراسخون في العلم فهو من المحكم، لأنَّ المحكم ـ كما ذكرنا آنفاً ـ يتفاوت وضوحاً وسهولة، فمنه ما يحتاج إلى مزيد نظر وتأمل ليقف المرء على معناه وحقيقته.

المنحرفون والمتشابه:

المؤمنون يتبعون المحكم ويؤمنون بالمتشابه ويقولون: آمنا به كل من

---

(١) «الفتاوي» ٢٩٤/١٣.

(٢) «الفتاوى» ٦٥/٣.

(٣) أنظرها في «المفردات» ٢٦١ و «الاتقان» ٥/٢

(٤) وانظر «المفردات»، و «الاتقان»، و «الكليات» ٢٥٩/٤.

عند ربنا، والذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة.

هذه حقيقة قررتها الآية الكريمة، وجاء التاريخ تطبيقاً واقعياً لمضمونها، فما من فرقة ضالة أرادت كسب الأنصار إلى آرائها إلا ولجأت إلى المتشابه تؤوله على الوجه الذي يروق لها ويتفق مع أصولها ومبادئها...

وفي ذلك تشويه لصورة هذا الدين ونيل منه وإخراج للآيات عن حقيقتها.

ويبدو أنَّ هذا مسلك طبيعي للمنحرفين، ذلك لأن المحكم من آيات القرآن الواضح الدلالة لا مجال فيه للدس والافتراء والتحريف... أما الكلام الذي يكون غير واضح المعنى ففيه المجال الرحب أمام تلك الفرق المنحرفة لتقول: إن المراد بهذه الآية هو كذا وكذا. وتأتي بضلالاتها وتقررها.

وإذا كان المنحرفون قد أقدموا على تفسير المحكم تفسيراً باطلاً فإنهم في المتشابه أشدُّ إفساداً وتحريفاً.

ذكر ابن الجوزي نقلاً عن غلاة الشيعة الذين يعتقدون بعقيدة التناسخ الباطلة وينكرون القيامة، فنقل عنهم قولهم: (وأما النفوس المنكوسة المغموسة في عالم الطبيعة المعرضة عن طلب رشدها من الأئمة المعصومين فإنها أبداً في النار، على معنى أنها تتناسخ في الأبدان الجسمانية وكلما فارقت جسداً تلقاها آخر واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾[١])[٢].

ونقل ابن الجوزي عنهم أنهم يفسرون الصيام بالامساك عن كشف السر، ويفسرون البعث يوم القيامة بالاهتداء إلى مذاهبهم[٣]. وهذا كله

---

(١) النساء: ٥٦.

(٢) القرامطة لابن الجوزي بتحقيقنا ص ٦١.

(٣) القرامطة لابن الجوزي بتحقيقنا ص ٦٤.

باطل من القول وتعطيل للنصوص، وتضييع للواجبات. إذا كان صنيعهم بالنصوص المحكمة هكذا فماذا يكون موقفهم من المتشابة؟.

إنهم دون شك سيجدون فيه بغيتهم، فيذهبون في تحريف النص وتأويله المذاهب التي تنصر باطلهم.

وسأضرب مثلاً واحداً على اتباع المتشابه من قبل بعض الفرق الزائغة وهذا المثل هو الحروف المقطعة التي تأتي في أوائل بعض السور.

والموقف السليم في تفسيرها أنَّ الله أعلم بمراده.

ولكنَّ الناس المنحرفين وقفوا منها مواقف غريبة أذكر منها موقفين منكرين:

* فقد ذهب فريق منهم يفسرون هذه الحروف على أنها رموز لكلمات يستدلون منها على أحقية سيدنا علي بالخلافة... بل استدل بها بعضهم على أن علياً كان أحقَّ بالرسالة من محمد ﷺ كما ذكر ذلك السيد محمد رشيد رضا[1]، وهذا باطل دون شك.

* وذهب فريق ثان يفسرون هذه الحروف بحساب الجمل ويستنتجون من ذلك وقت قيام الساعة، ويهذون بهذيانات باطلة[2].

وهكذا فإن الاتجاه إلى تأويل المتشابه على النحو المذكور ليس له دليل من عقل ولا نقل، وهو وسيلة من وسائل نشر الزيغ والانحراف.

* * *

---

(١) أنظر كتابه «الوحدة الاسلامية» من ص ٢٦ حتى ٢٩ طبع المكتب الاسلامي.

(٢) وانظر «تفسير البيضاوي» ١/٤٤ و«البحر المحيط» ١/٣٤ و«الدر المنثور» ١/٢٣ و٥/٢. و(الجمل) على وزن (سكر) وانظر «تاج العروس» ٧/٢٦٤.

فوائد المتشابه:

قد يرد سؤال هو: ما الحكمة في إنزال المتشابه ووجوده في الكتاب العزيز؟ والجواب على ذلك أن فوائد المتشابه تختلف بالنسبة إلى ما يمكن علمه وإلى ما لا يمكن علمه[1].

أولاً: فوائد المتشابه الذي يمكن علمه عديدة نذكر منها أربعاً هي:

١ ـ حث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه.

٢ ـ ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات إذ لو كان القرآن كله محكماً لا يحتاج الى تأويل لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره.

٣ ـ الحصول على الثواب الأكبر، ذلك لأن المتشابه يوجب مزيد المشقة في الوصول الى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب.

٤ ـ تحصيل العلوم الكثيرة، ذلك لأن المتشابه يوجب فهمه التعمق في معرفة النحو والمعاني وغيرهما والوقوف على أساليب العرب والعلوم الأخرى.

هذا على رأي الذين يسمون هذا النوع من الكلام متشابهاً وقد ذكرنا رأينا في ذلك واضحاً .

ثانياً: فوائد المتشابه الذي لا يمكن علمه عديدة نذكر منها أربعاً وهي:

١ ـ ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه، والتفويض والتسليم، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وان لم يجز العمل بما فيه.

وفي ذلك اختبار إيمان المؤمن الذي يستسلم لكل ما جاءه عن الله فهو يؤمن بما جاء من عند الله، فهمه أم لم يفهمه، ويردد عند قراءته: آمنا به كل من عند ربنا.

---

(١) أنظر «البرهان» للزركشي ٢/٧٥.

٢ - ومن حكم وجود المتشابه الذي استأثر الله بعلمه في القرآن استكمال جوانب التأثير في العقيدة، وذلك لتتوافر للعقيدة الصفة المهمة التي تجعلها عقيدة تملأ النفس، وتحوز الإعجاب. قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: [إنَّ العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود ليست عقيدة، ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها وأشواقها الخفية إلى المجهول المستتر وراء الحجب المسدلة][1].

وهذا أمر مشاهد يدركه الواعون المتتبعون لأحوال الناس الشباب خاصة في ديار الغرب، الذين يندفع عدد منهم إلى تبني عدد من الأفكار التي تدعو إلى أمور غيبية بعيدة عن دنيا الواقع.

إنها فطرة الله.. من أجل ذلك كان المتشابه في القرآن يؤدي دوراً ضخماً في ملء هذا الجانب في النفس الإنسانية.

٣ - إقامة الحجة على الناس جميعاً بهذا الكتاب، الذي جاء بكل ما يتطلع الناس إليه أفراداً وجماعات، سواء كان في العقيدة التي تنأى عن الخرافة والباطل، وتدعو إلى الإيمان بحقائق يدرك الناسُ بعضها ويعجز العقل البشري عن إدراك بعضها، أو كان في التشريع المتكامل أو في الحياة الروحية السامية التي أقامها بين الناس.

٤ - وذكر العلماء أيضاً أنَّ من حكم المتشابه إقامة الحجة على العرب البلغاء الأبيناء حيث نزل القرآن بلغتهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الوقوف على معنى بعض الآيات، فدل ذلك على أنه منزل من عند الله تبارك وتعالى.

* * *

هذا ومبحث المحكم والمتشابه من المباحث التي كثر الكلام فيها

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ص ١١٤ (في أول كلامه عن التوازن).

والتأليف وقد يجعل بعضهم المحكم قسيماً للمنسوخ. ونحسب أن ما ذكرنا في هذا الفصل يمكن أن يُعدَّ من معالم هذا المبحث الواسع، وللقارىء الراغب في التوسع ان يرجع إلى المراجع التي ذكرت في حواشي هذا البحث[1].

---

(١) أنظر في المحكم والمتشابه كتب أصول الفقه ونذكر منها:
«الموافقات» ٣/٥٦ و«المستصفى» و«البرهان» للجويني ١/٤٢٢ و«الاحكام» للآمدي ١/١٦٥ و«إرشاد الفحول» ٣١ و«أصول الفقه» لخلاف و«اصول الفقه» للخضري ١٤١ - ١٥٦ و«أصول الفقه» لمحمد أبي زهرة وكتب التفسير، ونذكر منها:
«تفسير الطبري» ٦/١٦٩ و«تفسير القرطبي» ٤/٩ و«فتح القدير» للشوكاني و«تفسير القاسمي» و«أضواء البيان» ١/٢٣٣ و«تفسير المنار» ٣/١٦٣ - ٢٣٠ و«تفسير سورة الاخلاص» لابن تيمية، والكتب المؤلفة في هذا الموضوع، ونذكر منها «الاكليل في المتشابه والتأويل» لابن تيمية.

الفصل الثالث

القراءات

تعريفها:

القراءات: جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر قرأ.

وفي الاصطلاح: علم بكيفية أداء كلمات القرآن من تخفيف وتشديد وغيرهما، واختلاف ألفاظ الوحي في الحروف.

وقال الزركشي في «البرهان»:

القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والاعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما[1].

ولا بد فيها من التلقي والمشافهة، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة.

شروط القراءة الصحيحة:

اشترط القراء شروطاً ثلاثة لصحة القراءة واعتبارها، وهي:

١ ـ موافقتها لرسم المصحف الامام[2].

---

(١) «البرهان» ١/٣١٨ وانظر «الاتقان» ١/٨٠.

(٢) أنظر النقول التي ساقها السيوطي في اشتراط موافقة مصحف من مصاحف عثمان. في الاتقان» ١/٧٥.

٢ ـ نقلها بالتواتر: هذا مذهب الاصوليين وفقهاء المذاهب الأربعة والمحدثين، وبناء على ذلك فلا تثبت القراءة بالسند الصحيح غير المتواتر ولو وافقت رسم المصحف ووافقت وجهاً من وجوه العربية[١].

٣ ـ موافقتها لوجه من وجوه العربية.

ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها شاذة، وقد يطلقون عليها ضعيفة أو باطلة. قال ابن الجزري في أول كتابه «النشر» بعد أن ذكر هذه الشروط: «ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة اطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم. وهذا هو الصحيح عند ائمة التحقيق من السلف والخلف»[٢].

وقال الكواشي: (ومتى فقد شرط من الثلاثة فهو من الشاذ)[٣].

أما إذا توافرت هذه الأركان فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء أكانت عن الائمة السبعة أم عن غيرهم من الائمة المشهورين[٤]

القراءات وحي:

والقراءات وحي تلقاه الرسول ﷺ من جبريل، وقرأه الرسول على

---

(١) انظر «غيث النفع» للصفاقسي ص ١٧ المطبوع مع «شرح الشاطبية» لابن القاصح المسمى «سراج القارىء المبتدي وتذكار المقرىء المنتهي» وانظر «النشر» لابن الجزري وانظر تعليق سعيد الافغاني حول هذه النقطة في كتابه «اصول النحو» ص ٥٩ وانظر «البرهان» ١/٣١٩ و «الاتقان» ١/٧٦ و ٨٠.

(٢) «النشر» لابن الجزري.

(٣) «الاتقان» ١/٨١.

(٤) انظر «النشر» لابن الجزري ١/٩.

الصحابة، ونقلت عنه بالتواتر كما ذكرنا آنفاً.

فقد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس أن جبريل كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه مرتين[1]:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أزواج النبي ﷺ عنده، فأقبلت فاطمة تمشي، ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله شيئاً، فلما رآها رحب بها وقال: «مرحبا بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه ـ أو عن شماله ـ وسارّها، فبكت بكاء شديداً، فلما رأى جزعها سارّها الثانية فضحكت. فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار ثم أنت تبكين؟

فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سرّه. فلما توفي رسول الله ﷺ قالت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضه الآن مرتين «وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك» فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية فقال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟ أو سيدة نساء هذه الأمة؟» فضحكت ضحكي الذي رأيت[2].

---

(١) انظر «فتاوى ابن تيمية» ٣٩٥/١٣ و «النشر» ٣٢/١.

(٢) متفق عليه، وهذا لفظ مسلم. وانظره في «صحيح مسلم» ١٤٢/٧ وفي «صحيح البخاري» ١٦٣/٤. وانظره في «رياض الصالحين» باب حفظ السر ص ٣٠٣، وانظر الحديث من رواية أبي هريرة أيضاً في «مسند أحمد» ٣٣٦/٢ و ٣٥٥ و «ابن ماجه» ٥٦٢/١ و «الدارمي» ٢٧/٢.

وكانت هذه العرضة الأخيرة تتضمن طرقاً مختلفة لاداء بعض الكلمات، كما كانت تتضمن اختلافات بعض ألفاظ الوحي.

ومن المعلوم أن الصحابة قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ، فمنهم من أخذ عنه طريقة ما، ومنهم من أخذ طريقة أخرى، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذا الحال، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم، وأخذ تابعي التابعين عن التابعين وهلم جراً.. حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء الذين سجلوا هذه القراءات.. وكانت القراءات المختلفة.

* * *

حديث الأحرف السبعة:

لمس المسلمون أثر هذا الاختلاف في القراءة الذي أشرنا اليه في عهد النبوة، كما في حديث عمر وهشام الآتي، وهو حديث الاحرف السبعة.

وقد التبس أمر هذا الحديث على كثير من الناس، حيث ظن بعضهم ان المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع، وهو وهم أشار اليه الامام الحافظ أبو شامة بقوله:

(ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل) [1].

وقال ابن عمار أيضاً:

(لقد فعل مسبّع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته اذ

---

(١) ذكر ذلك ابن حجر في «فتح الباري» ٩/ ٣٠ وانظر «تفسير الطبري» ١/ ٦٥ وتعليق محمود محمد شاكر.

اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة)[1].

وقد ذهب بعض أهل العلم الى أن حديث الأحرف السبعة تواتر عن النبي ﷺ، وألف فيه كثير من العلماء رسائل خاصة[2]. وممن ألف في الحديث المذكور الامام الحافظ أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ الذي ألف فيه جزءاً تتبع رواياته ليدل على أنه متواتر.

ونصُّ الحديث كما أخرجه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره[3] في الصلاة، فانتظرته حتى سلم، ثم لببته بردائه[4] فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ.

قلت له: كذبت، فوالله ان رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها. فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان.

فقال رسول الله ﷺ: «أرسله يا عمر. اقرأ يا هشام».

فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» ثم قال رسول الله ﷺ: «ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف. فاقرؤوا ما تيسر منه» واللفظ للبخاري[5].

---

(١) انظر «فتح الباري» ٩/٣٠.

(٢) انظر «غيث النفع» للصفاقسي ص ٤.

(٣) أي أعاجله وأواثبه.

(٤) أي جمعت الرداء في موضع لبته أي عنقه وامسكته به وجذبته به.

(٥) انظر «صحيح البخاري» ٦/١٥٢ و«صحيح مسلم» ٢/٢٠٢ وأخرجه معهما الترمذي

وأخرج مسلم[1] عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة[2] بني غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف.

فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين.

فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ امتك القرآن على ثلاثة أحرف.

فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا».

ومن الجدير بالذكر التنبيه الى أن السبعة هنا يراد بها مدلولها الرقمي، ولولا التدرج الوارد في هذا الحديث لما كان هناك مانع من أن يكون قد أريد بها التعدد، لأن من عادة العرب أن تستعمل السبعة لتدل على التعدد في الآحاد، والسبعين في العشرات، والسبعمائة في المئات[3].

٦٢/٤ وأبو داود ١٠١/٢ والنسائي ١١٥/٢ ومالك في «الموطأ». ٢٠١/١ وانظر الحديث في «جامع الأصول» لابن الاثير ٣١/٣ و«تفسير ابن جرير» طبعة دار المعارف تحقيق محمود شاكر ٢٤/١ ورقم الحديث ٢٥. ورواه الشافعي في «الرسالة» فقرة رقم ٧٥٢.

(١) انظر «صحيح مسلم» ٢٠٣/٢ وأخرجه أيضاً أبو داود ١٠٢/٢ وأحمد ١٢٨/٥ والترمذي ٦١/٤ والنسائي ١٥٢/٢ وانظره في «جامع الأصول» ٣٥/٣.

(٢) الاضاة: الماء المستنقع كالغدير جمعها أضا مثل حصاة حصى، وجاء في «معجم البلدان»: هو موضع قريب من مكة.

(٣) انظر «النشر» لابن الجزري ٢٦/١.

وقد أجمع العلماء[1] المعتد بهم على أن حديث الأحرف السبعة ليس المراد به القراءات السبع المشهورة. قال ابن الجزري في «النشر»:

(وانما أطلنا في هذا الفصل لما بلغنا عن بعض من لا علم له أن القراءات الصحيحة هي التي عند هؤلاء السبعة، وأن الأحرف السبعة التي أشار اليها النبي ﷺ هي قراءة هؤلاء السبعة. بل غلب على كثير من الجهال أن القراءات الصحيحة هي التي في «الشاطبية» و «التيسير»)[2] ويريد بالجملة الأخيرة أن القراءات الصحيحة أكثر من التي توجد في هذين الكتابين.

وقد نقلنا قول الامام أبي شامة في ذلك قبل قليل.

وليس المراد بالحديث أن كل كلمة تقرأ على سبعة أوجه:

واختلفوا في المراد به على أقوال متعددة، وقد أورد السيوطي خمسة وثلاثين قولا ذكرها في «الاتقان»[3] وقال: إنها أربعون. ونقل الأستاذ الزرقاني أن هذه الأقوال تصل الى أربعين، وفصل القول في أحد عشر قولا، وأورد بايجاز تسعة أقوال أخرى[4].

وقال ابن حجر في «فتح الباري»: «وذكر القرطبي عن ابن حبان انه بلغ الاختلاف في معنى الأحرف السبعة الى خمسة وثلاثين قولا ولم يذكر القرطبي منها سوى خمسة وقال المنذري: أكثرها غير مختار. ولم أقف على كلام ابن حبان في هذا بعد تتبعي مظانه من «صحيحه»)[5].

---

(١) نص على هذا الاجماع ابن تيمية في «الفتاوى» ١٣/٣٩٠ وابن الجزري في «النشر» ١/٢٤.

(٢) «النشر» ١/٣٦.

(٣) «الاتقان» ١/٤٥ النوع السادس عشر وانظر «شرح السنة» ٤/٥٠٦ - ٥١٢.

(٤) «مناهل العرفان» ١/١٤٨ - ١٧٧.

(٥) «فتح الباري» ٩/٢٣.

ولن نستطيع استقصاء هذه الأقوال كلها هنا، ولكننا سنورد القول الذي نرجحه، ويمكن لمن يريد التوسع في ذلك أن يرجع إلى المراجع المذكورة في حواشي البحث.

وهـذا الرأي الذي سنـورده منسـوب الى الجمهـور مـن أهـل الفقـه والحديث[1].

وقد ذهب اليه ابن جرير وغيره فقالوا: ان القراءة على الأحرف السبعة يراد بها سبع لغات، أي سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة ومعنى واحد، أي أوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة ومعنـى واحد.

نحو (هلم، وأقبل، وتعال، وعجل، وأسرع، وقصدي، ونحوي) فهذه ألفاظ سبعة معناها واحد وهو طلب الاقبال.

وقد حكى هذا القول ابن تيمية فقال:

(يقول ابن جرير وغيره: ان القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وانما كان جائزاً لهم، مرخصاً لهم فيه، وقد جعل اليهم الاختيار في أي حرف اختاروه)[2].

ثم قال: (ومن هؤلاء من يقول: إن الترخيص في الأحرف السبعة كـان في أول الاسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم وهو أرفق بهم، جمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة ويقولون: إنـه نسخ ما سوى ذلك)[3].

---

(١) «مناهل العرفان» ١/١٦٧.

(٢) «فتاوى ابن تيمية» ١٣/٣٩٦.

(٣) «فتاوي ابن تيمية» ١٣/٣٩٧.

هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف العثمانية؟

الجواب على ذلك مرتبط بالمراد من الأحرف السبعة:

فعلى قول ابن جرير الذي اخترناه وذكرناه قبل قليل أن الذي في المصاحف العثمانية انما هو الحرف الذي ارتضته الأمة زمن عثمان وهو الذي وافق العرضة الأخيرة. وأما الأحرف الأخرى فقد اندثرت، لأن القراءة بها لم تكن على سبيل الالزام، وانما كانت على سبيل الرخصة. قال ابو عمر ابن عبد البر: (الا ان مصحف عثمان الذي بأيدي الناس اليوم هو حرف واحد، وعلى هذا أهل العلم) [1].

أما القراءات فمن الجلي الواضح أن أكثرها موجود في المصحف، بل لقد اشترط القراء كما سبق ان ذكرنا موافقة القراءة لرسم مصحف عثمان حتى تكون قراءة صحيحة وهذا القول هو الأرجح والله أعلم.

وهناك قول آخر نقله العلامة أبو شامة المقدسي عن أحمد بن عمار المقرىء وهو من رجال القرن الخامس نشير إليه كما رواه عنه أبو شامة، قال ابن عمار:

[أصحُّ ما عليه الحذَّاقُ من أهل النظر في معنى ذلك أنَّ ما نحن عليه في وقتنا هذا من هذه القراءات هو بعض الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن]. وتفسير ذلك أنَّ الحروف السبعة التي أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ القرآن نزل عليها تجري على ضربين:

أحدهما: زيادة كلمة ونقص أخرى، وإبدال كلمة مكان أخرى، وتقديم كلمة على أخرى،

---

(١) «البرهان» ١/٢٢١ وانظر في هذا الموضوع «الاتقان» ١/٤٩ هذا وقد أنكر ابن حزم هذا القول في «الفصل» ٢/٧٧ ـ ٧٨ قال: [وأما قول من قال أبطل الأحرف الستة فقد كذب من قال ذلك. ولو فعل ذلك عثمان أو أراده لخرج عن الإسلام] وابن حزم مخطىء في قوله. سامحه الله وإيانا.

وذلك نحو ما روي...[1] فهذا الضرب وما أشبهه متروك لا تجوز القراءة به... والضرب الثاني: ما اختلف القراء فيه من إظهار، وإدغام، ورَوْم، وإشمام، وقصر، ومدّ، وتخفيف، وشدّ، وإبدال حركة بأخرى وياء بتاء، وواو بفاء، وما أشبه ذلك من الاختلاف المتقارب. فهذا الضرب هو المستعمل في زماننا هذا، وهو الذي عليه خط مصاحف الأمصار، سوى ما وقع فيه من اختلاف في حروف يسيرة.

فثبت بهذا أنّ هذه القراءات التي نقرؤها هي بعض من الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن، استعملت لموافقتها المصحف الذي اجتمعت عليه الأمة، وترك ما سواها من الحروف السبعة لمخالفته لمرسوم خط المصحف، إذ ليس بواجب علينا القراءة بجميع الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن، وإذ قد أباح النبي ﷺ لنا القراءة ببعضها دون بعض لقوله تعالى ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾[2] فصارت هذه القراءة المستعملة في وقتنا هذا هي التي تيسرت لنا بسبب ما رواه سلف الأمة، رضوان الله عليهم من جمع الناس على هذا المصحف، لقطع ما وقع بين الناس من الاختلاف وتكفير بعضهم لبعض][3].

تاريخ القراءات:

كان موضوع القراءات من أهم الموضوعات التي واجهت اللجنة الكريمة المكلفة بهذه المهمة العظيمة: مهمة كتابة المصحف.

وقد وجدت هذه اللجنة في عدم نقط المصحف وعدم شكله حلا جيداً لمشكلة استيعاب معظم القراءات، اذ أصبح المصحف في كتابته هذه متسعاً لعدد كبير من القراءات المتناقلة في عصرهم.

---

(١) وذكر أمثلة على الزيادة، والنقص والإبدال، والتقديم.

(٢) سورة المزمل: ٢٠.

(٣) «المرشد الوجيز» ١٤٠ ـ ١٤٢.

يقول ابن الجزري الدمشقي المتوفى سنة ٨٣٣ هـ :

(وجردت هذه المصاحف جميعها من النقط والشكل[١] ليحتملها ما صح نقله، وثبتت تلاوته عن النبي ﷺ ، إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط. وكان من جملة الأحرف التي أشار النبي ﷺ بقوله: «أنزل هذا القرآن على سبعة أحرف» فكتبت المصاحف على اللفظ الذي استقرّ عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما صرح به غير واحد من ائمة السلف كمحمد بن سيرين وغيره)[١].

ومن المعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم تفرقوا في الامصار المفتوحة فكان منهم فريق في العراق، وفريق في الشام، وفريق في اليمن.. وهكذا. وكان الصحابي يقرىء أهل المصر الذين يقيم فيهم القراءة التي تلقاها عن رسول الله ﷺ في مصحف عثمان. قال ابن الجزري: (وقرأ كل أهل مصر بما في مصحفهم، وتلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه من في رسول الله ﷺ ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم)[٢].

ونبغ عدد من التابعين يؤدون هذه المهمة في المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام.

قال ابن تيمية: (فانه ـ أي ابن مجاهد ـ أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام، اذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره، والحديث والفقه من الأعمال الباطنة والظاهرة وسائر العلوم الدينية)[٣].

ويقول ابن الجزري:

---

(١) «النشر» ١/٧ ـ ٨.

(٢) «النشر» ١/٨.

(٣) «فتاوى ابن تيمية» ١٣/٣٩٠.

(ثم تجرد قوم للقراءة والأخذ، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل اليهم ويؤخذ عنهم، أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم فيها اثنان ولتصدّيهم للقراءة نسبت إليهم:

* فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ت ١٣٠ هـ، ثم شيبة بن نصاح ت ١٣٠ هـ ثم نافع بن أبي نعيم ت ١٦٩ هـ.

* وكان بمكة عبد الله بن كثير ت ١٢٠ هـ، وحميد بن قيس الأعرج ت ١٣٠ هـ، ومحمد بن محيصن.

* وكان بالكوفة يحيى بن وثاب ت ١٠٣ هـ، وعاصم بن أبي النجود ت ١٥٦ هـ، وسليمان الأعمش ت ١٤٨ هـ، ثم حمزة ت ١٥٦ هـ ثم الكسائي ت ١٨٩ هـ.

* وكان بالبصرة عبد الله بن أبي اسحاق ت ١١٧ هـ، وعيسى بن عمر ت ١٤٩ هـ، وأبو عمرو ابن العلاء ت ١٥٤ هـ، ثم عاصم الجحدري ت ١٢٨ هـ، ثم يعقوب الحضرمي ت ٢٠٥ هـ.

* وكان بالشام عبد الله بن عامر ت ١١٨ هـ، وعطية بن قيس الكلابي ت ١٢١ هـ، واسماعيل بن عبدالله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري ت ١٤٥ هـ، ثم شريح بن يزيد الحضرمي ت ٢٣٠ هـ.

ثم إنَّ القراء بعد هؤلاء المذكورين كثروا وتفرّقوا في البلاد وانتشروا وخلفهم أمم بعد أمم عرفت طبقاتهم...)[1].

ثم جاء أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ فجمع القراءات في كتاب، وكان أول أمام معتبر يقوم بهذه المهمة، وكان عدد القراء الذين

---

(١) «النشر» ١/٩.

تعرض لهم في كتابه قرابة ٢٥ قارئاً مع السبعة المشهورين[١].

ثم قامت بعده محاولات عديدة قام بها أعلام من القراء، فمن ذلك ما جمعه أحمد بن جبير بن محمد الكوفي نزيل انطاكية والمتوفى ٢٥٨ هـ.

وجاء بعده القاضي إسماعيل بن اسحاق المالكي ت ٢٨٢ هـ صاحب قالون الذي ألف كتاباً في القراءات جمع فيه قراءة عشرين، منهم هؤلاء السبعة.

وكان بعده محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ الذي جمع كتاباً حافلا سماه «الجامع» فيه نيف وعشرون قراءة.

وجاء بعده أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجوني ت ٣٢٤ هـ الذي جمع أيضاً كتاباً في القراءات.

وكان أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي أول من اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط[٢]. وكان ابن مجاهد حافظاً مقدماً في علم القراءات، ولد في بغداد سنة ٢٤٥ هـ وكان كثير التلاميذ، شديد الورع، راغباً في الخير، توفي يوم الأربعاء في ٢٠ شعبان سنة ٣٢٤ هـ[٣].

قال ابن تيمية:

(فلما أراد ابن مجاهد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من ائمة قراء هذه الأمصار ليكون ذلك موافقاً لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبع هي الحروف السبعة، أو أنَّ هؤلاء السبعة هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءاتهم)[٤].

---

(١) «النشر» ١/٣٣ - ٣٤.

(٢) انظر «النشر» ١/٣٤ فقد ذكر ابن الجزري هناك أسماء الكتب التي ألفت في القراءات وقد أحصى واستقصى، جزاه الله خيراً.

(٣) انظر ترجمته في «غاية النهاية في طبقات القراء» ١/١٣٩.

(٤) «فتاوي ابن تيمية» ١٣/٣٩٠.

وقال مكي:

(من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطاً عظيماً)[1] وقال: (ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة ووافق خط المصحف أن لا يكون قرآنا وهذا غلط عظيم)[1] وقال: (والسبب في الاقتصار على السبعة مع ان في ائمة القراء من هو أجل منهم قدراً، أو مثلهم، أكثر من عددهم، ان الرواة عن الائمة كانوا كثيراً جداً فلما تقاصرت الهمهم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به، فنظروا الى من اشتهر بالثقة، والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراءة به، والاتفاق على الأخذ عنه، فأفردوا من كل مصر إماماً واحداً)[2].

* * *

ملاحظات:

ونختم هذا العرض السريع بملاحظات هامة:

١ ـ القراءات الصحيحة الثابتة كثيرة، وليست محصورة بالقراءات السبع التي جمعها ابن مجاهد، بل ربما كان كثير مما يروى عن غير هؤلاء السبعة أصح من كثير مما فيها[3] والجهلة هم الذين يظنون أن كل ما لم يأت في قراءات هؤلاء السبعة شاذ. وانما أوقع هؤلاء في الشبهة سوء فهمهم لحديث الأحرف. يقول ابن الجزري: (ولذلك كره كثير من الائمة المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء وخطؤوه في ذلك)[3].

٢ ـ لا خلاف بين المسلمين في أن القراءات المشهورة الصحيحة الثابتة

(١) «الاتقان» ١/٨٠ ـ ٨١. وانظر «الابانة عن معاني القراءات» لمكي ص ٣٦.

(٢) «الاتقان» ١/٨١.

(٣) انظر «النشر» ١/٣٦ و«المرشد الوجيز» ١٥٠ وما بعدها.

بالشروط المعروفة لا يمكن أن تتناقض بحال من الأحوال[1].

ورأى العلماء ان اختلافها واحد من أمرين:

أ ـ إما أن يكون عائداً للفظ، والمعنى واحد، مثل، الامالة وعدمها، والادغام وعدمه. وترقيق اللامات وتغليظها.

ب ـ وإما أن يكون اختلافها في المعنى ولكن بشكل لا تناقض فيه مثل (باعد) و (بعد)[2] وهذه القراءات الثابتة التي يتغاير فيها المعنى، كلها حق؛ يجب الايمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً، ولا يجوز ترك موجب أحداها لأجل الأخرى.

٣ ـ القراءات كلها من الحرف الذي وصل إلينا، ولكن كثيراً من القراءات الصحيحة لم تستوعبه القراءات السبع أو العشر.

* * *

حِكَم تعدد القراءات[3]:

١ ـ التخفيف والتيسير على هذه الامة في قراءة القرآن: ففي الناس المرأة والشيخ والانسان العادي ممن لا يقدرون على النطق بغير لهجاتهم وقد آنس الرسول ﷺ ذلك، فطلب من ربه المعافاة فاستجاب له، وخفف على أمته، وانزل القرآن على قراءات متعددة.

٢ ـ شرح الالفاظ: فمثلا القراءة التي وردت الآية فيها كما يأتي:

---

(١) وكذلك الأحرف السبعة أياً كان تفسيرها، لا يمكن أن تتناقض أبداً.

(٢) الآية ١٩ من سورة سبأ. والآية بتمامها: ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إنّ في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾ وانظر القراءات في كلمة (باعد) في «البحر المحيط» ٢٧٢/٧ ـ ٢٧٣. و«النشر» ٣٥٠/٢.

(٣) انظر تفصيل ذلك في «النشر» ٥٢/١ و«الاتقان» ٨٢/١ و«مناهل العرفان» ١٣٨/١.

(وتكون الجبال كالصوف المنفوش)[1] أفادت في شرح كلمة (العهن) الواردة في القراءة الأخرى المعروفة: ﴿وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوش﴾[1].

٣ - بيان حكم من الاحكام: مثل قوله تعالى ﴿وإنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أو امرأةٌ وَلَهُ أخٌ أوْ أخْتٌ فلكلِّ واحدٍ منهما السُّدُسُ﴾[2].

قرأ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «وله أخ أو اخت من أمه» بزيادة (من أمه)[3].

وكذلك قوله تعالى ﴿فاعتزِلُوا النساءَ في المحيضِ ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾[4] فقراءة (يطهرن) بالتشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف.

٤ - دفع توهم ما ليس مراداً: مثل قوله تعالى ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إذَا نُودِيَ للصلاةِ منْ يومِ الجمعةِ فاسْعَوْا إلى ذكرِ الله﴾[5] قرىء «فامضوا الى ذكر الله» فالقراءة الأولى توهم وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة، ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم.

٥ - تحدي القرآن جميع العرب، فلو أتى بلغة دون لغة لقال الذين لم يأت بلغتهم: لو أتى بلغتنا لأتينا بمثله.

٦ - ان وجود القراءات حمل النحويين على توجيهها، فأغنى هذا التوجيه العربية. قال الزركشي: (وقد اعتنى بتوجيه القراءات الأئمة، وأفردوا فيه كتبا. منها كتاب «الحجة» لأبي علي الفارسي وكتاب

---

(١) سورة القارعة: ٥.
(٢) سورة النساء ١٢.
(٣) انظر «تفسير الطبري» ٨/٦٢.
(٤) سورة البقرة: ٢٢٢.
(٥) سورة الجمعة: ٩.

« الكشف » لمكي وكتاب « المحتسب في توجيه الشواذ » لابن جني)[1].

٧ ـ ومن فوائد تعدد القراءات اظهار سر الله في كتابه وصيانته له عن التبديل والاختلاف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة.

القراء العشرة ورواتهم:

القراء العشرة هم القراء الذين عني العلماء بنقل قراءاتهم وهم على قسمين:

* سبعة اختارهم ابن مجاهد.

* وثلاثة اختارهم ابن الجزري فكملوا العشرة.

وسنورد فيما يأتي أسماء هؤلاء القراء وأسماء رواتهم وسنوات وفياتهم في جدولين نلحق بكل منهما بعض الملاحظات:

١ ـ جدول بأسماء القراء السبعة ورواتهم:

١ ـ نافع بن عبد الرحمن المدني (ت ١٦٩)	وراوياه هما: ١ ـ قالون: عيسى بن ميناء ت ٢٢٠ ٢ ـ ورش: عثمان بن سعيد ت ١٩٧
٢ ـ عبدالله بن كثير المكي (ت ١٢٠)	وراوياه هما: ١ ـ قنبل: محمد بن عبد الرحمن ت بعد ٢٨٠ ٢ ـ البزي: احمد بن محمد ت ٢٤٠
٣ ـ أبو عمرو بن العلاء البصري (ت ١٥٤)	وراوياه هما: ١ ـ الدوري: حفص بن عمر ت ٢٥٠.

(١) « البرهان » ١/٣٣٩ و « الاتقان » ١/٨٢ ـ ٨٣ وقد حقق « الكشف » محي الدين رمضان ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق. ١٩٧٤ ثم نشرته مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٨١.

٢ ـ السوسي: صالح بن زياد ت ٢٦١.

٤ ـ عبدالله بن عامر الشامي (ت ١١٨)

وراوياه هما:

١ ـ ابن ذكوان: عبدالله بن أحمد ت ٢٤٢.

٢ ـ ابن عمار: هشام بن عمار ت ٢٤٥.

٥ ـ عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٧ هـ)

وراوياه هما:

١ ـ شعبة بن عياش ت ١٩٤

٢ ـ حفص بن سليمان ت قريباً من ١٩٠

٦ ـ حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (ت ١٥٦)

وراوياه هما:

١ ـ خلف بن هشام البزار ت ٢٢٩

٢ ـ خلاد بن خالد ت ٢٢٠

٧ ـ علي بن حمزة الكسائي الكوفي (ت ١٨٩)

وراوياه هما:

١ ـ الدوري: (انظره عند أبي عمرو ابن العلاء)

٢ ـ الليث بن خالد أبو الحارث ت ٢٤٠.

الملاحظات حول القراء السبعة:

١ ـ ان هؤلاء القراء السبعة من أمصار العلم المعروفة التي انبثق منها علم النبوة ـ كما يقول ابن تيمية ـ وهي: مكة والمدينة، والكوفة والبصرة، والشام، ويلاحظ من معرفة أحوال هؤلاء القراء ان حظ الكوفة أكبر من غيرها من الأمصار اذ كان منها ثلاثة من سبعة وهم: عاصم وحمزة والكسائي.

٢ - ان هؤلاء القراء جميعاً كانوا من رجال القرن الثاني الهجري، أدرك معظمهم القرن الأول، وتلقوا عن الصحابة، ولذلك فقد كان معظمهم من التابعين، وأولهم وفاة هو ابن عامر توفي سنة ١١٨ وآخرهم وفاة الكسائي توفي سنة ١٨٩.

٣ - ان هؤلاء القراء من الموالي باستثناء قارئين وهما ابو عمرو بن العلاء وعبدالله بن عامر.

٤ - ان هؤلاء القراء جميعاً كانوا من المعمرين الذين أتيح لهم أن يقرئوا الناس القرآن مدة طويلة، وتخرجت عليهم أجيال.

٥ - ان هؤلاء القراء كانوا جميعاً من العلم والورع والاستقامة والخلق بالمكان الأسمى.

٦ - يلاحظ ان بعض القراء تلقى رواتهم القراءة عنهم مباشرة، وبعضهم تلقى الرواة المذكورون القراءة عنهم بالواسطة.

ب - جدول بأسماء القراء الثلاثة المكملين للعشرة:

١ - ابو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المدني (ت ١٣٠)	وراوياه هما: ١ - عيسى بن وردان (ت ١٦٠) ٢ - سليمان بن حجاز (ت بعد ١٧٠)
٢ - يعقوب بن اسحاق الحضرمي البصري (ت ٢٠٥)	وراوياه هما: ١ - رويس محمد بن المتوكل (ت ٢٣٨) ٢ - روح بن عبد المؤمن الهذلي (ت ٢٣٥)

٣ ـ خلف بن هشام البزار البغدادي (ت ٢٢٩) وانظره عند حمزة الكوفي في الجدول السابق.	وراوياه هما: ١ ـ اسحاق بن ابراهيم بن عثمان الوراق (ت ٢٨٦) ٢ ـ ادريس بن عبد الكريم الحداد (ت ٢٩٢)

الملاحظات حول القراء الثلاثة:

١ ـ هؤلاء القراء الثلاثة من رجال القرن الثاني الهجري فآخرهم وفاة توفي بالربع الثاني من القرن الثالث الهجري.

٢ ـ يلاحظ ان في هؤلاء القراء من ينتسب الى المدينة والبصرة بالاضافة الى خلف الذي كان راويا لحمزة الكوفي.

٣ ـ كذلك كان هؤلاء القراء الثلاثة من الفضل والتقوى والمعرفة بمكانة عالية شأنهم شأن سابقيهم.

* * *

القسم الثاني

التفسير واتجاهاته

كلامنا عن التفسير سيكون في أبواب ثلاثة: واحد في أصوله وآخر في تاريخه وثالث في اتجاهاته.

ونقدم بين يدي كلامنا هذا بحثاً في التفسير لغة واصطلاحاً والفرق بينه وبين التأويل.

التفسير:

ـ التفسير في اللغة: الايضاح والتبيين. ووزنه تفعيل من الفسر، وهو البيان والكشف. قال الله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾[1].

ـ التفسير في الاصطلاح: هو علم يفهم به كتاب الله وذلك ببيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه وقد يدعى التفسير تأويلا.

وقالوا في **تعريفه**: هو علم باحث عن معنى نظم القرآن بِحَسَبِ الطاقة البشرية، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية.

والغرض منه:معرفة معاني النظم.

---

(١) سورة الفرقان: ٣٣.

وفائدته: حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة.

وموضوعه: كلام الله سبحانه الذي هو منبع كل حكمة ومعدن كل فضيلة.

وغايته: التوصل إلى فهم معاني القرآن واستنباط حكمه ليفاز به إلى السعادة الدنيوية والأخروية (١).

وقال أبو حيان في تعريفه: هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتات لذلك (٢).

التفسير والتأويل:

اختلف العلماء في تحديد معناهما:

فقال قوم: إنهما بمعنى واحد. وقال آخرون: التفسير أعم من التأويل لأنه يستعمل في الكتب الإلهية وغيرها، وأما التأويل فأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية (٣)، تقول: فسرت الكلمة الواردة في بيت الشعر، ولا تقول: أولت ذلك.

وقالوا: أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ والمفردات، أما التأويل فأكثر ما يستعمل في المعاني والجمل (٤).

---

(١) «كشف الظنون» ١/٤٢٧.

(٢) «البحر المحيط» ١/١٣ - ١٤ وانظر شرحه لمفردات هذا التعريف هناك.

(٣) نقل ذلك الزركشي في «البرهان» ٢/ص ١٤٩ والسيوطي في «الاتقان» ٢/١٧٣ عن الراغب، وانظر مقدمة التفسير للراغب ٤٠٢ وهو ملحق بكتاب «تنزيه القرآن» للقاضي عبد الجبار.

(٤) «الاتقان» ٢/١٧٣.

وقد حقق شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله القول في كلمة (التأويل) في استعمال السلف والمتأخرين تحقيقاً جيداً ننقل فحواه فيما يأتي:

ـ قرر ـ رحمه الله ـ أن السلف استعملوا هذا اللفظ في معنيين:

* أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً.

* وثانيهما: هو نفس المراد بالكلام فان كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ تَأْويلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تأويلُه يقُول الذين نَسُوهُ مِن قبلُ قد جاءتْ رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاء فَيَشْفَعُوا لنا أو نُرَدُّ فنعملَ غيرَ الذي كنا نعملُ قد خسروا أنفُسَهُمْ وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

وقرر أن (التأويل) في عرف المتأخرين هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقترن به كقولهم: هذا الحديث مؤول، أي مصروف عن كذا محمول على غيره. ولا بد من دليل يعتمده المؤول[2].

وقد أورد السيوطي في «الاتقان» نقولا كثيرة عن العلماء في التفريق بينهما[3].

---

(١) سورة الأعراف: ٥٣.

(٢) انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» ١٣/٢٨٣.

(٣) «الاتقان» ٢/١٧٣.

الباب الأول

أصول التفسير

أصول التفسير مبحث مهم تفرقت موضوعاته في مقدمات بعض المفسرين وفي كتب أصول الفقه. ومن أشهر الذين أفردوه من المتقدمين ابن تيمية في رسالة خاصة طبعت بعنوان «مقدمة في أصول التفسير»، وأفرده بالتأليف من المتأخرين العلامة الشيخ عبد الحميد الفراهي من علماء الهند وترك رسالة عنوانها: «التكميل في أصول التأويل» يقول في مقدمتها: (ولم نحتج الى تأسيس هذا الفن لترك العلماء اياه بالكلية، فانك تجد طرفاً منه في أصول الفقه ولكنه غير تمام[1]).

والبحث في أصول التفسير ما زال متسعاً لمزيد من الدراسة والتأليف. وسنلمس هذا المبحث لمسات تتناول النقاط الثلاث الآتية:

١ ـ سنذكر أولا العلوم التي لا بد من تحصيلها ليتسنى لنا أن نفسر القرآن.

٢ ـ كما نذكر ما يشترطه العلماء عادة في المفسر.

٣ ـ ونشير الى أهم قواعد أصول التفسير.

* * *

(١) «التكميل في أصول التأويل» ص ١.

أولا: العلوم التي يحتاج اليها المفسر عديدة أهمها:

١ ـ اللغة والاشتقاق: لأننا باللغة نعرف معاني المفردات، وفهم حقائق الألفاظ المفردة يكون باستقصاء المعاني التي دلت عليها هذه الكلمة في آيات القرآن. ولا بد للوصول الى هذا المقصد من الاطلاع على معاني المفردات زمن التنزيل، إذ كلما استطعنا تحديد مدلول هذه الكلمة في ذاك الزمن كنا أقدر على فهم معنى الكلمة المراد.

قال مجاهد:

(لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب)[١].

ومما يتصل بمعرفة المفردات معرفة المترادف والمشترك وما الى ذلك من أنواع اللغة. وكذلك فان معرفة الاشتقاق تعين على الفهم الدقيق للآية.

٢ ـ النحو والصرف: لأن فهم المعنى يتوقف في أحيان كثيرة على معرفة الاعراب، ويقع الذين يجهلون هذين العلمين ويتصدون للتفسير في أغلاط شنيعة كما حدث لبعضهم في شرح الآية: ﴿يومَ نَدْعُو كُلَّ أناسٍ بإمامِهِمْ﴾[٢] فقد فهموا الامام أنه جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم دون آبائهم قال الزمخشري: (وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن (أما) لا تجمع على (إمام))[٣].

٣ ـ الأدب وعلوم البلاغة: ذلك لأن مراعاة ما يقتضيه الاعجاز أمر لازم في التفسير، فلا بد من اشارة الى نواحي الجمال الفني في الآية وتحليلها.

---

(١) «الاتقان» ٢/١٨١.

(٢) سورة الاسراء: ٧١.

(٣) انظر «الاتقان» ٢/١٨١ وانظر «الأسرار المرفوعة» ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

ومن أجل ذلك كله كان التذوق الأدبي أمراً ضرورياً لكل من يتصدى للتفسير، ولا ينمو هذا التذوق إلا بعد طول معاناة لكلام البلغاء وقراءة آثارهم وحفظ مختارات منها، واطلاع على نتاج النقاد، ودراسة للشعر والرسائل والخطب واشتغال بالكتابة، قال الزمخشري:

(من حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز، ان يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح)[1].

٤ ـ علوم القرآن: ذلك لأن معرفة هذه العلوم من أهم الأدوات التي لا بد منها لعملية التفسير.

فمعرفة أسباب النزول تساعد كثيراً على فهم الآيات الفهم الصحيح الدقيق، وتجنب المفسر أغلاطاً كان من المحتمل أن يقع فيها.

وكذلك فان معرفة المكي والمدني تعين في ادراك معاني الآيات، ولنأخذ على ذلك مثلا آيات الجهاد، فاننا ـ عندما نعرف المكي والمدني منها ـ نتصور الجهاد على الوجه الصحيح السليم[2].

وكذلك فان معرفة الناسخ والمنسوخ لها أهميتها القصوى في تفسير الآيات التي تقرر حكمين مختلفين في موضوع واحد.

وكذلك فان المحكم والمتشابه من الأمور الأساسية في التفسير، حتى نتخلص من عناء الدخول في متاهات المتشابه، ولنصرف جهدنا وطاقاتنا في تفسير المحكم.

٥ ـ علم أصول الدين والتوحيد: وذلك لأن هذا الكتاب الكريم ـ كما

---

(١) «الاتقان» ٢/١٨١.

(٢) انظر «زاد المعاد» ١٥٨/٣ و«معالم في الطريق» ٧٥ وتفسير سورة الأنفال وسورة براءة من كتاب «في ظلال القرآن».

سبق أن أسلفنا ـ يتضمن نظرة جديدة الى الكون والحياة والانسان متمثلة في العقيدة الاسلامية، فادراك أصول هذه العقيدة يساعد مساعدة تامة في شرح الآيات الكريمة المتعلقة بذلك.

٦ ـ علم أصول الفقه: لأننا بواسطة هذا العلم نستطيع أن نعرف استنباط الاحكام من النص، ووجه الاستدلال على الأحكام.

ولعل هذا العلم من أهم العلوم التي نستفيد منها في قواعد أصول التفسير.

٧ ـ الحديث النبوي والفقه والسيرة:

أما الحديث ففيه تفسير لعدد من آيات القرآن، إذ كانت مهمة النبي ﷺ الأولى تبيان ما نزل إليه، وفيه تفصيل للمجمل وبيان للمبهم.

وأما الفقه الاسلامي فانه يعرض الأحكام الاسلامية التي ذكرها القرآن مبوبة مجموعة، فيساعد استحضارها على تصور دقيق لمعاني آيات الأحكام.

وأما السيرة ففيها تجلية لكثير من الآيات، وذلك كما في آيات الأنفال التي تتحدث عن غزوة بدر، وآيات آل عمران التي تتحدث عن غزوة أحد.

٨ ـ علوم أخرى: كالعلوم الاجتماعية والعقلية والكونية وما يتصل بالثقافة العامة، فالتاريخ والجغرافيا والاجتماع وعلم النفس والفلك.. كل هذه العلوم مما يساعد على تفسير القرآن تفسيراً يتصل بحياة الناس.

* * *

ثانياً: الشروط التي يشترطها العلماء في المفسر:

ونستطيع أن نقسمها الى ثلاثة أقسام:

١ ـ شروط عملية: تتلخص باتقان المفسر قدراً جيداً من العلوم التي ذكرناها آنفاً.

٢ ـ شروط عقلية: وهي أن يكون المفسر موهوباً ذا قدرات عقلية ممتازة، قوي الاستدلال حسن الاستنباط، قادراً على الترجيح إن تعارضت الأدلة، عارفاً اختلاف الأقوال على حقيقته، اذ كثيراً ما يكون الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد(١).

٣ ـ شروط دينية وخلقية: وهي أن يكون صحيح العقيدة، مؤدياً للواجبات الدينية، ملتزماً الآداب والأخلاق الاسلامية التي دعا اليها الاسلام وأن يكون محرراً من سلطان الهوى، شديد الخشية لله.

* * *

ثالثاً: قواعد أصول التفسير:

وسنقتصر على الاشارة الى أهمها، لأنني أرى ان محل ذكرها كتب أصول التفسير ذاتها. قال الفراهي:

(وهذه الأصول تقسم الى قسمين: الأول ما يعصم عن الزيغ في التأويل، والثاني ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله)(٢).

* ومن أهم الاصول التي يجب مراعاتها أن تكون خطوات التفسير متدرجة كما يلي:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن:

لاننا نجد أحيانا ان ما اجمل في موضع قد فُصِّل في موضع آخر كما سنذكر ذلك بالتفصيل في موضعه إن شاء الله.

٢ ـ تفسير القرآن بالسنة:

---

(١) وقد فصل ابن تيمية هذا في رسالته تفصيلا حسنا انظر ص ٣٨ من رسالة ابن تيمية وانظر «توجيه النظر» ص ٢ وانظر ص ٢١٠ من هذا الكتاب.

(٢) «التكميل في أصول التأويل» ص ١٣.

لأنها الشارحة للقرآن الموضحة له.

٣ - تفسير القرآن بما قاله الصحابة:

لأنهم شاهدوا من القرائن والأحوال التي رافقت نزول القرآن ما يجعل فهمهم أدق وأتم، ولأن لغة القرآن هي لغتهم يدركون من أسرارها بالفطرة ما لا يدركه المتأخرون بالتعلم.

* ومن القواعد ما يذكره الأصوليون من أنَّ صيغة الأمر إذا جاءت بعد حظر دلت على الاباحة وذلك كقوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿وذَرُوا البيعَ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كُنْتُم تَعْلَمون. فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغُوا من فضلِ الله﴾[1].

فقوله تعالى ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ إنما هو للاباحة لا للوجوب.

* ومن القواعد ما ذكره ابن القيم في كتابه «بدائع الفوائد»[2]. ومن ذلك قوله: (وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، وإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال نحو ﴿من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً﴾[3] ونحو ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾[4] ومن السكوت عن التحريم)[5].

---

(١) سورة الجمعة: ٩ - ١٠.

(٢) انظر «بدائع الفوائد» ٤/٢ - ١٠ وقد نقل معظمها عبد الرحمن السعدي في كتابه «فوائد قرآنية» ١٠٥ - ١١٣.

(٣) سورة النحل: ٨٠ والآية بتمامها: ﴿والله جعلَ لكم مِنْ بيوتِكُم سكناً وجعلَ لكم مِنْ جُلودِ الانعامِ بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾.

(٤) سورة النحل: ١٦.

(٥) «بدائع الفوائد» ٦/٤.

الباب الثاني

تاريخ التفسير

سنلم في فصول هذا الباب المامة سريعة بتاريخ التفسير، نستعرض نشوءه أيام النبي ﷺ ونموه في عهد الصحابة والتابعين، ثم نتحدث عن توسعه فيما بعد ذلك حتى ننتهي في استعراضنا الى العصر الحديث، وسنقسم كلامنا حول تاريخ التفسير الى أربعة فصول:

الفصل الأول

التفسير في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

القرآن كتاب عربي مبين، نزل على الرسول الكريم ﷺ ليبلغه قومه العرب الفصحاء البلغاء، فلم يستغلق فهمه بالاجمال على معظمهم، إذا استثنينا ما تشابه منه ﴿هُوَ الذي أَنْزَلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابِهاتٌ، فأمّا الذينَ في قلوبهم زيغٌ فيتّبعونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابتغاءَ الفتنةِ، وابتغاءَ تأويلِهِ، وما يعلمُ تأويلَهُ إلا اللهُ﴾ (١).

فهمه العرب، وكان سبباً في دخول عدد كبير منهم في الاسلام، ولكن معاني القرآن لا تحد ولا يحاط بها، ولما كان الرسول ﷺ أكثر الخلق فهماً لهذا الكتاب كان من مهماته الأساسية ان يبين للناس ما نزل اليهم، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبينَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾ (٢).

والقرآن يحوي ـ كما سبق أن أشرنا لذلك ـ نظرة إلى الحياة والكون والانسان جديدة على العرب، ومن أجل ذلك فهم محتاجون الى مزيد من الشرح والبيان لها حتى يقفوا عليها، ويعوها حق الوعي، لا سيا وأن في القرآن المجمل، والعام، والمشكل، وفيه مفردات لا يفهمها بعضهم، فقد كان بعض الصحابة يكتفي بفهم المعنى الاجمالي لآيات القرآن ويؤخذ

---

(١) سورة آل عمران: ٧.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

بسحرها وجمالها، وإننا لنقرأ في أخبارهم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يعرف معنى كلمة (الأب) في قوله تعالى: ﴿وفاكهة وابا﴾ (١) ونقرأ ان ابن عباس لم يعرف معنى كلمة (فاطر) حتى سمع أعرابياً يوردها في جملة: اخرج أبو عبيد في «الفضائل» من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها (٢).

ونقرأ أن عدي بن حاتم فهم الخيط الأبيض والخيط الاسود بالمعنى المادي، فجاء بعقالين احدهما أبيض والآخر أسود، وظن أنه ما لم يتبينا فللانسان الصائم أن يأكل ويشرب، فهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وكُلُوا واشربُوا حتَّى يتبيَّنَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ﴾ (٣).

إذن فقد كان الصحابة يتفاوتون في فهم القرآن تبعاً لما يأتي:

١ - يتفاوتون تبعاً لمواهبهم.
٢ - يتفاوتون تبعاً لاطلاعهم على لغتهم وأدبها ولهجاتها.
٣ - يتفاوتون تبعاً لمعرفتهم أسباب النزول.

وهكذا فإن كثيراً من مواضع القرآن كانت تثير بعض الاسئلة عند بعض الصحابة فيتوجهون بها إلى الرسول ﷺ في حياته. وكان يسأل بعضهم بعضاً عن معاني المفردات الغامضة والآيات بعد وفاته صلّى الله عليه وسلّم.

---

(١) سورة عبس: ٣١ وهذا الخبر مروي عن أبي بكر أيضاً وانظر «تفسير ابن كثير» ٥/١ و «فتح الباري» ٢٧٠/١٣ - ٢٧٢ وانظر «الاتقان» ١١٣/١. والأب: المرعى المتهيىء للرعي والجز.

(٢) «الاتقان» ١١٣/١ وانظر كلامنا على التفسير اللغوي. وانظر «البرهان» للزركشي ١٦٢/٢ و«تأويل مختلف الحديث» ص ٢٠ و«الباعث على الخلاص» ١٤٩.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧ وانظر الخبر في «صحيح البخاري» ٢٢/٦. أقول: وفهمُ عديٍّ رضي الله عنه غير صحيح: وقد نبهه رسول الله ﷺ الى الحق في الموضوع.

الفصل الثاني

التفسير في عهد الصحابة

كانت مادة التفسير في عهد الصحابة قائمة على ما يأتي:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن: وسنتحدث عن ذلك مفصلاً عند كلامنا على التفسير بالمأثور.

٢ ـ ما كان يحفظه الصحابة من تفسيرات النبي ﷺ: وقد نقلت لنا كتب السنة ما كان الصحابة يحفظونه من تفسير رسول الله ﷺ لبعض الآيات.

أما كمية ما فسره النبي ﷺ وتناقلته الصحابة فمختلف بها عند العلماء، فمنهم من يذهب إلى أنه ﷺ فسر القرآن كله، ومنهم من يذهب إلى أن الذي فسره قليل جداً، والحق في الوسط فليس ما فسره النبي ﷺ قليلاً، فهذه أبواب التفسير في كتب السنة حافلة، كما أنه لم يستوعب القرآن كله.

٣ ـ ما كانوا يستنبطونه من الآيات: وكان يعتمد ذلك على قوة فهمهم وسعة إدراكهم، وعلى معرفتهم بأوضاع اللغة وأسرارها، وأحوال الناس وعاداتهم في جزيرة العرب.

٤ ـ ما كانوا يسمعونه من أنباء أهل الكتاب الذين دخلوا في الاسلام

وحسن إسلامهم، وهذا المصدر تجده أكثر ما تجده في قصص الأنبياء، وهو مصدر هين يسير.

* * *

ومن المفيد أن نذكر أشهر الصحابة في التفسير:
أشهرهم عشرة هم:

١ ـ عبد الله بن عباس
٢ ـ عبد الله بن مسعود
٣ ـ علي بن أبي طالب
٤ ـ أبي بن كعب
٥ ـ أبو بكر الصّديق
٦ ـ عمر بن الخطاب
٧ ـ عثمان بن عفان
٨ ـ زيد بن ثابت
٩ ـ أبو موسى الأشعري
١٠ ـ عبد الله بن الزبير

وأهم هؤلاء في التفسير الاربعة الاوائل، وقد رتبتهم حسب أهميتهم في التفسير وكثرة ممارستهم له، فأوسع الصحابة اشتغالاً بالتفسير هو عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

ابن عباس[١]:

هو عبد الله بن عباس الذي كان يلقب بحبر الأمة، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، وغزا في افريقية، وتوفي بالطائف سنة ٦٨ هـ، وكان من العلماء الكبار في التفسير، وكان ذلك ببركة دعاء الرسول ﷺ حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[٢]، وبنشأته في بيت النبوة، وملازمته

(١) أنظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» ٣/٣٣١ و«وفيات الأعيان» ٣/٦٢ و«البداية والنهاية» ٨/٢٩٥ و«الإصابة» ٢/٣٣٠ و«تهذيب التهذيب» ٥/٢٧٦ و«أعلام الموقعين» ١/١٨ وما بعدها. و«تهذيب الأسماء واللغات» ١/٢٧٤.

(٢) أورده البخاري في «صحيحه» ١/٢٢ عن ابن عبّاس قال: ضمّني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علمه الكتاب»، وأخرجه البخاريّ أيضاً بلفظ: «اللهم فقهه في الدين» =

الصحابة، وبمعرفته للعربية وآدابها والوقوف على اسرارها، وبسبب جمعه عدداً من المزايا التي قل ان تجتمع في واحد من الذكاء النادر، والذهن الجوال، والقريحة الوقادة، والرأي الصائب، والدين المتين، والايمان الراسخ. وقد أثنى عليه ابن مسعود وكان يقول: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»[1].

وقد كثرت الروايات عن ابن عباس كثرة كبيرة.

وهناك طرق عديدة نقلت عن ابن عباس، وهي متفاوتة في القوة، وقد ذكر بعضها السيوطي في «الاتقان» وسأقتصر على ذكر ثلاث طرق إحداها واهية جداً.

* أجود الطرق هي طريق معاوية بن صالح[2] عن علي بن ابي طلحة[3] عن ابن عباس. وابن أبي طلحة يروي عن مجاهد عن ابن عباس

= ٣٤/١، وأخرجه مسلم ١٩٢٧/٤ بلفظ «اللهم فقهه...»، والخطيب في «الكفاية» ٣٨٤ وانظر ابن ماجه ٥٨/١ والترمذي ٣٥١/٤. وذكر ابن حجر في «فتح الباري» ١٧٠/١ أنَّ هذا الحديث أخرجه أحمد وابن حبّان والطبراني وابن سعد والبغوي في «معجم الصحابة»، وأورده ابن حجر أيضاً في «الإصابة» ٣٢٢/٢.

(١) أخرجه أبو شيبة زهير بن حرب في «كتاب العلم» ص ١٢٠ رقم الحديث ٤٨. وقال الشيخ ناصر الالباني في تعليقه عليه: (والسند اليه صحيح على شرط الشيخين). وأخرجه ابن كثير في مقدّمة «تفسيره» ٤/١ وقال: (فهذا إسناد صحيح الى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة ٣٢ وعمر بعده عبد الله بن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود.) وقد نقل هذا الكلام بحروفه الزركشي في «البرهان» ٨/١ وهو تلميذ ابن كثير ولم يعزه لأحد، وأخرجه أيضاً ابن حجر في «الإصابة» ٣٢٤/٢.

(٢) هو معاوية بن صالح بن حُدَيْر الحضرمي الحمصي، أحد الأعلام، وقاضي الأندلس. مات سنة ١٥٨ هـ أخرج له مسلم والأربعة.

(٣) روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس مرسلاً؛ لأنه لم يسمع منه. أصله من الجزيرة، وانتقل إلى حمص. قال ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ٣٤٠/٧: [ونقل البخاري من تفسيره رواية معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس شيئاً كثيراً في التراجم وغيرها، ولكنه =

وهذه الطريق اعتمد رجالها مسلم وأحمد وأصحاب السنن.

* وهناك طريق أخرى صحيحة وهي: قيس بن مسلم الكوفي(١)، عن عطاء بن السائب(٢)، عن سعيد بن جبير(٣)، عن ابن عباس. وهذه الطريق يعتمدها الحاكم في «مستدركه» وذكر أنها صحيحة على شرط الشيخين.

* أما الطريق الواهية الضعيفة فهي:

محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح(٤)، عن ابن عباس، وممن يروي عن الكلبي محمد بن مروان السدي الصغير.

قال السيوطي: فان انضم الى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب(٥).

أما تفسير ابن عباس المطبوع بعنوان «تنوير المقباس من تفسير ابن

= لا يسميه، ويقول: (قال ابن عباس) أو [يذكر عن ابن عباس] وأخرج له مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

(١) هو قيس بن مسلم الكوفي. موثق. مات سنة ١٢٠ هـ وأخرج له البخاري ومسلم والأربعة.

(٢) هو أحد الأئمة كان يختم كل ليلة. وأخرج له البخاري حديثاً واحداً متابعة في ذكر الحوض، وأخرج له الأربعة وقد اختلط في آخر عمره. مات سنة ١٣٦ وانظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» ٢٠٣/٧.

(٣) هو سعيد بن جبير وانظر ترجمته في مبحث التفسير في عهد التابعين.

(٤) محمد بن السائب الكلبي كذاب ساقط سبئيٌّ وقد نقل سفيان الثوري عنه انه قال: ما حدثت عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب فلا ترووه. قال السيوطي في «الدر المنثور» ٤٢٣/٦: [والكلبي اتهموه بالكذب. وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه: كل شيء حدثتكم به عن أبي صالح كذب] مات سنة ١٤٦. وأما أبو صالح المعروف بباذان أو باذام فأكثر علماء الرجال يطعن فيه ومن اعتدل قال: ليس به بأس واذا روى عنه الكلبي فليس بشيء. وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس. أنظر «التاريخ الكبير» للبخاري ١٤٤/٢ و«الميزان» ٢٩٦/١ و«المجروحين» لابن حبان ١٨٥/١.

(٥) «الاتقان» ١٨٩/٢.

عباس »[1] والذي جمعه الفيروز ابادي صاحب « القاموس » فإن روايته كلها تدور حول الشخص الذي ذكرناه قبل قليل وهو: محمد بن مروان السدي الصغير، ومن أجل ذلك فلا يطمأن بحال من الأحوال إلى ما انفرد به هذا الكتاب.

* * *

وشأن عبد الله بن مسعود[2] وعلي بن أبي طالب وابي بن كعب شأن كبير في التفسير ولا نستطيع أن نفصل القول في ذلك، فنكتفي بما أوردناه عن ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً.

وليس هؤلاء الصحابة المذكورون هم الذين اشتغلوا بالتفسير فقط، بل إن عدداً كبيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يفسرون في بعض الأحيان، ولكن هؤلاء الذين نوهنا بهم هم المكثرون. وقد انتشروا في الآفاق.

* * *

قيمة تفسير الصحابة[3]:

ننظر في التفسير المنقول عن الصحابة:

١ ـ فان كان مرفوعاً الى النبي ﷺ فهو حديث، له حكم الحديث أي يكون حجة ان صح سنده.

٢ ـ وان لم يكن مرفوعاً ننظر فيه فان كان متعلقاً بأسباب النزول أو

---

(١) طبع في مصر في المطبعة الازهرية سنة ١٣١٦ هـ وبهامشه « أسباب النزول » للسيوطي و« الناسخ والمنسوخ » لابن حزم وقد طبع طبعات أخرى أنظر « معجم المطبوعات » ١٥٨/١.

(٢) تتضح منزلة ابن مسعود في التفسير من قوله الذي مرّ معنا في مبحث المكي والمدني.

(٣) وسنذكر هذا التفسير مرة أخرى في التفسير بالمأثور.

بما لا يكون من قبيل الرأي والاجتهاد أعطي حكم المرفوع وكان حجة إن صح سنده.

٣ - أما اذا كان من قبيل الاجتهاد والاستنباط أو ليس متعلقاً بأسباب النزول كان موقوفاً على الصحابي. وقد اختلف العلماء بالنسبة إلى الموقوف هذا: فمنهم من يقول: إنه رأي لا يلزم، ومنهم من يقول: إنه رأي يلزم.

قال الزركشي في «البرهان» [(١)]:

ينظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان. فلا شك في اعتماده، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه.

وجاء في مقدمة «تفسير ابن كثير» [(٢)]:

«اذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعنا في ذلك الى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم».

وإن اختلفوا اخترنا من أقوالهم ما يكون أكثر انسجاماً مع السياق، وإن أجمعوا على رأي لزمنا الأخذ به.

* * *

ويتحصل من ذلك ان التفسير المروي عن الصحابي إن كان متعلقاً بأسباب النزول او بما لا يمكن ان يكون من قبيل الرأي والاجتهاد كان

---

(١) «البرهان» ٢/١٧٢.
(٢) «تفسير ابن كثير» ١/٣.

ملزماً، وكذلك إن كان تفسيراً يعتمد على اللغة التي هم أدرى الناس بها فهو ملزم أيضاً.

أما الشيء الذي ليس داخلاً فيما ذكرناه فهو بشكل عام غير ملزم. وينظر الى كل رأي على حدة.

* * *

الفصل الثالث

التفسير في عهد التابعين

جاء التابعون فنقلوا روايات التفسير عن الصحابة، وزادوا فيها ما استنبطوه بأنفسهم، وما زال التفسير يتضخم في عهدهم حتى اجتمع منه الشيء الكثير.

ولكن هذه الأقوال في التفسير لم تكن مجموعة ولا مرتبة بشكل منظم وفق ترتيب المصحف، بل كانت تروى منثورة تفسيراً لآيات متفرقة بين روايات لا علاقة لها بالتفسير، أي إن التفسير كان مختلطاً بالحديث غير مميز عنه.

وكان التابعون من أهل كل قطر يعنون برواية ما سمعوه وما ورد من التفسير عن الصحابي الذي يقيم في بلدهم.

* فاختص المكيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن عباس. وأشهر المكيين الذين قاموا بذلك مجاهد (١) وعكرمة (٢) وسعيد بن جبير (٣).

---

(١) هو مجاهد بن جبر المكي، المخزومي بالولاء، ابو الحجاج، ولد سنة ٢١ هـ شيخ القراء والمفسرين، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وكان من أئمة الحديث والفقه وكان ثقة عابداً مجمعاً على فضله، توفي سنة ١٠٤ هـ. هذا وقد حقق عبد الرحمن الطاهر السورتي كتاباً مخطوطاً جمعه جامع بعنوان «تفسير مجاهد» وطبع في قطر سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

(٢) هو عكرمة مولى ابن عباس، أبو عبد الله المدني البربري، ولد سنة ٢٥ هـ أثنى عليه ابن عباس فقال: ما حدثكم عكرمة عني فصدقوه فانه لم يكذب علي، توفي سنة ١٠٥هـ.

(٣) هو سعيد بن جبير، الأسدي بالولاء، تابعي من كبار العلماء، أخذ عن عبد الله بن =

* واختص المدنيون برواية ما ورد من التفسير عن أبي بن كعب[١].

وأشهر المدنيين الذين قاموا بذلك: أبو العالية[٢]، وزيد بن أسلم[٣].

* وعني التابعون الكوفيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن مسعود.

وأشهر الكوفيين الذين قاموا بذلك: علقمة بن قيس[٤] وابراهيم النخعي[٥] والشعبي[٦].

وهذه المدارس الثلاث أهم مدارس التفسير عند التابعين.

* * *

= عباس، وقتله الحجاج بواسط سنة ٩٥ هـ. وقيل: إن قتله كان آخر سنة ٩٤ هـ وانظر «تهذيب التهذيب» ٤/١١ - ١٤.

(١) هو الصحابي الجليل أبي بن كعب بن قيس الانصاري الخزرجي، سيد القراء، شهد بدراً والمشاهد كلها، وكان من كتبة النبي ﷺ وكان من أصحاب الفتيا، يسأله عمر عن النوازل ويرجع اليه في المعضلات، توفي بالمدينة سنة ٣١ هـ.

(٢) هو رُفَيْع بن مهران، ابو العالية، البصري الفقيه المقرىء، رأى أبا بكر، وقرأ القرآن على أُبيّ وغيره، وسمع من عمر وابن مسعود وعلي وعائشة. وروى عنه قتادة وأبو العلاء، كان ابن عباس يرفعه على سريره وقريش اسفل منه يقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الاسرة. توفي سنة ٩٣ هـ. وانظر «الفقيه والمتفقه» ١/٣١ و«تهذيب التهذيب» ٣/٢٨٤ و«ابن الجزري» ١/٢٨٤ و«معرفة القراء» للذهبي ١/٤٩ و«اللباب» ٢/٤٦ و«طبقات المفسرين» للداودي ١/١٧٢ و«الحلية» ٢/٢١٧ و«الخلاصة».

(٣) هو زيد بن أسلم العدوي بالولاء المدني الفقيه المفسر، ذكروا انه ترك كتاباً في التفسير رواه ابنه عبد الرحمن. توفي سنة ١٣٦ هـ.

(٤) هو علقمةبن قيس، أبو شبيل، ولد في حياة النبي ﷺ، واشتهر بالقراءات، وكان قوي الذاكرة. قال: ما حفظت وأنا شاب فكأنما أقرؤه من ورقة. كان فقيه العراق، وهو من اهل الكوفة، توفي سنة ٦٤ هـ على الارجح.

(٥) هو ابراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، فقيه العراق، روى عن بعض الصحابة. كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. مات سنة ٩٥ هـ.

(٦) هو عامر بن شراحبيل ابو عمرو الهمداني الكوفي، من أكابر التابعين، ولد في خلافة عمر، سمع من ابن عمر، وولي قضاء الكوفة. كان جواداً سريع الحفظ، جريئاً في الحق توفي سنة ١٠٣ هـ.

قيمة تفسير التابعين:

اختلف العلماء في الأخذ بأقوال التابعين في التفسير، فمنهم من ذهب إلى الأخذ بأقوالهم. ومنهم من لم ير ذلك.

يروى عن أبي حنيفة أنه قال: (ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال).

وهذا القول يدل على أننا غير ملزمين بأخذ أقوال التابعين فهم رجال ونحن رجال ـ كما يقول ابو حنيفة ـ وهذا القول هو الصواب.

أما القول الذي يلزم بالأخذ بما ورد عن التابعين فهو موضع نظر.. نعم اذا اجمع التابعون على رأي فعندئذ يتوجب الأخذ به لأن إجماعهم يدل على وجود نص ملزم والله أعلم.

* * *

ملاحظة:

يبدو في كثير من الروايات في المسألة الواحدة عن الصحابة أو التابعين أو عن صحابي واحد اختلاف أو تعارض.

ولكن التعمق في هذه الأقوال يقنع بأنها غير متناقضة ولا متعارضة وأنها تعود الى أصل واحد، وبينها عموم وخصوص، وكثيراً ما بيّن ابن جرير في تفسيره انها غير متعارضة.

وقد نبه على مثل هذا الاختلاف الموهوم ابن تيمية في رسالته في أصول التفسير [1] ونقله عنه الشيخ طاهر الجزائري بتلخيص جيد [2] فقال:

---

(١) «مقدمة في أصول التفسير» ص ٣٨.

(٢) «توجيه النظر» ص ٢.

(الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد...) وقال ابن كثير: (يقع في عباراتهم -أي التابعين- تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي)[1].

أما إذا لم نستطع التوفيق بينها، فينظر في أسانيدها، فإن وجدت بدرجة من الصحة متقاربة نظر فيها وأخذ ما يكون أقرب لنص الآية والله أعلم.

* * *

(١) «تفسير ابن كثير» ١/٥.

الفصل الرابع

تاريخ التفسير فيما بعد عهد التابعين

هذا الفصل يتناول موضوع تاريخ التفسير خلال اثني عشر قرناً، أي منذ منتصف القرن الثاني الهجري حتى العصر الحاضر، وليس ذلك مما يتسع له وقت الدراسة ولا منهاجها، ومن أجل ذلك، فسنقتصر على ذكر خطوط عريضة في غاية الايجاز.

بعد عصر التابعين قام تابعو التابعين بجمع أقوال الصحابة والتابعين في التفسير التي وصلت اليهم، وغالباً ما كان أبناء القطر يجمعون أقوال من سكن قطرهم من الصحابة والتابعين.

ووجد أناس كانوا يرحلون الى الأقطار المختلفة ليجمعوا ما قيل في التفسير على انه باب من أبواب الحديث، لأن هؤلاء الائمة كانوا علماء في الحديث، ومن الواضح أن الحديث كان يجمع العلوم الاسلامية كلها، وكان التفسير من أهم أبوابه، ويشبه الاستاذ أحمد أمين الحديث من حيث جمعه للعلوم بالفلسفة عند الاقوام الأخرى فيقول:

(وهكذا فمنزلة الحديث بالنسبة للعلوم الدينية كمنزلة الفلسفة للعلوم العقلية كانت الفلسفة شاملة لكل فروع البحث العقلي، ثم أخذ ينفصل عنها علم النفس وعلم الطبيعة وعلم الاجتماع) [1].

---

(١) « ضحى الاسلام » ٢/١٣٨.

* ثم كانت بعد ذلك الخطوة الأخيرة وهي انفصال التفسير عن الحديث، واعتباره علماً قائماً بنفسه، ووضعت التفاسير المستقلة لكل آيات القرآن مرتبة حسب ترتيب المصحف.

* * *

* ثم تأثر التفسير باتجاهات متعددة خلال العصور المختلفة، وسنخص هذه الاتجاهات بباب طويل هو الباب الثالث، وسيكون ذلك بمثابة عرض تاريخي للتأليف في التفسير. ولا بد من أن يتأثر المفسر بالسمات العامة لعصره، فالكتب التي ألفت في القرون الأولى حتى القرن الخامس تغلب عليها الأصالة، بينما كتب المتأخرين يغلب عليها الجمع.

* * *

أما الكتاب الاول في مجال التفسير فهذا ما يزال مجال بحث ودراسة والشيء المؤكد أن القرن الأول ألفت فيه بعض كتب التفسير، ولكننا لا نستطيع الجزم في الاولية في هذا الموضوع، وقد وصل الينا نبأ تأليف تفسير في وقت مبكر، فقد قرأنا في كتب الرجال والتراجم[1] أن عبدالملك ابن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ طلب من سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٤ هـ أو سنة ٩٥ هـ أن يكتب له تفسيراً للقرآن وأن سعيداً هذا قد استجاب وكتب تفسيراً، وقد وجده عطاء بن دينار المتوفى سنة ١٢٦ هـ.

وبناء على هذا الخبر فإننا نستطيع أن نقرر ان كتاباً في تفسير القرآن كان موجوداً قبل سنة ٨٦ هـ ولا يبعد أن يكون هذا الكتاب هو أول كتاب في التفسير، والله أعلم.

* * *

أما القرن الثاني فيبدو انه كان حافلاً بكتب التفسير:

---

(١) «الجرح والتعديل» لابن ابي حاتم ٣/٣٣٢ و«تهذيب التهذيب» ٧/١٩٨.

فابن خلكان[1] يذكر ان عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ هـ كتب تفسيراً للقرآن قدمه للحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ. وأخبار الكتب المؤلفة في هذا القرن مستفيضة.

ولعل من أقدم ما وصل إلينا من كتب التفسير كتاب « معاني القرآن » للفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ. وسنتحدث عنه بشيء من التفصيل فيما بعد، وقد قوبل عمله باستحسان كبير لا سيما من الكوفيين، فقد نقل ابن النديم في « الفهرست »[2] كلمة عن ثعلب يقول فيها:

(كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني أن عمر بن بكير من أصحابه وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل[3]. فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع اليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أمل عليكم كتاباً في القرآن وجعل لهم يوماً. فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد، رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت اليه الفراء فقال له:

اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها، ثم نوفي الكتاب كله. فقرأ الرجل، ويفسر الفراء. فقال ابو العباس ثعلب: لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه).

ويبدو ان كلمة ثعلب إنما تعني الثناء على صنيع الفراء، ولا تعني البدء بكتابة التفسير[4]. يريد أن يقول: لم يسبقه بهذه الاجادة أحد. وتتمة الجملة تؤكد ذلك وهي (ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه).

---

(١) « وفيات الاعيان » ٤٨٦/١ طبع بولاق.

(٢) « الفهرست » ص ١٠٥.

(٣) هو وزير المأمون، وأحد كبار القادة، وهو والد بوران زوجة المأمون، سنة ٢٣٦هـ.

(٤) وقد أخطأ أحمد أمين عندما مال الى هذا الرأي (انظر « ضحى الاسلام » ١٤١/٢).

اذن فقد كانت هناك مؤلفات في التفسير قبل كتاب الفراء، ولكن لم يصل إلينا إلا أنباؤها [1].

* * *

وما زالت كتب التفسير تتوالى، يستفيد المتأخر من الذين سبقوه، ويأتي بجديد في فهم كتاب الله، وتدبر معانيه، حتى جاء ابن جرير الطبري، ووضع تفسيره الذي ضم كثيراً مما في الكتب التي ألفت في التفسير قبله على غالب الظن.

* * *

وهكذا يتبين لنا أن التفسير قدكتب في وقت مبكر، ثم عندما ازدهر التدوين في القرنين الثاني والثالث كانت حركة نشيطة للتأليف في التفسير، وقد وصل إلينا كثير من هذه الآثار.

ودخلت في التفسير شوائب غريبة عنه من الأحاديث الموضوعة، والاسرائيليات.

وكانت على مر العصور غزارة في مؤلفات التفسير، وتنوع في مناهج المفسرين، تبعاً للتنوع في اختصاص كل منهم. وقد حاول كل صاحب فن أن يجعل من تفسير القرآن مجالاً لإظهار براعته في فنه، وأضحى التفسير إطاراً يتبارى فيه المختصون في الشؤون العلمية المختلفة ليصبوا فيه المعلومات التي تتعلق باختصاصهم، فالنحوي يكتب في التفسير فإذا تفسيره كتاب نحو، والفيلسوف يكتب في التفسير فإذا تفسيره كتاب في علم الكلام، والفقيه يكتب في التفسير فيخرج تفسيره كتاباً في الفقه، والبلاغي

---

(١) نشرت مجلة أضواء الشريعة في العدد الخامس أنَّ كتاب تفسير القرآن لسفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ طبع بتحقيق السيد امتياز علي عرشي في رامبور بالهند في مجلد واحد يضمُّ ما وجد من أصول الكتاب من أول القرآن حتى سورة الطور. وفيه فهارس.

يكتب في التفسير فيضحى تفسيره مرجعاً في البلاغة، والمحدث يكتب في التفسير فيكون كتاب تفسيره كتاب حديث... وهكذا.. قال السيوطي: (ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم، فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه، فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته، كالزجاج والواحدي في «البسيط» وأبي حيان في «البحر» و«النهر»؛ والاخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها، والاخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي؛ والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية والجواب من أدلة المخالفين، كالقرطبي، وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام فخر الدين قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة..)[1] وما زال كل ذي موهبة وعلم يسهم في التفسير ويكشف عن شيء جديد من أسرار هذا الكتاب الكريم التي لا تنتهي.

---

(١) «الاتقان» ٢/١٩٠.

الباب الثالث

اتجاهات التفسير

ظهرت اتجاهات متعددة في التفسير. وغرضنا في هذا الباب بحث أهم هذه الاتجاهات ودراسة خصائصها. وسنخصُّ بالذكر والدراسة في كل اتجاه كتاباً هاماً من كتب التفسير يمثل هذا الاتجاه.

وقد أوليت الاتجاه اللغوي شيئاً من العناية مراعاة للمختصين باللغة العربية الذين كتبت لهم بحوث هذا الكتاب.

أما هذه الاتجاهات التي سنفرد كل واحد منها بفصل في هذا الباب فهي الاتجاه اللغوي. والتفسير بالأثر، والتفسير بالرأي، والتفسير العلمي، والتفسير الاصلاحي، وسنشير بعد ذلك في فصل واحد إلى اتجاهات اخرى مثل التفسير الموضوعي والفقهي والاشاري. وليس من شك في أن أهم هذه المدارس التفسيرية مدرستان قامتا منذ وقت مبكر هما مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالرأي.

الفصل الأول

الإتجاه اللغوي في تفسير القرآن

إن هذا الاتجاه من أقدم الاتجاهات التي وجدت في التفسير، كما سنرى من استعراض كتب غريب القرآن وإعرابه. ولتيسير بحثه سنقسمه ثلاثة أقسام، وان كانت هذه الأقسام متداخلة أحيانا:

١ ـ القسم الأول: ما يتعلق بمفردات اللغة: وقد ترك لنا العلماء المتقدمون طائفة من المؤلفات عرفت بكتب غريب القرآن.

٢ ـ القسم الثاني: ما يتعلق بالنحو والقضايا الإعرابية.

٣ ـ القسم الثالث: ما يتعلق بالبلاغة والاساليب البيانية.

ولعل هذا الاتجاه بأقسامه هذه من أهم الاتجاهات التي تعني دارسي العربية في دراستهم للتفسير لاتصالها بدراستهم الاختصاصية.

١ ـ القسم المتعلق بمفردات اللغة أو (كتب غريب القرآن):

في القرآن كلمات غريبة، وهي اما أن يكون معناها غامضاً، لا يفهم إلا بعد بحث وتنقيب وجهد، واما أن يكون معناها معروفاً لدى قوم دون غيرهم، لأنها مستعملة في لغتهم.

ويبدو أن وجود كلمات في القرآن لا يعرف بعض الناس معناها أمر قديم، ففي أخبار الصحابة ما يدل على ذلك، وقد ذكرنا في مبحث

التفسير في عهد النبي ﷺ أن عمر بن الخطاب لم يعرف معنى كلمة (الأب).

قال السيوطي: (فهذه الصحابة وهم العرب العرباء، وأصحاب اللغة الفصحاء، ومن نزل القرآن عليهم بلغتهم، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا شيئاً، فاخرج أبو عبيد في «الفضائل» عن إبراهيم التيمي: أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى: (وفاكهة وأبا)[1] فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟ واخرج عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر)[2].

والكتب التي عالجت إيضاح هذه المفردات دعيت بكتب غريب القرآن.

ويحسن أن نورد قول الخطابي الذي يشرح كلمة الغريب قال أبو سليمان الخطابي:

(الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد عن الفهم، كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل.

والغريب من الكلام يقال به على وجهين:

أحدهما: أن يراد به أنه بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر. والآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها)[3].

والتأليف في غريب القرآن قديم. وأول من يعزى إليه كتاب في غريب

---

(١) سورة عبس: ٣١.

(٢) «الاتقان»: ١/١١٣ وانظر الفصل الأول المتعلق بالتفسير في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم.

(٣) «كشف الظنون»: ٢/١٢٠٣.

القرآن هو الصحابي عبدالله بن عباس. وكانت هناك ـ كما يذكر بروكلمان ـ نسخة من كتابه في برلين قبل الحرب العالمية الثانية، وتدور شكوك عديدة حول صحة نسبته إلى ابن عباس.

ويرى الدكتور حسين نصار[1] ان هذا الكتاب كان يضم بعض الأقوال التي ادلى بها ابن عباس في تفسير الغريب من الفاظ القرآن، وانه لم يكن هو الذي دونها في كتاب، وإنما جمعها بعض رواة هذه الأقوال، ويحتج لرأيه هذا بأن أحداً من مترجمي ابن عباس لم ينسب إليه مثل هذا الكتاب.

وذكر السيوطي في «الاتقان» ما رآه صحيحاً عنه فقال:

(وأولى ما يرجع إليه في ذلك ما يثبت عن ابن عباس واصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالاسانيد الصحيحة الثابتة، وها أنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس عن طريق ابن أبي طلحة خاصة فإنها من أصح الطرق عنه، وعليها اعتمد البخاري مرتباً على السور)[2] ولا يبعد أن يكون أحد العلماء استخرج هذه النقول ووضع لها عنواناً هو (غريب القرآن) لابن عباس.

وألف الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي كتاباً عنوانه: «معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخاري» وأورد فيه ما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة خاصة، وطبعه سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م).

وتذكر المصادر ان من العلماء المتقدمين الذين ألفوا في هذا الموضوع أبان بن تغلب البكري المتوفى سنة ١٤١ هـ الذي دون كتاباً في غريب القرآن، وذكر ياقوت في «معجم الأدباء»[3] أن أبان كان يذكر في كتابه

---

(١) «المعجم العربي»: ١/٤٤.
(٢) «الاتقان» ١/١١٤.
(٣) «معجم الادباء» ١/١٠٨.

شواهد من الشعر، فجاء فيما بعد عبد الرحمن بن محمد الأزدي، فجمع من كتاب أبان ومحمد بن السائب وأبي روق عطية بن الحارث فجعله كتاباً ذكر ما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه.

وسنذكر فيما يلي اسماء نفر من العلماء المتقدمين الذين ألفوا في غريب القرآن:

* منهم محمد بن السائب الكلبي الكوفي المتوفى سنة ١٤٦ هـ.
* ومنهم أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي البصري المتوفى سنة ١٧٤هـ أو ١٩٠هـ
* ومنهم علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٢ هـ.
* ومنهم يحيى بن المبارك اليزيدي المتوفى سنة ٢٠٢ هـ.
* ومنهم النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٣ هـ.
* ومنهم قطرب محمد بن المستنير المتوفى سنة ٢٠٦ هـ.
* ومنهم يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ.
* ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ.
* ومنهم الاخفش الأوسط سعيد بن مسعده المتوفى سنة ٢١٦هـ.
* ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣هـ، وكتاب أبي عبيد صار هو القدوة في هذا الشأن.

وجاء بعد أبي عبيد محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وثعلب أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ هـ وألف كل منهم كتاباً في «غريب القرآن» وقد فقدت معظم هذه الكتب وسلم لنا كتاب ابن قتيبة الذي سنخصه بشيء من الحديث فيما يأتي:

غريب القرآن لابن قتيبة:

وابن قتيبة هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة. ولد في الكوفة سنة ٢١٣ هـ ثم سكن بغداد، وعدّه العلماء امام مدرسة بغداد النحوية، ترك

مؤلفات كثيرة قيمة، من أهمها «عيون الأخبار»، و«أدب الكاتب». توفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ وكتابه من أهم كتب الغريب.

ـ ذكر في المقدمة انه قصر بحثه على غريب القرآن (دون تأويل مشكله إذ كنا قد أفردنا للمشكل كتاباً جامعاً كافياً بحمد الله).

ـ وأشار في هذه المقدمة إلى مراجعه وخطته بإزائها، وذلك في قوله: (وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين، وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذهبهم، ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة، وأشبهها بقصة الآية، ونبذنا منكر التأويل ومنحول التفسير).

ـ ثم ذكر غرضه الذي امتثله في هذا الكتاب، ومنهجه في تأليفه فقال: (وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا أن نختصر ونكمل، وان نوضح ونجمل، وان لا نستشهد على اللفظ المبتذل، ولا نكثر الدلالة على الحرف المستعمل، وأن لا نحشو كتابنا بالنحو والحديث والأسانيد، فإنا لو فعلنا ذلك في نقل الحديث لاحتجنا إلى أن نأتي بتفسير السلف رحمة الله عليهم بعينه، ولو أتينا بتلك الألفاظ كان كتابنا كسائر الكتب التي ألفها نقلة الحديث)[1] ثم يقرر أنه لو نقل أقوالهم واختار منها أصحها في نظره. وأقام الدلائل عليه لأسهب في القول، وأطال الكتاب، وباعده من بغية المتأدب.

ـ وأورد في المقدمة نبذة عن التأويل المنكر والتفسير المنحول.

ـ أما كتابه فثلاثة أقسام:

١ ـ ذكر في القسم الأول منها أسماء الله الحسنى، وتأويلها واشتقاقها، وقد استغرق هذا القسم من صفحة ٦ حتى صفحة ٢٠. وقد ذكر ستة

(١) مقدمة «غريب القرآن» ص ٣.

وعشرين لفظاً تتصل باسماء الله الحسنى من أمثال (الرحمن، الرحيم، السلام، القيوم...).

٢ ـ وذكر في القسم الثاني ألفاظاً كثر تردادها في القرآن الكريم، وفسرها، وقد استغرق هذا القسم من صفحة ٢١ حتى صفحة ٣٧، وقد ذكر أربعين لفظاً من أمثال (الجن، الناس، ابليس.. الأنفس).

٣ ـ والقسم الثالث هو الغريب في القرآن. وهو يشكل معظم الكتاب، ويستغرق من صفحة ٣٧ حتى ٥٤٤ وهي نهاية الكتاب.

وقد جعل الغريب أقساماً وفقا للسور مرتبة على ترتيبها في المصحف.

ـ ومن الملاحظ ان ابن قتيبة اعتمد على كتابين من كتب القرآن المؤلفة قبله وهما: (كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، وكتاب «معاني القرآن» للفراء) اعتمد عليهما أكبر اعتماد، حتى أنه في بعض المواطن كان ينقل لفظهما نفسه، ولم يكن مجرد ناقل لا شخصية له، بل انك لتحس بشخصيته واضحة، وقد ينتقد من نقل عنه.

ـ وقد كان لهذا الكتاب أثر في الذين ألفوا في التفسير والغريب من بعد.

ـ طبع هذا الكتاب أكثر من مرة. وطبع في مطبعة البابي الحلبي طبعة جيدة بتحقيق السيد أحمد صقر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٩٥٨ م. وعلى الكتاب تعليقات جيدة ووضع له فهارس نافعة. وهذه الطبعة هي التي اعتمدت عليها في هذه الالمامة.

* * *

غريب القرآن للسجستاني:

والسجستاني هو أبوبكر محمد بن عُزَيْز السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠هـ

١ ـ وكتابه غريب القرآن يسمى أيضاً «نزهة القلوب».

٢ ـ قال السيوطي في هذا الكتاب: (ومن اشهرها كتاب العزيزي، فقد أقام في تأليفه خمس عشرة سنة، يحرره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري)[1] وذكر أبو البركات الأنباري: (أن السجستاني صنف كتابه في خمس عشرة سنة وكان يقرؤه على شيخه أبي بكر بن الأنباري فكان يصلح له فيه مواضع)[2].

٣ ـ مقدمته موجزة جداً، وهي بعد الحمدلة: (وبعد فهذا تفسير غريب القرآن ألف على حروف المعجم، ليقرب تناوله، ويسهل حفظه على من أراده، وبالله التوفيق والعون).

٤ ـ رتبه على حروف المعجم، ولم يرجع الكلمة الى أصل مادتها، وإنما راعى نطقها مراعاة تامة، ولم يفصل بين الزائد والأصلي، فمثلاً كلمة (أثقال) في باب الهمزة لا في باب الثاء.

٥ ـ قسم كل حرف من الحروف إلى ثلاثة أبواب: فمثلاً حرف الباء نجد فيه الأبواب الثلاثة الآتية:

(باب الباء المفتوحة) (باب الباء المضمومة) (باب الباء المكسورة).

٦ ـ الكلمات في الباب لا يراعي فيها ترتيب الحروف بعد الحرف الأول، بل يراعي ورودها في المصحف وفي السور.

٧ ـ يستشهد المؤلف بأبيات من الشعر المحتج به.

٨ ـ يغلب على شرحه للألفاظ الغريبة الإيجاز، وقد يقتصر في شرحه على كلمة واحدة.

٩ ـ اعجب به الباحثون وأثنوا على مؤلفه وقرروا أنه أجاد، وقد شرح شواهده أبو العباس أحمد بن عبد الجليل التُدْميري[3] المتوفى سنة ٥٥٥ هـ.

---

(١) «الاتقان» ١/١١٣ وانظر «بغية الوعاة» ص ٧٣.

(٢) «نزهة الألباء» ص ٣٨٦.

(٣) التدميري نسبة إلى تدمير بضم التاء، وهي بلدة في شرق قرطبة. انظر ترجمته في «الاعلام».

طبع هذا الكتاب أكثر من مرة: طبعه الأستاذ مصطفى عناني، وطبعه أيضاً محمد علي صبيح. ثم رأيت طبعة أصدرتها دار التراث في القاهرة بعنوان «تفسير غريب القرآن» ليس فيها مقدمة الطبع ولا اسم المحقق ولا تاريخ الطبع، وقد رتبت المفردات على سور القرآن حسب ترتيب المصحف. وقد يكون أقدم رجل على ترتيب الكتاب ترتيباً أقرب للتناول، ولكنَّ هذا العمل لا يجوز في كتب السابقين مع بقاء نسبتها إلى أصحابها.

* * *

المفردات في غريب القرآن:

ويمثل هذا الكتاب الذروة في التأليف في الغريب.

ومؤلفه هو أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصبهاني من رجال القرن الخامس والمتوفى سنة ٥٠٢ هـ كما رجح الزركلي في «الاعلام»[١] ترك مؤلفات عديدة منها «جامع التفاسير» و«حل متشابه القرآن» و«محاضرات الأدباء»[٢].

وكتابه من أهم كتب الغريب وأنفعها، وسنحاول التعريف به فيما يأتي:

- يبدو من مقدمته أن للمؤلف اشتغالا بالدراسات القرآنية، فقد ذكر فيها بعض رسائله عن القرآن.

- ذكر في المقدمة منهج كتابه فقال:

(وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوفى، فيه مفردات الفاظ القرآن على حروف التهجي، فنقدم ما أوله الألف، ثم الباء، على ترتيب حروف المعجم، معتبراً فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزائد، والإشارة

---

(١) أورد الزركلي في الهامش أقوالا عدة في وفاته ويبدو أن حياته يكتنفها غير قليل من الغموض فقد اختلف في اسمه أيضا. (أنظر «الاعلام» ٢/٢٧٩).

(٢) وقد طبع أكثر من مرة.

فيه إلى المناسبات التي بين الألفاظ، المستعارات منها والمشتقات، حسبما يحتمل التوسع في هذا الكتاب)[1].

- أشار في المقدمة إلى أهمية معرفة مفردات القرآن لإدراك معاني الكتاب الكريم فقال:

(إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات القرآن.. لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللبن في بناء ما يريد أن يبنيه. وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع. فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم)[2].

- راعى في كتابه هذه المشتقات، وتعد من أبرز خصائص هذا الكتاب النفيس هذه المراعاة التي بدت بوضوح في الكتاب كله.

وقد يورد الاشتقاق الكبير أحياناً، فمثلاً في مادة (فكر) قال:

(قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها، طلباً للوصول إلى حقيقتها).

- راعى أيضاً دوران اللفظ في الآيات المختلفة، وهذه خاصة ممتازة، ذلك لأن للقرآن الكريم في استخدام ألفاظ اللغة العربية طريقة خاصة فتتبع المفردة في القرآن كله يساعد مساعدة تامة على فهم الكلمة فهماً سليماً صحيحاً[3].

---

(١) «المفردات» ص ٤ طبعة المطبعة الميمنية.

(٢) «المفردات» ص ٣ طبعة المطبعة الميمنية.

(٣) انظر «التفسير البياني» لبنت الشاطىء ١/١٤ و«دراسات في التفسير» لمصطفى زيد صفحة (ص).

التزم ايراد ما يؤخذ من اللفظ من مجاز وتشبيه.

لم يورد في أقواله التي يسوقها أسماء لغويين ولا مفسرين إلا نادراً، رغبة في الإيجاز.

- كتابه أشبه ما يكون بمعجم كامل للألفاظ القرآنية، وليس مقتصراً على الغريب فقط. فهو يتناول معظم مفردات القرآن لا تكاد تفوته كلمة.

- ومن أهم خصائص هذا الكتاب أنه يورد الفروق بين المعاني الدقيقة التي يظنها كثير من الناس سواء. فهو مثلاً يفرق بين الحمد والشكر والمدح(١)، فقد قرر أن الحمد لله تعالى يعني الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخص من المدح، وأعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الانسان باختياره، وفيما يكون في الانسان بالتسخير، فقد يمدح الانسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه. والحمد يكون في الثاني دون الأول. والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة. فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً. وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً(٢).

- اهتم بالإتيان بشواهد من الحديث الشريف والشعر. اما استشهاده بالشعر فلبيان المعنى للكلمة، لا للدلالة على أن الكلمة عربية، فقد ذكر في مادة (فلح) مثلا أن الفلاح الدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز، وإياه قصد الشاعر بقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك بالضـ ـعف وقد يخدع الأريب

- طبع هذا الكتاب عدة طبعات في مصر: ففي سنة ١٣٢٤ هـ طبع بالمطبعة الميمنية على نفقة مصطفى البابي الحلبي، وطبع على هامش «النهاية» في المطبعة الخيرية للسيد عمر الخشاب، وأعيد طبعه مؤخرا بتحقيق الأستاذ محمد سيد كيلاني.

* * *

(١) انظر ذلك في مادة «حمد».

(٢) انظر تفريق ابن تيمية بين الكلمتين في «مجموع الفتاوى» ١١/١٣٣.

وفي ختام حديثنا عن القسم المتعلق بالمفردات نود أن نشير إلى « معجم ألفاظ القرآن» الذي أصدره مجمع اللغة العربية بمصر ويقع في مجلدين كبيرين عدد صفحات الأول منها ٦٤١ وعدد صفحات الثاني ٩١٨ صفحة وقد ذكر ـ في التمهيد الذي صُدِّرَ به الجزءُ الأول ـ أنَّ هذا الكتاب كان نتيجة لاقتراح الدكتور محمد حسين هيكل وذلك في ٦ من شهر المحرم سنة ١٣٦٠ هـ (الموافق ١٩٤١/٢/٢ م) وقد عمل على إنجاز هذا المعجم عدد من أهل العلم بلغوا كما جاء في التمهيد تسعة عشر رجلاً.

فقد شُكِّلَت لجنة لتأليف هذا الكتاب، وما زالت تنمو هذه اللجنة حتى أصبحت في سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) مكونة من أعضاء المجمع:

الشيخ إبراهيم حمروش، والأستاذ إبراهيم مصطفى، والشيخ عبد الوهاب خلاّف، والأستاذ علي عبد الرازق، والدكتور محمد حسين هيكل، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد القادر المغربي (عند حضوره إلى مصر).

ومن قبل شارك في العمل بوضع المبادىء أو النماذج أو الإعداد أعضاء المجمع: هـ. أ. ر. جب، والشيخ أحمد إبراهيم، والأستاذ علي الجارم، والشيخ مصطفى عبد الرازق. وقسمت موادُّ القرآن الكريم على لجان فرعية، كل لجنة منها مكونة من عضو من أعضاء المجمع وأستاذ منتدب من غير أعضائه مساعداً لعضو المجمع. وكان الأساتذة المساعدون هم:

الدكتور سيد نوفل، والأستاذ عبد المنعم محمد خلاّف، والشيخ علي حسب الله، والشيخ محمد الزفزاف، والشيخ محمد علي النجار، والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، والشيخ محمد المدني.

والطريقة التي انتهى اليها المجمع للسير عليها بوضع المعجم:

أولاً: إذا كانت الكلمة القرآنية ترد في القرآن بمعنى واحد:

أ ـ تشرح الكلمة شرحاً لغوياً أولاً.

فإن كانت فعلاً مجرداً ذكر بابه ومصدره ومشتقاته إن كان لهذه المشتقات ورود في القرآن الكريم.

وإن كانت فعلاً مزيداً ذكر معناه، ثم ذكرت مشتقاته على النحو السابق.

وإن كانت اسماً اكتفي بمعناه.

وإن كانت مصدراً ذكر معناه وفعله.

ب ـ يبين أنَّ الكلمة وردت في القرآن الكريم في كذا موضعاً، وأنها جاءت في كل هذه المواضع بالمعنى الذي ذكر آنفاً.

ثانياً: إذا كانت للكلمة القرآنية معان لغوية مختلفة:

أ ـ ينصُّ على المعاني اللغوية كلها، ويبيّن نوع الفعل والمصدر، وتذكر المشتقات التي وردت من هذه المادَّة.

ب ـ يؤخذ أولاً أكثر المعاني دوَراناً في القرآن الكريم، وينصُّ على أنَّ الكلمة وردت بهذا المعنى في كذا وكذا موضعاً. ويذكر مثالان من الآيات مع اسم السورة ورقم الآية. ثم يكتفى بعد ذلك بما جاء من هذا المعنى بذكر السورة ورقم الآية.

ج ـ تذكر المعاني الأخرى معنىً بعد آخر.

ويذكر بعد كل معنى عدد الآيات التي جاءت فيها الكلمة بهذا المعنى.

ويكتفى بمثال، ثم تذكر السور وأرقام الآيات الأخرى.

ثالثاً: قد يسهل أحياناً ـ إذا كان للكلمة أكثر من معنى ـ أن يبدأ بالمعاني التي وردت في قليل من الآيات، ثم يذكر المعنى الذي ورد به كثير من الآيات، ويقال: ما عدا ذلك فهو بمعنى كذا في باقي الآيات.

رابعاً: إذا كان للكلمة معنى لغوي واحد ولكنها استعملت في القرآن الكريم بألوان مختلفة بسبب المجاز أو نحوه نُصَّ على المعنى اللغوي البحت،

وقيل: إنها تستعمل أو قد ترد بمعنى كذا، ثم تذكر الآيات وأرقامها على النحو السابق.

على ضوء هذه الخطة سارت اللجنة في وضع المعجم بعد أن رتبت ألفاظ القرآن حسب حروف الهجاء مسترشدة بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

هذا وقد اعتمدت على الطبعة الثانية لهذا الكتاب التي اصدرتها الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر في سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م).

* * *

٢ ـ القسم المتعلق بالنحو والقضايا الاعرابية:

كان التأليف في التفسير من زاوية النحو يساير التأليف في غريب القرآن الذي تقدم ذكره. ويبدو أن معظم العلماء الذين غلب عليهم الاشتغال بالنحو كانوا يضعون تفسيرا للقرآن الكريم، لأن هذا الكتاب الكريم مدار بحثهم، وعليه يعتمدون في تأييد القواعد، فلا بد لهم من فهم آياته، وتفسيرها، وعرض وجهات نظرهم الاختصاصية خلال ذلك.

ومن أشهر من كتب في ذلك الإمام النحوي الكبير الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد المتوفى سنة ٢٨٦ هـ، وثعلب أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ هـ، ويحيى بن علي التبريزي المتوفى سنة ٥٠٨ هـ، وعبد الرحمن بن محمد أبو البركات الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وغيرهم.

ونستطيع أن نصنف الكتب التي درست القرآن من وجهة النظر النحوية في زمرتين:

١ ـ كتب فسرت القرآن أو المشكل منه، وعنيت بالنحو. وسندرس كتابين من هذه الزمرة هما «معاني القرآن» و«البحر المحيط».

٢ ـ كتب عرفت بكتب إعراب القرآن وهي كثيرة، عرض لطائفة جيدة منها صاحب «كشف الظنون»، والسيوطي في «الإتقان». وسندرس بعضها بعد قليل:

١ ـ من أقدم الكتب التي وصلت إلينا من كتب الزمرة الأولى ـ أي كتب التفسير المهتمة بالنحو ـ كتاب «معاني القرآن» للفراء الذي سنتحدث عنه فيما يلي:

كتاب «معاني القرآن» للفراء:

يذكرنا هذا الكتاب بكتب المعاني التي نجدها في جوانب الثقافة الإسلامية، فهناك كتب المعاني في الأبيات الشهيرة مثل «كتاب المعاني» لابن قتيبة. وهناك كتب المعاني في مشكل الحديث مثل كتاب «معاني الآثار» للطحاوي. وهناك كتب المعاني في القرآن مثل كتابنا الذي نحن بصدد دراسته الآن.

قال ابن الصلاح:

(وحيث رأيت في كتب التفسير (قال أهل المعاني) فالمراد به مصنفو الكتب في معنى القرآن كالزجاج، والفراء، والأخفش، وابن الأنباري)[١].

إذن فهناك عدد كبير من العلماء الاعلام قد ألفوا في معاني القرآن ومن أبرزهم هؤلاء الذين ذكرهم ابن الصلاح.

وربما كانت كتب المعاني هي النواة الأولى في التفسير، والفرق بينها وبين كتب التفسير: ان كتب المعاني كانت تختار بعض الآيات لتجلو معناها. أما كتب التفسير فكانت تحاول ألا تترك شيئاً من القرآن دون أن تشرحه.

---

(١) «الاتقان» ١/١١٣.

أما أول من صنف في معاني القرآن فيذكر الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» أنه أبو عبيدة معمر بن المثنى، ثم قطرب بن المستنير [1]، وأول من صنف من الكوفيين الكسائي ثم الفراء. فجمع أبو عبيد من كتبهم وجاء فيها بالآثار واسانيدها وتفاسير الصحابة والتابعين والفقهاء [2].

الفراء: أما الفراء فهو أبو زكريا، يحي بن زياد الفراء الديلمي، من موالي بني اسد. أخذ عن الكسائي، وكان إماما ثقة ذا حظوة عند المأمون، وقد عهد إليه بتعليم ابنيه النحو. واقترح عليه أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية، وأمر أن تفرد له حجرة من الدار، ووكل بها خدماً للقيام بما يحتاج إليه، وعين له نفراً من الوراقين، يكتبون ما يمليه حتى صنف كتاب «الحدود» في سنتين، ثم خرج للناس، وأملى كتاب «المعاني» وقد تقدم ذكر سبب إملائه [3]، وهو ورود كتاب من أحد أصحابه، وهو عمر بن بكير، يطلب إليه كتابة تفسير للقرآن حتى يعتمده في الإجابة عندما يسأل [4]. توفي الفراء سنة ٢٠٧ هـ.

أما كتاب «معاني القرآن» فنستطيع تسجيل الملاحظات الآتية حوله:

١ ـ معاني القرآن هذا هو العنوان الشائع بين المشتغلين بالعلم، أما الفراء فقد ذكر العنوان في مقدمة كتابه كما يأتي:

«تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه».

---

(١) هو محمد بن المستنير. وقطرب لقبه.

(٢) «تاريخ بغداد». ١٢/٤٠٥ وأبو عبيد هو القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ.

(٣) انظر ص ٢١٤ وذلك عند كلامنا على تاريخ التفسير فيما بعد عهد التابعين.

(٤) «الفهرست» لابن النديم ص ١٠٥ وانظر «معجم الأدباء» ١٢/٢٠ وانظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» و «البداية والنهاية» ٢٦١/١٠ و «تهذيب التهذيب» ٢١٢/١١ و «غاية النهاية» ٣٧١/٢ و «نزهة الألباء» ٨١ و «بغية الوعاة» ٤١١ و «تاريخ بغداد» ١٤٩/١٤ و «شذرات الذهب» ١٩/٢ وانظر أيضاً في ترجمته فصلاً وافياً كتبه رمضان عبد التواب في مقدمته لكتاب الفراء «المذكر والمؤنث» الذي حققه ونشره سنة ١٩٧٥ وقد استقصى هناك ذكر كتبه.

وهذا العنوان بهذه الصيغة يلقي ضوءاً ساطعاً على واقع الكتاب، فالإعراب - ولاسيما المشكل - هو هم المؤلف الأول، ليس معنى هذا خلو الكتاب من شرح المعنى، بل إن تفسير المعنى مقصد سعى إليه المؤلف، كما يدل على ذلك العنوان، غير أنه لا يشكل حيزاً كبيراً إذا قيس بالإعراب والقضايا النحوية.

٢ - يدل الكتاب على الثقافة النحوية الواسعة، التي كان يتمتع بها المؤلف كما يدل على معرفته الممتازة بلهجات الأعراب ولغاتهم.

٣ - يدل الكتاب على ان مؤلفه من القراء العارفين المتقنين.

٤ - يدل الكتاب على المنهج الذي كانت تنتهجه مدرسة الكوفة النحوية في بحثها لقضايا النحو وفي التأليف. ولا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو المرجع الكبير الذي ضم آراء هذه المدرسة بقلم أحد أئمتها.

ونستطيع الآن بعد أن نشر وطبع أن نتعرف على آراء الكوفيين من خلاله، وكنا قبل ظهوره نتعرف على آرائهم من خلال كتب خصومهم البصريين. وقد أحدث نشره تغييراً كبيراً في نظرتنا للنحو الكوفي.

٥ - قد يُعنى المؤلف بالنواحي الاملائية. والمثل على ذلك بحثه في كتابه (باسم ربك) و (بسم الله) فقرر أنّ كلمة (اسم) إذا جاءت مع لفظة الرب أثبتت الفها، وإذا جاءت مع لفظ الجلالة حذفت الألف ويعلل كتابتها في موضع وحذفها في الموضع الآخر [١].

٦ - يحظى الاعراب بالقدر الأوفى من العناية عند المؤلف، وهو لا يكتفي بتقرير الاعراب على الوجه الذي وردت عليه الآية، وإنما يجاوز ذلك إلى توجيه أقوال الاعراب البداة وتخريجها وفقاً لقواعد العربية، بل انه يذكر أحياناً قراءات القراء واجماعهم، ولكنه جرياً وراء الرغبة في

(١) «معاني القرآن» ١/٢ و ٣٣٧.

الاعراب يقلب الآية على الوجوه التي يحتملها الاعراب[1].

٧ ـ يأتي المؤلف بالنكت البيانية فيشرحها مستدلا عليها بما روي عن العرب من الاشعار، (انظر تفسيره لقوله تعالى: فما ربحت تجارتهم)[2].

طبع هذا الكتاب في دار الكتب المصرية لأول مرة، وقد تم الجزء الأول منه سنة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م وقد حققه الاستاذان أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار وقد ردا الآيات التي استشهد بها المؤلف الى مواضعها في المصحف كما نسبا الشواهد إلى أصحابها، وشرحا المصطلحات النحوية الخاصة بمدرسة الكوفة، ووضعا فهرساً تفصيلياً نافعاً.

وطبع الجزء الثاني بتحقيق محمد علي النجار سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) والجزء الثالث بتحقيق عبد الفتاح شلبي وعلي النجدي سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م).

وتم الكتاب طباعة وتحقيقاً، وهو من أنفس كتب التفسير والنحو.

* * *

تفسير «البحر المحيط» لأبي حيان:

أبو حيان هو أثير الدين، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الجياني. ولد في الأندلس سنة ٦٥٤ هـ، وتلقى العلوم العربية عن أكابر رجالها في الأندلس وافريقية. وكان يكثر نظم الأشعار والموشحات[3]. ثم قدم الاسكندرية، فقرأ القراءات، وكان يعظم سيبويه جداً، وكان بينه وبين ابن تيمية ود، وقد مدحه بقصيدة ثم انحرف عنه ونال منه، وقيل: إن سبب ذلك انه بحث معه في العربية، فخالف ابن تيمية سيبويه، وذكر ان له أخطاء، فكان ذلك سبب انحراف ابي حيان عنه.

---

(١) «معاني القرآن» ١/١٧.

(٢) «معاني القرآن» ١/١٤.

(٣) نشرت خديجة الحديثي وأحمد مطلوب ديوانه سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م ببغداد.

كان ثبتاً فيما ينقله، عارفاً باللغة، أما النحو والتصريف فهو الامام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتى صار لا يذكر في أقطار الأرض فيهما غيره. كان ظاهرياً ثم تحول إلى مذهب الشافعي، وكان من كبار العلماء بالتفسير والحديث والتراجم واللغات [١]. وتوفي سنة ٧٤٥ هـ.

أما تفسيره « البحر المحيط » فسنورد عنه الملاحظات الآتية:

١ ـ هذا التفسير كبير يقع في ٨ مجلدات كبار.

٢ ـ يكثر أبو حيان فيه من التعرض للمسائل النحوية ويتوسع في ذكر الخلاف بين النحويين وفي إعراب الكلمات.

٣ ـ يتكلم عن المعاني اللغوية للمفردات أولاً. وإذا كان للكلمة معنيان أو معان شرح ذلك في أول موضع ترد فيه الكلمة.

٤ ـ يذكر القراءات الواردة في الآية، ويوجهها نحوياً، ويذكر الشاذ والمستعمل.

٥ ـ يعنى بالناحية البلاغية بياناً وبديعاً.

٦ ـ يحيل على المصادر التي نقل منها قضايا الإعراب والاحكام الفقهية. وقد أحصى في مقدمته المصادر الكثيرة التي استقى منها محتوى الكتاب وتتصل بعلوم كثيرة، وأورد سبعة وجوه يكون تفسير كتاب الله عليها [٢].

---

(١) أنظر ترجمته في « نفح الطيب » للمقري ٢٨٩/٣ ـ ٣٤١ و « بغية الوعاة » للسيوطي ص ١٢١ و « الرد الوافر » لابن ناصر الدين الدمشقي ص ٦٢ و « الطبقات للسبكي » ٢٧٦/٩ و « الوافي بالوفيات » ٢٦٧/٥ و « نكت الهميان » ٢٨٠ و « الدرر الكامنة » ٧٠/٥ و « شذرات الذهب » ١٤٥/٦ و « البدر الطالع » ٢٨٨/٢ و « حسن المحاضرة » ٥٣٤/١ و « ذيول تذكرة الحفاظ » ٢٣ و « طبقات القراء » لابن الجزري ٢٨٥/٢ و « طبقات المفسرين » للداودي ٢٨٦/٢ و « فوات الوفيات » ٥٥٥/٢ وانظر في ترجمة أبي حيان وتفسيره مقالاً قيماً لمحمد عبد الخالق عضيمة في مجلة كلية اللغة بالرياض العدد السابع سنة ١٣٩٧.

(٢) انظر « البحر المحيط » ٦/١ ـ ٧.

٧ ـ يذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وارتباط الآية بما قبلها وما بعدها.

٨ ـ يتحدث عن الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، فينقل أقوال الفقهاء من الأئمة الأربعة وغيرهم.

٩ ـ يذكر ما جاء في كلام المتقدمين من السلف والخلف.

١٠ ـ يتبع آخر الآيات بكلام منثور يشرح به مضمون تلك الآيات على ما يختاره من تلك المعاني.

١١ ـ ربما ألم بشيء من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ. يقول في المقدمة: (وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة الى هذيان افتروه على الله وعلى علي رضي الله عنه وعلى ذريته ويسمونه علم التأويل)[١].

١٢ ـ ينقل أبو حيان من تفسير الزمخشري كثيراً، ومن تفسير ابن عطية أيضاً، ويتعقبها في آرائهما النحوية، ومن الجدير بالذكر ان أبا حيان يقف من الزمخشري مواقف عنيفة، ويسخر منه سخرية شديدة، من أجل آرائه الاعتزالية وإن كان يثني على مقدرته في الناحية البلاغية.

وقد طبع هذا الكتاب واعيد تصويره بعد حين وما يزال بحاجة إلى من يحققه وينشره نشراً حديثاً.

* * *

٢ ـ كتب إعراب القرآن:

هذه الكتب كثيرة كثرة تستلفت النظر حتى قال السيوطي[٢]:

---

(١) «البحر المحيط» ١/٥.

(٢) «الاتقان» ١/١٧٩.

(أفرده بالتصنيف خلائق. منهم مكي[1] وكتابه في المشكل خاصة، والحوفي[2] وهو أوضحها، وأبو البقاء العكبري[3] وهو أشهرها، والسمين[4] وهو أجلها على ما فيه من حشو وتطويل[5] ولخصه السفاقسي)[6].

وهناك كتب كثيرة في هذا الموضوع لمؤلفين قدامى ومتأخرين من أشهرها:

١ ـ كتاب «إعراب القرآن» للزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ وطبعه بهذا الاسم الاستاذ الأبياري[7] في ثلاثة مجلدات. وذكره ابن النديم في «الفهرست»[8] بعنوان «معاني القرآن».

٢ ـ كتاب «إعراب ثلاثين سورة من القرآن» لابن خالويه النحوي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ، واسمه الحسين بن أحمد. وقد نشرته دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م).

---

(١) هو مكي بن حموش (٣٥٥ ـ ٤٣٧ هـ) الاندلسي، مقرىء عالم بالتفسير والعربية من أهل القيروان سكن قرطبة وتوفي فيها له كتاب «مشكل إعراب القرآن».

(٢) هو علي بن إبراهيم الحوفي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ. نحوي عالم باللغة والتفسير.

(٣) هو عبدالله بن الحسين (٥٣٨ ـ ٦١٦ هـ) عالم بالأدب واللغة والحساب، أصله من عكبرة بليدة على دجلة. ولد وتوفي ببغداد، وعمي في صباه وسنتحدث عن كتابه.

(٤) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، مفسر عالم بالعربية والقراءات، شافعي من أهل حلب، استقر في القاهرة، وتوفي سنة ٧٥٦ هـ.

(٥) وقد تعقب حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» ١/١٢٢ السيوطي فقال: (انه أجل ما صنف فيه، لأنه جمع العلوم الخمسة: الإعراب والتصريف واللغة والمعاني والبيان، وأما قول السيوطي فيه: (هو مشتمل على حشو وتطويل لخصه السفاقسي فجوده) فوهم منه، لأن السفاقسي ما لخص إعرابه منه، بل من «البحر».. والسمين لخصه أيضاً من «البحر» في حياة شيخه أبي حيان وناقشه فيه كثيراً).

(٦) هو إبراهيم بن محمد السفاقسي ولد سنة ٦٩٧ هـ أخذ عن أبي حيان بالقاهرة وقدم دمشق فسمع من المزي وتوفي سنة ٧٤٢ هـ.

(٧) وقد كتب صديقنا أحمد راتب النفاخ مقالين قيمين حول هذه الطبعة في مجلة مجمع دمشق ج ٤ م ٤٨ و ج ١ م ٤٩.

(٨) «الفهرست» ص ٩٦.

٣ ـ « التبيان في اعراب القرآن المجيد »[١] لأبي البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ. وهو كتاب من أشهر كتب إعراب القرآن، غير ان أبا حيان كان يتعقب أبا البقاء في كثير من مواضع تفسيره « البحر ».

وقد طبع مرات عديدة وطبع مؤخراً طبعة حديثة.

٤ ـ « المجيد في إعراب القرآن المجيد » للسفاقسي المتوفى سنة ٧٤٢هـ. وكتابه أحسن من الكتاب السابق، وهو كما يقول صاحب « كشف الظنون » في مجلدات. وقد ذكر في هذا الكتاب شيخه أبا حيان وكتابه « البحر »، ومدحه كثيراً غير أنه قال فيه: (لكنه سلك سبيل المفسرين في الجمع بين التفسير والاعراب فتفرق فيه المقصود)[٢] فاستخار الله في تلخيصه، وجمع ما بقي في كتاب أبي البقاء من إعرابه لكونه كتاباً قد عكف الناس عليه، فضمه إليه بعلامة الميم. وأورد ما كان له بعد كلمة: (قلت).

* * *

القواعد التي على معرب القرآن أن يراعيها:

يجب على معرب القرآن مراعاة ما يأتي:

١ ـ أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه، مفرداً أو مركباً قبل الإعراب. وقد قرّر ابن هشام[٣] أنه قد زلّت أقدام كثير من المعربين راعوا في الإعراب ظاهر اللفظ ولم ينظروا في موجب المعنى من ذلك قوله تعالى: ﴿أصلاتك تأمرك أنْ نترك ما يعبدُ آباؤنا أو أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء﴾[٤] فانه يتبادر إلى الذهن عطف (أن نفعل) على (أن نترك)، وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، وإنما هو

---

(١) وهو « إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ».

(٢) انظر « كشف الظنون » ٢/١٦٠٧.

(٣) « مغني اللبيب » ٢/٥٢٧ ـ ٥٢٩.

(٤) سورة هود: ٨٧.

عطف على (ما) فهو معمول للترك. والمعنى: أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء.

٢ ـ أن يراعي ما تقتضيه الصناعة وأن يكون ملماً إلماماً جيداً بقواعد النحو والصرف والأسلوب الأفضل عند العرب.

٣ ـ أن يتجنب الأمور البعيدة، والاوجه الضعيفة، واللغات الشاذة، ويخرج على القوي والقريب والفصيح.

٤ ـ أن يراعي الرسم، ومن ثم خُطِّيء من قال في (سلسبيلا) الواردة في قوله تعالى: ﴿ويُسْقَوْنَ فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً. عَيْناً فيها تُسمَّى سلسبيلاً﴾ (١): إنها جملة أمرية، أي سل طريقاً.

٥ ـ أن يتأمل عند ورود المشتبهات، ومن ثم خُطِّيءَ من قال في ﴿أحْصَى لِمَا لَبِثُوا أمداً﴾ (٢): إنه أفعل تفضيل، والمنصوب تمييز، وهو باطل. فإن الأمد ليس محصياً بل يحصى.

وشرط التمييز المنصوب بعد (أفعل) كونه فاعلاً في المعنى. فالصواب في اعراب الآية أن (أحصى) فعل. وأن (أمداً) مفعول. مثل: ﴿وأحْصَى كلَّ شَيْءٍ عَدَدَاً﴾ (٣).

٦ ـ ان لا يخرج على خلاف الأصل أو خلاف الظاهر بغير مقتض.

ـ أن يبحث عن الأصلي والزائد.

٨ ـ أن يجتنب اطلاق لفظ (الزائد) في كتاب الله، فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له. وكتاب الله منزه عن ذلك، ولذا فر بعضهم إلى

(١) الانسان: ١٧ ـ ١٨.
(٢) الكهف: ١٢ وانظر خلاف البصريين والكوفيين في إعرابها في «البحر المحيط» ١٠٤/٦ ـ ١٠٥ و«أضواء البيان» ٢٤/٤ ـ ٢٧.
(٣) الجن: ٢٨.

التعبير عوضاً عن ذلك بالتأكيد، والصلة والمقحم).

* * *

٣ ـ القسم المتعلق بالأساليب البيانية:

رأينا فيما سبق أن التفسير بدأ في القرن الأول، ثم أخذ ينمو ويتضخم ابتداء من أواخر القرن الثاني، حتى أصبحت المؤلفات فيه لا يكاد يحصيها العد.

ولكن بدلاً من أن يبحث عن الجمال الفني في القرآن وتناسقه وانسجامه مع الجمال الموضوعي البالغ حد الكمال، أخذ التفسير يخوض في مباحث كلامية وفقهية قائمة على الجدل، وفي موضوعات نحوية وصرفية ولغوية. وقد رأينا مثالاً على ذلك فيما مضى.

وبذلك لم يستطع التفسير أن يحقق الغرض الذي من أجله قام، لأننا رأينا أن الغرض من التفسير هو الوقوف على معاني القرآن وإدراك أسرار اعجازه.

أما التأليف في التفسير البياني الذي يكشف عن وجوه الجمال والإعجاز، والذي يولي هذا الجانب الاهتمام الأكبر فقد كان متأخراً من جهة، وكان محصوراً في حقلين من جهة أخرى:

* الحقل الاول: حقل إعجاز القرآن، وقد تقدم البحث فيه في صدر الكتاب[1].

* الحقل الثاني: حقل المتكلمين والبلاغيين، وهذا ما نود أن نتحدث فيه الآن:

كان المعتزلة ـوهم المشتغلون في علم الكلامـ يحاولون أن يحتكروا

(١) أنظر الفصل السابع من الباب الأول من قسم القرآن وعلومه.

العناية بدراسة البلاغة القرآنية في القرنين الثاني والثالث. وكان من أهم أعلامهم واصل بن عطاء، والجاحظ، ومحمد بن يزيد الواسطي المعتزلي وغيرهم، ولكنهم لم يفلحوا في أن يبقى البحث في البلاغة القرآنية وقفاً عليهم، إذ كان يقوم الى جانبهم دائماً عمالقة من أهل السنة يشاركونهم البحث في بلاغة القرآن بأصالة وعمق.

وفي القرن الخامس نجد أن شافعياً من أهل السنة، ومن عباقرة علماء العربية وهو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ يأخذ على عاتقه هذه المهمة وينتزع الراية من أيدي المعتزلة وقد بلغ غاية التوفيق المقدر لباحث في عصره، فلقد أوشك ان يصل إلى اكتشاف سر الجمال الفني، بصورة كاملة في كتابه « دلائل الإعجاز ».

قال الاستاذ سيد قطب: (لولا أن قصة المعاني والألفاظ ظلت تخايل له من أول الكتاب إلى آخره، فصرفته عن كثير مما كان وشيكاً أن يصل إليه، ولكنه على الرغم من ذلك كله كان أنفذ حساً من كل من كتبوا في هذا الباب)(١) ويستحق أن يدرس دور عبد القاهر في الدراسات القرآنية مفصلاً ومفرداً.

وقال الاستاذ سيد: (وأياً ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والإعجاز، فإنها وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة: تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حدة، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيـه ـالى الحد الذي تستطيعـ دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل كله.

هذه الظاهرة قد برزت في البحث عن بلاغة القرآن، فلم يحاول أحد أن يجاوز النص الواحد إلى الخصائص الفنية العامة، اللهم إلا ما قيل في تناسق تركيب القرآن وألفاظه، أو استيفاء نظمه لشروط الفصاحة والبلاغة المعروفة، وهذه ميزات ـكما قال عبد القاهر بحقـ لا تذكر في مجال

---

(١) أنظر « التصوير الفني » ص ٥٩.

الاعجاز، لأنها ميسرة لكل شاعر وكاتب شب عن الطوق.

وبوقوف الباحثين في بلاغة القرآن عند خصائص النصوص المفردة، وعدم تجاوزها الى الخصائص العامة، وصلوا الى المرحلة الثانية من مراحل النظر في الآثار الفنية، وهي مرحلة الادراك لمواضع الجمال المتفرقة، وتعليل كل موضع منها تعليلاً منفرداً. ذلك مع ما قدمنا من أن هذا الادراك كان بدائياً ناقصاً.

أما المرحلة الثالثة ـ مرحلة إدراك الخصائص العامة ـ فلم يصلوا إليها أبداً لا في الأدب، ولا في القرآن، وبذلك بقي أهم مزايا القرآن مقفلاً خالياً)[1].

اما الكتب التي وصلت الينا في هذا المجال في تفسير القرآن فأهمها كتاب «الكشاف» للزمخشري. وفي العصر الحاضر الذي نهضت فيه الآداب وتقدم النقد قامت بعض الطاقات تخوض في هذا الميدان تحاول أن تستدرك ما فات الأقدمين، وسندرس محاولة الاستاذ سيد قطب الناجحة التي تدل على أصالة وذوق وإبداع.

فلنتعرف اذن الى «الكشاف» و«ظلال القرآن».

١ ـ الكشاف للزمخشري:

الزمخشري هو محمود بن عمر أبو القاسم. وقد عرف بجار الله، لأنه جاور في مكة مدة من الزمان. ولد في زمخشر سنة ٤٦٧ هـ، وتوفي في جرجانية من قرى خوارزم سنة ٥٣٨ هـ. كان من أكبر رؤوس الاعتزال في عصره، وكان حنفي المذهب، وترك عدة كتب نافعة، من أشهرها: «أساس البلاغة» في مفردات اللغة التي تستعمل في المجاز، و«المفصل» في النحو و«الفائق» في غريب الحديث[2].

---

(١) «التصوير الفني» ص ٢٢.
(٢) أنظر ترجمته في «وفيات الأعيان» و «انباه الرواة» ٣/٢٦٥ و«البداية والنهاية» ٢١٩/١٢ و«شذرات الذهب» ١١٨/٤ و«الميزان» ٧٨/٤ و«لسان الميزان» ٤/٦ =

أما تفسيره فله مكانة كبيرة، ومما يدل على هذه المكانة مدحه من قِبَل كل من وقفوا عليه، ومعظمهم من خصوم الزمخشري وخصوم المعتزلة كابن بشكوال والشيخ الهروي وأبي حيان والتاج السبكي وابن حجر. ولكل ممن ذكرنا أقوال في الثناء على «الكشاف».

* وسنذكر بعض الملاحظات حول هذا الكتاب:

١ - سبب تأليفه هو طلب جماعة من المعتزلة إلى الزمخشري أن يؤلف لهم تفسيراً، فكان يعتذر في بادىء الامر، إلى أن جاور في مكة، فطلب إليه أميرها أبو الحسن علي بن حمزة أن يكتب تفسيراً فاستجاب لذلك بعد أن كان قد بلغ من الكبر عتياً، وقد استطاع انجازه بسرعة كبيرة، ببركة هذا الحرم المعظم كما يقول في المقدمة:

(... ووفق الله وسدد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم) ومعلوم ان خلافة ابي بكر سنتان وأربعة أشهر.

٢ - وكان الزمخشري معتداً بهذا الكتاب فخوراً به الى حد بعيد حتى نسب اليه السيوطي وصاحب «كشف الظنون» (١) وغيرهما البيتين الآتيين:

ان التفاسير في الدنيا بلا عدد   وليس فيها لعمري مثل كشافي
ان كنت تبغي الهدى فالزم قراءته   فالجهل كالداء و«الكشاف» كالشافي

٣ - وعنوان الكتاب هو: «الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل».

= و«المنتظم» ١١٢/١٠ و«معجم الأدباء» ١٩/ ١٢٦ و«تذكرة الحفاظ» ١٢٣٨/٤ و«بغية الوعاة» ٣٨٨ و«طبقات المفسرين» للسيوطي ٤١ و«طبقات المفسرين» للداودي ٣١٤/٢ و«مفتاح السعادة» ٩٧/٢.

(١) «بغية الوعاة» ص ٣٨٨ و«كشف الظنون» ١٤٧٦/٢.

٤ ـ اللغة التي كتب بها الزمخشري كتابه لغة رفيعة سامية بليغة واضحة وقد خلا هذا التفسير من الحشو والتطويل، على أنَّ هذا الايجاز والتركيز لم يورث الكلام غموضاً ولا تعقيداً.

٥ ـ جمع هذا الكتاب خاصتين اثنتين لم توجدا في غيره:

أولاهما: انه أوسع كتاب في استجلاء نواحي الجمال في القرآن والكشف عن وجوه الاعجاز.

وهو تفسير لم يسبق مؤلفه اليه، لإبانته عن وجوه الاعجاز في آيات القرآن وبلاغته. وقد أعانه على تحقيق ذلك معرفته بلغة العرب، وإحاطته بعلوم البيان والنحو واللغة. قال في المقدمة:

(ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن. وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ).

وقد أثبت الزمخشري في «كشافه» أنه ممن اتصفوا بهذه الصفات إذ كان يعتمد في بيان المعنى على أساليب لغة العرب المعهودة في مأثور كلامهم.

ثانيهما: انه أضخم تفسير للمعتزلة وصل إلى أيدينا وهو يعبر عن عقائدهم من خلال شرحه للآيات، ويمكننا أن نقول: إنه جمع أقوال أئمة الاعتزال المتقدمين مثل الجاحظ والقاضي عبد الجبار وغيرهما من كبار المعتزلة.

ولا بد من الاشارة إلى أن الزمخشري قد يخالف المعتزلة في مواضع قليلة، ذهب فيها إلى خلاف الرأي الذي يتجه اليه علماء الاعتزال، فمن ذلك موضوع عذاب القبر الذي يذهب إلى إثباته ويناقش فيه المخالفين على طريقته (فان قلت... قلت)[١].

---

(١) «الكشاف» ١/٣٣٩.

وفي مثل هذه المواضع نجد ابن المنير يثني عليه وعلى صنيعه الثناء المستطاب، فيقول مثلاً في تعليقه على تفسير الزمخشري للآية ﴿وإنما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ (١).

يقول ابن المنير: (ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به) (٢).

٦ - بنى المؤلف مناقشته على طريقة افتراض السؤال، ثم وضع الجواب عنه. يبدأ بعرض السؤال بقوله: (فان قلت) ثم يأتي بالجواب مصدراً بقوله: (قلت).

٧ - يقل من ذكر الروايات الاسرائيلية، ويناقش ما يورده منها، وغالباً ما يردها، ولذا فاننا نستطيع أن نعد تفسيره «الكشاف» خالياً من الاسرائيليات نسبياً.

٨ - الأحاديث النبوية قليلة فيه أيضاً، وقلما يعتمد المؤلف على الحديث في شرحه لمعنى الآية، ومع ذلك فان فيه عدداً وافراً من الأحاديث الموضوعة دون أن ينبه على ذلك، ولا سيا في فضائل السور، إذ كان يورد في آخر كل سورة الأحاديث التي تشير الى فضلها وثواب قراءتها، ومعظمها موضوع.

٩ - يشتد على أهل السنة والجماعة ويذكرهم بعبارات فاحشة، وقد ينسبهم الى أهل الأوهام والخرافات، وقد ينسبهم - على سبيل التعريض - الى الكفر.

ومن أجل ذلك قال الرازي في «تفسيره»:

(خاض صاحب «الكشاف» في هذا المقام في الطعن في أولياء الله، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل ان يكتب مثله في الفحش. فهب انه اجترأ على

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) «الانتصاف» (المطبوع بهامش الكشاف) ١/٣٣٩.

الطعن في أولياء الله تعالى فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد ؟).

١٠ - الطابع العقلي والمذهب الكلامي واضحان في منهج الزمخشري في الكتاب، ولذلك فان اعتباره ممثلاً لاتجاه التفسير بالرأي أمر مقبول.

١١ - وهو يؤول الآيات بما يتناسب مع نحلته، ويصرفها عن ظاهرها بتكلف وتعسف. أنظر مثلاً تفسيره لقوله تعالى: «ناظرة» في الآية الواردة في سورة القيامة. ﴿كلا بل تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة، وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾ (١) لترى مدى التعسف، وتحميل النصوص مالا تحمل، ذلك لأن المعتزلة يرون أنه لا يمكن رؤية الله أبداً.

وهو كذلك في كل آيات الصفات يصرف الآية عن ظاهرها، ويعتمد على المجاز والاستعارة.

١٢ - وقد يلجأ في رد دلالة الآية التي لا توافق مذهبه يلجأ إلى ادعاء انها من المتشابه، يقف ذلك الموقف أمام النصوص التي تصادم مذهبه، إن لم يمكنه تأويلها.

١٣ - يحسن عرض فكرته على الوجه المناسب حتى ان كثيراً من المغالطات لتخفى على كثير من الناس، ولا سيما أن عدداً من هذه الموضوعات شائك، ليس لدى جمهور الناس فكرة واضحة عنها، ولذا فقد أحسن طابعوه الذين طبعوه مذيلاً برد عليه لابن المنير سنذكره بعد قليل.

* * *

تأثير «الكشاف»:

كان لكتاب «الكشاف» تأثير كبير على علماء المسلمين، يدلنا على هذا التأثير:

---

(١) سورة القيامة: ٢٠ - ٢٣. وانظر «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ١/١٧٢ - ١٧٣.

أ - الكتب الكثيرة: التي ألفت حول «الكشاف»، فقد كان منها كتب في الرد على الافكار المنحرفة التي وردت في الكتاب، وكان منها كتب تتعلق بتخريج الاحاديث، وكان منها كتب تتصل بالشواهد شرحاً واعراباً واتماماً، وكان منها كتب تعد شرحاً للكشاف، وكان منها كتب، تعد تلخيصاً له. وقد ألف هذه الكتب رجال من أهل السنة، بل ومن ائمة أهل السنة كما سنرى.

وسنذكر كتباً اربعة هي:

١ - «الانتصاف» للشيخ احمد بن محمد بن منصور المنيّر الاسكندري المالكي المتوفى سنة ٦٨٠هـ، وقد تعقبه في اعتزالياته تعقباً عجيباً، ولم يدع له اشارة ولا تصريحا دون أن يأتي عليه بالمناقشة والرد، وقد فنّد حججه، وقابل عنفه بعنف مثله أو أشد.

٢ - «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» لأمير المؤمنين في الحديث الامام ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ، وهو كتاب نافع جداً، لانه يوقف القارىء على درجة الحديث الذي يمر معه.

٣ - «حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف».

٤ - «مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف» للمرزوقي المذكور.

ب - ثناء كثير من خصوم الاعتزال على «الكشاف»، فلو لم يكن هذا الكتاب من قوة التأثير بهذه الدرجة لما كان منهم مثل هذا الثناء عليه.

قال ابن خلدون:

[والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب..... ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق، الّا أنَّ مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض في آي القرآن من طرق البلاغة.

فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة.

وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية، محسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان.

ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه وتعرّض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة. وفوق كل ذي علم عليم](١).

ج ـ وهناك كتب أخرى في التفسير تأثرت بالكشاف تأثراً كبيراً، لاعتماد مؤلفيها على هذا الكتاب بالذات اعتماداً كلياً، لا سيما في النواحي المتصلة بالبيان والبلاغة، ولم تعلن انها تدور حوله، ونستطيع ان نعد من هذا القبيل اسماء كثيرة من كتب التفسير التي جاءت بعد عصر المؤلف، وأوضح مثال على ذلك تفسير النسفي المتوفى ٧٠١ هـ والبيضاوي المتوفى ٧٩١ هـ.

د ـ ومن الطريف أن نورد رأي أبي حيان في «الكشاف» وذلك في قوله: [وأنت ترى هذا الكلام وما احتوى عليه من الترصيف الذي يبهر بجنسه الادباء، ويقهر بفصاحته البلغاء، وهو شاهد له باهليته للنظر في تفسير القرآن، واستخراج لطائف الفرقان](٢) ثم وازن بينه وبين تفسير ابن عطية، وفي قوله في ابيات أثنى فيها على الزمخشري، ثم انتقده، وهذه الأبيات ذكرها في «البحر المحيط»(٣) نختار منها ما يأتي:

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٤٠ ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
(٢) «البحر المحيط» ١/٩ ـ ١٠.
(٣) «البحر المحيط»: ٨٥/٧ وديوان أبي حيان ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

ولكنــــه فيــــه مجال لنـــاقـــد وزلات سوء قد أخـذن المخـانقـا
فيثبت موضوع الاحاديـث جـاهلاً ويعزو الى المعصوم مـا ليس لائقـا
ويشتم اعلام الائمـــــة ضلـــــة ولا سيما ان أولجوه المضـــايقـــا
ويسهب في المعنـى الوجيـز دلالـة بتكثير الفـاظ تسمـى الشقـاشقـا
يقـوّل فيهـا الله مـا ليس قـــائلاً وكـان محبـاً في الخطـابـة وامقـا
وينسـب ابـــداء المعـــاني لنفســه ليـوهـم اغماراً وان كـان سـارقـا
ويخطـىء في فهـم القـــران لأنـــه يجوز اعـرابـاً أبـى أن يطـابقــا
وكم بين من يـؤتـى البيـان سليقـة وآخـر عـانـــاه فما هـــو لاحقــا
ويحتـال للالفـاظ حتى يـديـرهـــا لمذهـب سـوء فيـه أصبـح مـارقـا

* * *

٢ ـ « في ظلال القرآن » للاستاذ سيد قطب:

ترجمة المؤلف: ولد الاستاذ سيد سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) ودرس دراسته الابتدائية والثانوية في مصر، ثم دخل دار العلوم، وتخرج فيها يعمل في التدريس ثم شرع يشتغل في الصحافة والتأليف، فعرفته البلاد العربية كاتباً مجيداً وأديباً كبيراً، وناقداً أصيلاً.. ثم غلبت عليه الدراسات الاسلامية، فقضى بقية حياته مجاهداً يدعو إلى الله على هدىً وبصيرة، وتحمل من أجل ذلك الكثير، وضحى بالغالي والنفيس، وظل يقود فكر مثقفي العالم الاسلامي في أصعب الظروف، ومن وراء قضبان السجن إلى ان استشهد يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٨٦ هـ الموافق لـ ٢٩ آب سنة ١٩٦٦ م. وخلف ثروة ضخمة من المؤلفات من أهمها:

الكتاب الذي نتحدث عنه وهو « في ظلال القرآن » و « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » و « خصائص التصور الاسلامي » و « الاسلام ومشكلات الحضارة » و « النقد الأدبي » و « معالم في الطريق ».

الكتاب:

قامت في مطلع هذا العصر نهضة دينية كان أبرز رجالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وكان لهذه النهضة أثر كبير في الجزيرة العربية وفي جميع أنحاء العالم الاسلامي... ثم جاء القرن الرابع عشر الهجـري، فكانت فيه يقظة فكرية، ونهضة علمية، وذلك على أثر غزو الحضارة الأوروبية للمسلمين، واستيلاء دول أوربا على معظم ديار الاسلام. وكانت مصر أهم المراكز الفكرية في العالم الاسلامي، ولذلك فاننا نجد أن عدداً من النوابغ الذين عرفتهم الأمة والذين قادوا الحركة الفكرية والاصلاحية كانوا من أبناء مصر أو من سكانها الذين وفدوا اليها من جهة ما من العالم الاسلامي، وقصدوها ليمارسوا دورهم الهام من أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وغيرهم.

وقد نمت هذه الحركة وأثمرت ثمرات عديدة كانت خيراً على المسلمين ومن أهم ثمراتها التي تعنينا في بحثنا هذا تلك النهضة اللغوية التي بها اتصل الخلف بآثار السلف، وارتقت بسببها أساليب الكتابة، وظهرت طاقات ضخمة لا تقل عما عرفنا في تاريخنا، وشرع العلماء يبحثون ويحاولون أن يضيفوا إلى تراثنا زاداً جديداً، ويتابعون عمل الأجداد بهمة لا تكل، وأصالة وذوق.

وكان لدار العلوم دور محمود في هذه النهضة، فلقد خرجت عدداً من الاعلام الذين قدموا خدمات جليلة للغة القرآن... وكان من ابرزهم الاستاذ سيد قطب.

والاستاذ سيد ـرحمه الله تعالى ـ اديب فذ، وناقد أصيل، وعالم متمكن، وكاتب موهوب، عني بالقرآن عناية كبرى، واستمر في دراسته القرآنية قرابة ثلاثين سنة.

---

(١) أنظر ترجمته في «الأعلام» وقد كتب يوسف العظم ومحمد علي قطب وابراهيم البليهي وغيرهم كتباً في حياته وآثاره.

كانت المحاولة الجدية الأولى في هذه الدراسات كتابه القيم «التصوير الفني في القرآن» الذي كان باكورة انتاجه القرآني. وقد كتب المؤلف قصة هذا الكتاب، فذكر أنها بدأت بنشر مقال في مجلة «المقتطف» سنة ١٩٣٩م تحت عنوان «التصوير الفني في القرآن» تناول فيه عدة صور فأثبتها وكشف عما فيها من جمال فني. وظل يعكف بين الحين والحين على القرآن يتملى صوره الفريدة إلى أن توفر على هذا البحث وأصدر كتاب «التصوير الفني في القرآن» وقرر أن حقيقة جديدة برزت له وهي: (أن الصور في القرآن ليست جزءاً يختلف عن سائره، ان التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل. القاعدة الاساسية المتبعة في جميع الأغراض -فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال- فليس البحث اذن عن صور تجمع وترتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز)[(١)].

ثم يقول: (ذلك توفيق لم أكن اتطلع اليه حتى التقيت به)[(٢)].

ويقول: (التصوير هو الاداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة)[(٣)].

ويقول: (ويجب أن نتوسع في معنى التصوير... فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالايقاع...)[(٤)].

- كان هذا الكتاب الموجز الجميل الخطوة الاولى التي انتهت بالمؤلف الى كتابة تفسيره الكبير «في ظلال القرآن».

---

(١) «التصوير الفني» ص ٩ - ١٠.
(٢) «التصوير الفني» ص ١٠.
(٣) «التصوير الفني» ص ٣٤.
(٤) «التصوير الفني» ص ٣٥.

وهكذا كان الاستاذ سيد الرجل الذي تابع عمل الباقلاني والجرجاني والزمخشري في الدراسات القرآنية من الناحية البيانية، واستطاع أن يصل الى ما لم يبلغوه.

وسنذكر بعض الملاحظات عن هذا التفسير لندل على أهم مزاياه وأبرز خصائصه بايجاز:

١ ـ قصة تأليف هذا الكتاب وسبب شروعه فيه أن المؤلف دعي من قبل مجلة شهرية ليكتب فصلاً شهرياً في موضوع مسلسل، فاختار عنوان «في ظلال القرآن» ثم تعاظمت الرغبة إلى إصدار ذلك الكتاب. يقول المؤلف في مقدمة الطبعة الأولى[1]:

(وكانت تعن لي خواطر متناثرة: خواطر في العقيدة، وخواطر في النفس، وخواطر في الحياة، وخواطر في الناس.. كنت أكتفي بأن أعيشها ولا أسجلها، فقد كان حسبي أن أعيش هذه اللحظات في تلك الظلال.. فلما أن صدرت «المسلمون»[2] وكان عليّ أن أشترك في تحريرها بمقال شهري.. في موضوع مسلسل، أو تحت عنوان دائم، قفز إلى ذهني هذا العنوان: «في ظلال القرآن» ذلك كان مبدأ القصة.. ثم طمحت الرغبة، وامتد الأفق إلى محاولة أخرى، ماذا لو عشت فترات في ظل هذا القرآن كله فسجلت كل ما يخالج نفسي، وأنا أستروح هذا الجو العلوي الطليق؟.. ووفق الله وسرت في هذا الشوط خطوات).

٢ ـ يدل عنوان الكتاب «في ظلال القرآن» على السمة التي تميز الكتاب.. إنه كتاب يسجل الانطباعات والمشاعر التي يحسها المؤلف عند قراءته للقرآن.

---

(١) صدر الجزء الاول من هذه الطبعة سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.

(٢) وهي مجلة صدرت في مصر سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م ثم أصدرها صاحبها سعيد رمضان في دمشق ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م ثم انتقل بها إلى جنيف ثم توقفت ١٩٦٦ م.

يقول المؤلف:

(«في ظلال القرآن» عنوان لم أتكلفه. فهو حقيقة عشتها في الحياة، فبين الحين والحين كنت أجد في نفسي رغبة خفية في أن أعيش في ظل القرآن فترة استروح فيها ما لا أستروحه في ظل سواه، فترة تصلني بالسماء، وتفتح لي فيها نوافذ مضيئة، وكوى مشعة، وهي في الوقت ذاته تثبت قدمي في الأرض، وتشعرني أني أقف على أرض صلبة، لا تدنسها الأوحال، ولا تزل فيها الأقدام).

٣ - ويعلن بوضوح في هذه المقدمة أن تفسيره يختلف كل الاختلاف عن كتب التفسير الأخرى، ويصر إصراراً كبيراً على تقرير أنه لم يفعل في هذا الكتاب أكثر من أن يسجل أحاسيسه ومشاعره التي عاشها في ضل القرآن. يقول رحمه الله:

(وبعد، فقد يرى فريق من قراء هذه الظلال أنها لون من تفسير القرآن. وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادىء العامة للاسلام كما جاء بها القرآن. وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهي في الحياة والمجتمع، وبيان الحكمة في ذلك الدستور.

أما أنا فلم أتعمد شيئاً من هذا كله، وما جاوزت أن أسجل خواطري وأنا أحيا في تلك الظلال).

ويدعو قراءه إلى أن تكون قراءتهم لهذه الظلال وسيلة ليدنوا من القرآن ذاته. يقول المؤلف:

(وانني لأهيب بقراء هذه الظلال ألا تكون هي هدفهم من الكتاب، إنما يقرؤونها ليدنوا من القرآن ذاته، ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته ويطرحوا عنهم هذه الظلال، وهم لن يتناولوه في حقيقته إلا إذا وقفوا حياتهم كلها على تحقيق مدلولاته، وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحت رايته)[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٦٢/١٣ ط ٢.

٤ ـ ويبين منهجه في هذا الكتاب، فيقرر أنه حاول أن يبتعد عن الموضوعات النحوية واللغوية، والقضايا الجدلية والكلامية، والمسائل الفقهية، وذكر أن الإسراف في ذلك يحجب القرآن عن روحه، ويستر جمال النص القرآني الأخاذ، قال رحمه الله:

(كل ما حاولته الا أغرق نفسي في بحوث لغوية، أو كلامية، أو فقهية، تحجب القرآن عن روحي، وتحجب روحي عن القرآن... وما استطردت إلى غير ما يوحيه النص القرآني ذاته من خاطرة روحية، أو اجتماعية، أو إنسانية. وما أحفل القرآن بهذه الايحاءات!).

وليس من شك في أن المؤلف رحمه الله قد استفاد من مختلف المناهج التفسيرية: كالتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، والتفسير الاصلاحي، والتفسير البياني، ولذا فانك تجد في هذا التفسير الجميل جولات عميقة في هذه الجوانب المختلفة، وهذا يدل على اطلاعه الواسع، واستيعابه لما يقرأ، والقدرة على أن ينتفع بذلك في اطار شخصيته الواضحة، ومواهبه الفذة الأصيلة.

وهذه خاصة قل ان تتوفر للمؤلفين، إذ تجد كثيراً منهم ينقلون في منأى عن تدخلهم، ولا تكاد تحس بشخصياتهم.

٥ ـ ويشير الاستاذ المؤلف في مقدمته أيضاً إلى أن هذا الكتاب تطبيق على نظريته التي تحدثت عنها في مطلع هذه الكلمة وهي نظرية: التصوير الفني في القرآن، ويذكر انه في هذه الظلال يتذوق نواحي الجمال الفني في النص، ومواضع التناسق في التعبير والتصوير، ويعرض ذلك على الناس، قال رحمه الله:

(كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من احساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير، ولقد كانت هذه إحدى أماني منذ أن فرغت من كتاب «التصوير الفني

في القرآن» قبل ثمانية أعوام[1] وسجلت فيه ما بدا لي واضحاً يومذاك: أن التصوير هو القاعدة الواضحة في التعبير القرآني الجميل، وكنت قد ادرت الكتاب كله على هذاالمحور لشرح هذه القاعدة، والتمثيل لها من القرآن. كانت إحدى أماني أن يوفقني الله الى عرض القرآن في هذا الضوء، ثم كمنت الرغبة أو توارت حتى ظهرت مرة أخرى في هذه الظلال).

٦ - وخطة المؤلف - رحمه الله - في التفسير أن يعرض السورة كلها عرضاً إجمالياً، ثم يقسمها إلى مجموعات كبيرة من الآيات التي يربط بينها سبب خاص، ويظللها ظل خاص. وبذلك تبدو وحدة النص القرآني، والترابط بين أقسام السورة. وهذه الخاصة لا تكاد تجدها بهذا الوضوح والكمال والتمام في تفسير آخر. قال رحمه الله: (ولقد سرت في هذا العمل الجديد على أساس عرض كل مجموعة من الآيات التي يربط بينها سبب خاص ويظللها ظل خاص في صورة درس قرآني).

ويقدم بين يدي السورة مقدمة تتحدث عن غرض السورة وعن المحور الذي يجمع كل الموضوعات الواردة فيها، وهذه المقدمات التي تجدها تسبق السور في «الظلال» مقدمات هامة، تمهد للتفسير التفصيلي الذي سيأتي، وتبين الوحدة في السورة، وتعالج القضايا الاسلامية التي تشير اليها السورة بعقلية حركية، تستفيد من السيرة النبوية لتخطط للحركة الاسلامية في العصر الحاضر، وهي مقدمات طويلة، ولاسيا في الطبعة الثانية.. دلل المؤلف فيها على عمق أدراكه للمفاهيم الاسلامية، وحسن عرضه لها بلغة العصر مستقاة من القرآن الكريم. ومن أهم الأمثلة على ذلك مقدمة سورة الانعام ومقدمة سورة التوبة. وقد يختم السورة بخاتمة تجمع مقاصدها الاساسية، حيث يعرض المؤلف رحمه الله التوجيهات والنقط الرئيسية في السورة، ويستشهد لها ويوضحها بالآيات الكريمة. ومن أوضح الأمثلة على هذا ما ختم به تفسيره لسورة الرعد، وهي خاتمة تقع في ثماني عشرة صفحة.

---

(١) كتب المؤلف هذه السطور في رمضان سنة ١٣٧١هـ حزيران ١٩٥٢م.

٧ ـ يمتاز هذا التفسير بأسلوب مؤلفه الموهوب، فهو يعرض موضوعات القرآن ومعانيه بأسلوب أدبي حي أخاذ سهل بليغ.

وقد اجتنب كثيراً من المصطلحات العلمية التي نعثر عليها في كتب التفسير. فكان كتابه سائغاً مفهوماً مقبولاً من جماهير القراء، على انه كان يكثر من استعمال بعض الكلمات التي تكاد تكون خاصة به، وإن الذي يألف أسلوب المؤلف يستطيع أن يدرك بسهولة معناها، لاسيما إن كان قد قرأ كتابه «التصوير الفني في القرآن» فقد شرح بعضها هناك، هذا ومن الطبيعي أن نجد في كتابة الكتاب الكبار بعض الكلمات التي يكثرون من تردادها، كما نجد بعض الجمل الخاصة التي تعد مظهراً من مظاهر الأساليب الشخصية.

٨ ـ يعالج هذا التفسير الموضوعات القرآنية باعتزاز بالاسلام يفوق الوصف، وايمان به لا حد له، وبعقلية حركية تدعو إلى استئناف العمل بالقرآن في قوة وصراحة وحيوية، والى إعادة سلطان القرآن على الحياة الانسانية في نطاق الافراد والامم والعالم كله.

وعالج هذا التفسير بوعي عميق أصيل، وبحرارة بالغة، وعاطفة كريمة صادقة قضايا المسلمين الفكرية والاجتماعية والسياسية.

والم بقضايا الفكر المعاصر، والحضارة القائمة، وأعلن بكل وضوح وتصميم ان المبادىء القرآنية هي ما تحتاج الانسانية إليه في أزمتها الراهنة اليوم.

٩ ـ ويتمتع المؤلف بتحرر تام من كل قيود العبودية الفكرية التي يرسف بها عدد من المفكرين المعاصرين، وهو على معرفته بحضارة الغرب لم يكن مأخوذاً بها ولا مبهوراً بالجوانب البراقة فيها، كان يقدرها حق قدرها، ويقومها التقويم السديد. ويحذر من سيئاتها ومساوئها التي تزحف على ديار الاسلام، وتتهدد حياتهم كلها.

١٠ - والمؤلف يضع العقل في محله الذي ينبغي أن يوضع فيه، دون أن يظلم العقل بتحميله ما لا يقوى على حمله، ودون أن يعطله فلا يسخره فيما خلقه الله له.

١ - ويربط المؤلف بين آيات القرآن التي فيها النور والهدى وبين واقع الجيل المثالي العظيم، الذي تلقى هذا القرآن ليعمل به ويقيم جوانب حياته عليه، وهو في تفسيره يدعو المسلمين إلى أن يأخذوا أنفسهم بالحزم، ويعملوا بالقرآن كما فعل أهل الصدر الأول زمن النبوة، ويحثهم على الانسلاخ من واقعهم المريض المتخلف، ليكونوا سعداء في بلادهم، وليسعدوا الانسانية كلها، لأنه يقرر أن المسلمين يملكون بهذا القرآن ما لا يملكه أحد سواهم في الدنيا، وليس عليهم إلا أن يكونوا هم الواقع الحي لمبادىء الاسلام لتجد فيهم الانسانية المعذبة الشقية طلبها.

١٢ - وأخيراً فان هذا التفسير يبرز قضية وحدة الرسالات السماوية، التي بعث الله بها انبياءه ورسله، إذ كانت جميعاً تدعو إلى التوحيد واسلام النفس لله وحده في الطاعة والعبادة.

* * *

كتب اخرى في التفسير البياني:

من أهم هذه الدراسات:

١ - «التفسير البياني للقرآن الكريم» للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء). وقد صدر منه جزءان الأول في سنة ١٣٨١هـ (١٩٦٢م) والثاني في سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) وذكرت ان الاصل في منهج التفسير الأدبي (هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن عنه، ويهتدي بمألوف استعماله للالفاظ والاساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعا من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل معه الى الاهتداء الى الدلالة القرآنية لالفاظه أو استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية)

ثم قالت: (وأتجه بمحاولتي اليوم الى تطبيق المنهج في تفسير بعض سور قصار، ملحوظ فيها وحدة الموضوع، فضلا عن كونها جميعاً من السور المكية، حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الاسلامية، وقصدت بهذا الاتجاه الى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة في التفسير وبين منهجنا الحديث الذي يتناول النص القرآني في جوه الإعجازي، ويلتزم في دقة بالغة قولة السلف الصالح: «القرآن يفسر بعضه بعضاً»).

أما السور التي عالجتها في الجزء الأول فهي: الضحى والانشراح والزلزلة والنازعات والعاديات والبلد والتكاثر. والسور التي عالجتها في الجزء الثاني هي: العلق والقلم والعصر والليل والفجر والهمزة والماعون.

٢ ـ «من منهل الأدب الخالد» للاستاذ محمد المبارك: وهو دراسة تحليلية أدبية لنصوص من القرآن درس فيها النصوص الآتية: سورة العاديات، وسورة الحاقة، وبعض سورة النحل، وسورة يوسف... وألحق بذلك مقالين هما: عناصر الفكر والفن في الكتاب العربي المبين، والقرآن عربي الخطاب انساني الرسالة.

وقد أشار إلى طريقته في التفسير الأدبي فذكر أنها (تقوم على تلخيص الفكرة العامة للسورة أو النص، ثم بسط ما تضمنته من أفكار، وكشف ما بين هذه الأفكار من صلة وربطها بما تضمنه القرآن من مفاهيم وأفكار وأعمد في ذلك إلى عرض معاني الآيات والأفكار التي تضمنتها عرضاً مباشراً، هو حصيلة ما انتهى إليه رأيي في معانيها، دون أن أنقل مختلف أقوال المفسرين، ثم أعرض الطريقة الأدبية أو فن التعبير عن تلك المعاني والأفكار، كالوصف، والقصص، والمثل المضروب، والعرض المباشر، مع بيان خصائص هذا الفن وانسجامه مع الموضوع في النص الذي هو موضوع الدراسة. ثم انتقل بعد ذلك إلى دراسة الآيات من حيث تراكيبها وجملها ومفرداتها، وما لهذه التراكيب والألفاظ من خصائص أدبية بارزة، سواء من جهة المعنى وحسن التعبير عنه وقوته ودقته أم من جهة اللفظ وجرسه ونغمته، وما لذلك كله من صلة بالفكرة المعروضة).

* * *

الفصل الثاني

التفسير بالمأثور

مدرستان:

قامت مدرستان في التفسير منذ وقت مبكر، عرفت احداهما بمدرسة التفسير بالمأثور، وعرفت الأخرى بمدرسة التفسير بالرأي، وكان بين هاتين المدرستين حوار هادىء حيناً، وجدال عنيف وخصام أحياناً، وقد تشدد أصحاب المدرسة الأولى في تفسير القرآن تشدداً كبيراً حتى روي عن الأصمعي[1] ـ وهو على ما نعلم من سعة الاطلاع والتبحر في العلوم ـ انه كان إذا سئل عن شيء من الكتاب أو السنة يقول: العرب تقول معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه في الكتاب أو السنة أي شيء هو؟ وكانوا يتحرجون من الخوض في التفسير.

التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور اتجاه من أهم اتجاهات التفسير وأجدرها بالعناية، وهو أقدم هذه الاتجاهات كما سيتضح ذلك من خلال هذا الفصل.

ويعنون به: ان تُفَسَّرَ الآية من آيات القرآن الكريم بما يأتي:

١ ـ بما جاء في القرآن نفسه في موضع آخر ورد فيه معنى هذه الآية أكثر تفصيلا.

---

(١) «الباعث على الخلاص» ص ١٤٩ من مجلة أضواء الشريعة.

٢ ـ وبما ورد عن النبي ﷺ من تفسير.

٣ ـ وبما نقل عن الصحابة والعدول من التابعين مما يتصل بشرح الآية وذكر أسباب نزولها وفيمن انزلت.

* أما تفسير القرآن بالقرآن فإنه أشرف أنواع التفسير وأجلها، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله من الله جل وعز [١]. والأمثلة على تفسير القرآن بالقرآن كثيرة جداً، بل لقد ألّف العلامة المعاصر الشيخ محمد الامين الشنقيطي تفسيراً اعتمد فيه توضيح القرآن بالقرآن. وسنكتفي بذكر الأمثلة الآتية على ذلك:

ـ وردت كلمة (يوم الدين) في سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ وفسّرت آية أخرى المراد من هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين، ثم ما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ [٢].

ـ ووردت كلمة (كلمات) في قوله سبحانه: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ [٣]، وفسرت آية اخرى المراد من هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿قالا ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [٤].

ـ وقصة موسى ذكرت بايجاز في قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً ووهبنا له من رحمتنا اخاه هارون نبياً﴾ [٥] ولكن هذه القصة

---

(١) «أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن» ١/٣.

(٢) سورة الانفطار، آخرها.

(٣) سورة البقرة: ٣٧.

(٤) سورة الاعراف: ٢٣.

(٥) سورة مريم: ٥١ ـ ٥٤.

وردت مبسوطة مطولة في مواضع متعددة من القرآن مثل السور الآتية: البقرة والأعراف وطه والشعراء والقصص وغيرها.

- وكذلك قصة آدم وإبليس، وقصة ثمود، وردت موجـزة في بعـض المواضع ومفصلة في مواضع اخرى.

* أماتفسير القرآن بما ورد عن النبي ﷺ من تفسير فإنه يلي تفسير القرآن بالقرآن. وقد فسَّر النبي ﷺ عدداً كبيراً من الآيات، يشهد لذلك ما جاء في كتب الحديث من تفسيره ﷺ للقرآن فقد جاء في «صحيح البخاري» و«سنن الترمذي» وغيرهما أبواب طويلة في تفسير القرآن. قال ابن تيمية: (يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ للناس ما نزل اليهم﴾[1] يتناول هذا وهذا)[2]. والأمثلة على تفسير النبي ﷺ كثيرة نقتصر منها على المثال الآتي:

- ورد في آيات الصيام قولهِ تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾[3]. وجاء في «صحيح البخاري» عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما (الخيط الأبيض من الخيط الأسود) أهما الخيطان؟ قال ﷺ: «انك لعريض القفا ان ابصرت الخيطين» ثم قال: «لا.. بل هو سواد الليل وبياض النهار»[4].

* وأما تفسير الصحابة فكثير وقد أشرنا إليه في بحثنا عن تاريخ التفسير في عهد الصحابة وقد امتلأ به كتاب ابن جرير الطبري وغيره من كتب التفسير بالمأثور ونكتفي بالمثال الآتي:

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) «مقدمة في اصول التفسير» ص ٣٥.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧.

(٤) «صحيح البخاري» ٤٤/٦ و«شرح معاني الآثار» ٥٣/٢.

ـ جاء في «صحيح البخاري» في تفسير قوله تعالى: ﴿والانصاب والأزلام﴾[1]: (قال ابن عباس: الأزلام: القداح يقتسمون بها في الأمور، والنصب: أنصاب يذبحون عليها)[2].

* واما تفسير التابعين فكثير جداً، وقد حفل به كتاب ابن جرير الذي أشرنا إليه آنفاً. ونكتفي بالمثال الآتي:

ـ جاء في «صحيح البخاري» في تفسير قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة﴾[3] (عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم التي لا يحمل عليها شيء)[4].

هل تفسير الصحابة والتابعين من المأثور؟

اختلف العلماء في عد تفسير الصحابة والتابعين من المأثور، فمنهم من عده مأثوراً، ومنهم من لم يعده كذلك. غير ان معظم كتب التفسير بالمأثور تورد منه الكثير.

ولعل الرأي الصحيح في هذا الموضوع هو الرأي الذي سبق أن قررناه في تاريخ التفسير وهو: ان ما جاء عن الصحابة والتابعين العدول فيما ليس من باب الاجتهاد والاستنباط وانما هو متوقف على السماع من النبي ﷺ يعد من التفسير بالمأثور، وهو ملزم إن صح سنده[5].

واما الاقوال المنقولة عنهم مما يتصل بالاجتهاد والاستنباط فليست من التفسير بالمأثور.

(١) سورة المائدة: ٩٠.
(٢) «صحيح البخاري» ٦/٤٤.
(٣) سورة المائدة: ١٠٣.
(٤) «صحيح البخاري» ٦/٤٦.
(٥) هذا صحيح بالنسبة إلى الصحابة، أما التابعي فقد يكون روى عن تابعي غير ثقة.

إذن فتفسير الصحابة والتابعين لا يعد من التفسير بالمأثور إلا إن كان متعلقاً بالسماع من النبي ﷺ، وذلك كالإخبار عن أمر غيبي لا مجال فيه للاستنباط والاجتهاد، ولا يمكن إعمال العقل فيه، ولا الاعتماد على استنتاجه.

ومما يلحق بهذا النقل عن لسان العرب لأن القرآن إنما نزل بلغتهم وهم أهل اللغة وأدرى الناس بها.

ونستطيع أن نقول: إن أهم أنواع التفسير بالمأثور هو التفسير المروي عن رسول الله ﷺ وهو الذي يذهب الذهن إليه عندما نطلق «التفسير بالمأثور».

متى يقبل التفسير بالمأثور؟

إن التفسير بالمأثور - فيما عدا التفسير بالقرآن بطبيعة الحال - يقبل إن صح سند هذا الأثر المفسِّر للآية، ويلزمنا الأخذ به.

أما إذا كان سنده واهياً فلا شك في رده. ولذلك فإن علينا لنحكم على أثر بالقبول او الرد أن ننظر في رجال سنده لنعرف درجته.

أوليته:

لئن كان رسول الله ﷺ هو المفسر الأول لنستطيعن أن نقرر جازمين ان التفسير بالمأثور هو المرحلة الأولى في تاريخ التفسير وانه اول ما ظهر من أنواع التفسير. وقد ذكرنا سابقاً ان التفسير كان باباً من أبواب الحديث قبل أن يستقل، وما زال هذا الباب ركناً من أركان كتب الحديث الجامعة.

* * *

الاسرائيليات:

نجد في كتب التفسير بالمأثور أخباراً كثيرة مروية عن بني اسرائيل،

وهذه الأخبار عرفت بالإسرائيليات، وذلك بسبب النقل عن عدد من التابعين الذين كانوا من أهل الكتاب قبل أن يدخلوا في الإسلام، والذين كانوا كثيراً ما يسألون عما في كتب أهل الكتاب، ودخلت هذه الأخبار في مجال التفسير بالمأثور. ومن هنا وجب على من يقرأ في كتب التفسير أن يكون واعياً للموقف السليم الذي يجب أن يقفه المسلم من الإسرائيليات، ويمكن تلخيص هذا الموقف كما يأتي:

١ - تردّ كل الاسرائيليات التي تعارض القرآن، أو صحيح السنة، أو تعارض أصلا اسلامياً مقرراً. قال الاستاذ محمد أبو زهرة: (وإن المستقرىء لكتب التفسير المشتملة على الاسرائيليات يرى أن أكثر ما دس فيها من هذا القبيل)[١].

٢ - الروايات الاسرائيلية الموافقة للقرآن مقبولة، ولكن لنا غنية عنها بما في القرآن.

٣ - أما الروايات التي لا تعارض القرآن ولا توافقه، فينبغي أن يكون موقفنا إزاءها موقف الحذر والأناة والحياد. لا نكذبها خشية أن تكون صحيحة، ولا نصدقها خوفا من أن تكون مكذوبة. وهذا مصداق ما جاء عن رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم و﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...﴾» الآية...[٢]

---

(١) «المعجزة الكبرى» ٥٩٥.

(٢) انظر «صحيح البخاري» ٦/١٨ تفسير سورة البقرة في باب ﴿قولوا آمنا بالله﴾ و٩/٩٠ في الاعتصام: باب لا تسألوا أهل الكتاب و٩/١٢٦ في كتاب التوحيد: باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها. وانظر «فتح الباري» ٥١٦/١٢. وجاء في رواية ذكرها ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ٦٣/١٩: «.. ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه وقولوا آمنا...»

والآية المذكورة هي الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

قال ابن الملك تعليقاً على هذا الحديث: (إنما نهى عن تصديقهم وتكذيبهم لأنهم حرّفوا كتابهم، وما قالوه إن كان من جملة ما غيّروه فتصديقهم يكون تصديقاً بالباطل، وإن لم يكن كذلك يكون تكذيبهم تكذيباً لما هو حق)(١).

٤ ـ وهناك استدراك على هذا النوع الثالث من الاسرائيليات ذكره ابن كثير عند أول تفسيره سورة ق قال رحمه الله: (وإنما اباح الشارع الرواية عنهم في قوله «وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج»(٢) فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل)(٣).

قال شيخ الاسلام ابن تيمية: (.. ولكن هذه الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه (لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني)(٤).

والحق الذي نراه أن هذا التقسيم يبيح لنا أن نروي عن بني إسرائيل

---

(١) انظر «مبارق الأزهار» ١/٢٢٠.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ٤/١٣٦ والدارمي ١/١٣٦ والترمذي ٣/٣٧٦ عن عبد الله ابن عمرو. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود عن أبي هريرة ٣/٤٣٨ ورواه أيضاً أحمد في «المسند» ورواه آخرون.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٤/٢٢١.

(٤) انظر «مقدمة في أصول التفسير» ص ١٠٠.

النوع الثالث المسكوت عنه إن نحن التزمنا عدم تصديقهم وعدم تكذيبهم. ولكن هذا شيء، وإيراد هذه الاسرائيليات في أثناء تفسير كتاب الله شيء آخر، ذلك لأن إيراد هذه الرواية في هذا الموضع يعني أنك تريد حمل الآية القرآنية عليها، وهذا يدل على تصديقك لها.

قال الأستاذ أحمد شاكر في مقدمة «عمدة التفسير»:

(إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولا أو رواية في معنى الآيات أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر، لأنّ في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما اجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك.

وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غفراً)[1].

وقال الحافظ ابن كثير:

(وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة والأتقياء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين، والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال)[2].

---

(١) «عمدة التفسير» لأحمد شاكر طبع دار المعارف ١٣٧٦/١٩٥٦ ص ١٥.

(٢) «تفسير ابن كثير» ٨٩/٣ عند تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف.

وقال أيضاً:

(.. وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً. وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين. ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة)(١).

ونختم هذا الموضوع بإيراد كلمة رائعة لابن عباس رواها البخاري في «صحيحه» وهي قوله رضي الله عنه: (يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي انزل الله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم الله ان أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي انزل إليكم)(٢).

* * *

---

(١) «تفسير ابن كثير» ١٨١/٣ عند تفسير الآيات ٥١ ـ ٥٦ من سورة الأنبياء.

(٢) «صحيح البخاري» ١٥٨/٣ و٩٠/٩.

تفسير الطبري

ترجمته[1] **:**

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. من أهل آمل في طبرستان. ولد سنة ٢٢٤ هـ ورحل من بلده وهو في الثانية عشرة من عمره طلباً للعلم، فجاء مصر والشام والعراق، واستقر ببغداد، وكان من أئمة الحديث أهل الرواية والضبط المتقن، وقد شارك البخاري في كثير من أساتذته، وروى عن العراقيين والشاميين، كان ذا ثقافة موسوعية، فهو كما قلنا من كبار أئمة الحديث، وهو شيخ المؤرخين، ومن كبار علماء القراءات، ومن فحول علماء العربية، كما كان إماماً مجتهداً صاحب مذهب فقهي. وذكروا ان اصحابه يقال لهم: الجريرية. وقالوا: إن مذهبه شافعي، وذلك قبل أن ينفرد بمذهب. وكان من الأتقياء الصالحين. وكان ذا اسلوب رفيع متين، وله شعر حسن. توفي سنة ٣١٠ هـ ببغداد.

---

(١) انظر في ترجمته: «تاريخ بغداد» ١٦٢/٢ و«المنتظم» ١٧١/٦ و«وفيات الأعيان» ١٩١/٤ تحقيق إحسان عباس و«معجم الأدباء» ٤٠/١٨ و«طبقات الشافعية» ١٢٠/٣ و«تذكرة الحفاظ» ٧١٠/٢ و«البداية والنهاية» ١٤٥/١١ و«ميزان الاعتدال» ٤٩٨/٣ و«الوافي بالوفيات» ٢٨٤/٢ و«طبقات الشافعية» للعبادي ٥٢ و«غاية النهاية» لابن الجزري ١٠٦/٢ و«طبقات المفسرين» ١٠٦/٢ و«طبقات الفقهاء» للشيرازي ٩٣ و«لسان الميزان» ١٠٠/٥ و«النجوم الزاهرة» ٢٠٥/٣ و«شذرات الذهب» ٢٦٠/٢ و«التاج المكلل» ص ١٠٨ و«كشف الظنون» ٤٣٧/١ و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان ٤٥/٣.

تفسيره:

كتابه من أهم كتب التفسير وسنورد بعض الملاحظات فيه:

١ ـ عنوان الكتاب هو «جامع البيان من تأويل آي القرآن».

ويدل هذا العنوان على ان هذا التفسير جاء بعد تفاسير عديدة، كما يدل أيضاً على انه كتاب موسع. وتذكر كتب التراجم قصة تأليف هذا الكتاب، وفحواها: ان أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة (١).

٢ ـ من المعروف المشهور ان كتاب ابن جرير من كتب التفسير بالمأثور، غير ان هناك بعض العلماء ينكرون ذلك الرأي، ومنهم الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور الذي يقول:

(وإن الذين يعتبرون تفسير الطبري تفسيراً أثرياً، أو من صنف التفسير بالمأثور إنما يقتصرون على النظر إلى ظاهره بما فيه من كثرة الحديث والإسناد، ولا يتدبرون في طريقته وغاياته التي يصرح بها من إيراد تلك الأسانيد المصنفة المرتبة الممحصة) (٢).

والحق ان تفسيره بالإضافة إلى غناه بالآثار والأحاديث يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، وذكر الإعراب والاستنباط.

٣ ـ كان تفسير الطبري مفقوداً منذ قرون أو في حكم المفقود.. وظل كذلك إلى ان عثر على نسخة مخطوطة لدى الأمير حمود آل الرشيد

---

(١) «المنتظم» لابن الجوزي ١٧١/٦ و«تاريخ بغداد» ١٦٣/٢.

(٢) «التفسير ورجاله» ص ٣٦.

من أمراء حائل في نجد، وقد طبع عليها الكتاب [1] لأول مرة، ثم طبع بعد ذلك عدة طبعات. وقد شرع الأستاذ محمود محمد شاكر منذ سنة ١٣٧٤ هـ بطبعه طبعة جديدة هي غاية في الروعة والاتقان، وصدر منها حتى الآن ١٦ جزءاً. وكانت الأجزاء الأولى بالاشتراك مع أخيه العلامة أحمد شاكر رحمه الله الذي كان يراجعه ويخرج أحاديثه ثم استقل الأستاذ محمود بعد الجزء الثامن بتحقيق الكتاب وتخريج الأحاديث [2].

٤ ـ أثنى العدد الغفير من العلماء الأفاضل في مختلف العصور على هذا الكتاب، ومن ذلك قول الإمام المحدث الكبير ابن خزيمة: (نظرت فيه من أوله إلى آخره، فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير) [3]. ومن ذلك قول أبي عمر الزاهد غلام ثعلب: (قابلت هذا الكتاب من أوله إلى آخره فما وجدت فيه حرفاً خطأً في نحوٍ أو لغةٍ) [4]. ومن ذلك قول الخطيب البغدادي الذي قال فيه: (جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره) [5]. ومن ذلك قول ابن تيمية: (وتفسير ابن جرير الطبري هو من

---

(١) «التفسير والمفسرون» ١/٢٠٨ ينقل ذلك عن «المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن» ص ٨٦.

(٢) جاء في تصدير الجزء العاشر من تفسير الطبري الذي كتبه محمود محمد شاكر ما يأتي:
(... كنتُ أشرتُ في تصدير الجزء الرابع أني شاركت أخي... في بيان حال رجال الآثار، وخرجت ما اتفق منها... أما منذ الجزء التاسع فقد انفردت بالعمل كله فخرجت عامة أحاديث الجزء التاسع والعاشر..)
وجاء في تصدير الجزء الحادي عشر من التفسير المذكور الذي كتبه الشيخ أحمد شاكر ما يأتي:
(كنت منذ بدأتُ العمل في هذا التفسير... مع أخي السيد محمود محمد شاكر باذلاً جهدي في مراجعة بعض أسانيده خصوصاً الأحاديث المرفوعة مخرجاً منها ما استطعت تخريجه... ثم تفضل أخي... بمعاونتي في التخريج، فخرَّج الكثير من الأحاديث في الكثير من الأجزاء وهو أهل لذلك والحمد لله... وكنت ولا أزال مطمئناً إلى عمله واثقاً به عن خبرة وبينة).

(٣) «تاريخ بغداد» ٢/١٦٤.

(٤) مقدمة محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١٢.

(٥) «تاريخ بغداد» ٢/١٦٣.

أجل التفاسير وأعظمها قدراً)[1]، وقوله: (وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحُها تفسير محمد بن جرير الطبري فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين)[2]. ومن ذلك قول السيوطي: (اجمع العلماء المعتبرون أنه لم يؤلف في التفسير مثله)[3]. وهو من التفاسير القديمة التي وصلت إلينا، ومن أحسنها ترتيباً.

٥ - كتب مقدمة طويلة جداً، وهي في حدِّ ذاتها كتاب مستقل. وقد تحدث فيها عن وسائل المفسر التي يجب عليه أن يحصل عليها ويتقنها. وكتب فيها فصلاً في الكلمات التي اتفقت فيها الفاظ العرب وألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم، أي في الألفاظ القرآنية التي ليست بعربية على ما يرى آخرون، وخصص فصلا مطولاً فسر فيه حديث الأحرف السبعة التي نزل القرآن عليها.

وقد ذكرنا رأيه في بحث القراءات. وكتب فصلا في معنى قوله ﷺ: «أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة»، وكتب فصلاً في المقدمة يهاجم فيه أولئك الذين يفسرون القرآن بآرائهم، وتكلم في الحض على تفسير القرآن وتعلمه، وكتب فصلاً في الرد على منكري القول في تأويل القرآن، وفصلاً في المفسرين المحمودين والمذمومين، وفصلاً في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه، وفصلاً في تأويل أسماء الفاتحة، ثم فسر الاستعاذة والبسملة.

وقد استغرقت المقدمة ما يزيد على ١٣٠ صفحة.

٦ - يمتاز هذا الكتاب بالمنهجية، فلقد درج المؤلف على خطة تحكم الكتاب من أوله إلى آخره.

فهو يضع عنواناً للآية كما يأتي: القول في تأويل قوله جل ثناؤه (... كذا...).

---

(١) الفتاوى ١٣/٣٦١.

(٢) الفتاوى ١٣/٣٨٥.

(٣) الاتقان ٢/١٩٠.

ثم يفسر الآية بعد أن يسردها، ويبين المراد منها، ويولي بيان الصلة بين الآية والآية اهتماماً كبيراً، حتى يتضح الترابط في السياق والموضوعات، ويلجأ إلى شرح الآية بما ورد في معناها من القرآن في مواضع اخرى منه، وله جولات في بعض المفردات اللغوية جيدة، إذ يبين المعنى الأصلي للمفردة، ثم يبين المعنى المنقول إليه مع بيان مناسبة النقل. ثم يورد أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين والعلماء في تفسيرها متصلة بالأسانيد إلى أصحابها، ويرجح بينها، ويختار واحداً منها يعتمده، ويناقش من يخالفه في تفسير الآية على الوجه الذي اختاره. وعنده عبارات يكثر من ترديدها، سأورد بعضها فيما يأتي:

(القول في تأويل قوله جل ثناؤه) - (اختلف أهل التأويل في...)

(وأولى هذه الأقوال بالصواب واشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة قول من قال) - (ذكر من قال ذلك) - (وبمثل ما قلنا قال أهل التأويل) - (وبنحو ما قلنا قال أهل التأويل) - (وبنحو الذي قلنا في ذلك قال عدد من أهل التأويل ذكر من قال ذلك).

٧ - والمؤلف في آرائه التي يوردها في تفسيره واضح الشخصية، جازم غير متردد ولا مقلد، وهو ينتقد اولئك الذين يبحثون فيما لا فائدة منه، ويعرض بهم كثيراً، ويقف عند الحد الذي تدل عليه الآية، ولا يجاوزه الى اقوال لا ينفع العلم بها، ولا يضر الجهل بها، فمن ذلك قوله في تحديد البعض الذي ضرب به قتيل بني إسرائيل فقام حيا: (الصواب من القول عندنا في تأويل قوله ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ (١) أن يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة، ليحيا المضروب، ولا دلالة في الآية، ولا في خبر تقوم به حجة على أي ابعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل بها. وجائز أن يكون الذي امروا أن يضربوه به هو الفخذ،

(١) سورة البقرة: ٧٣.

وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف وغير ذلك من ابعاضها، ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله)[1].

ومن ذلك رأيه في تحديد الطعام الذي كان على المائدة التي نزلت استجابة لدعوة عيسى عليه السلام: ﴿قال عيسى بن مريم: اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين﴾[2].

قال المؤلف بعد أن أورد أقوال العلماء في الذي كان على المائدة: (وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون كان ثمراً من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا اقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل)[3].

وشخصية المؤلف ذات الجوانب الجذابة جعلت كتابه مرجعاً مهماً لعدد من ذوي الاختصاص ممن يريد التفسير.

إن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية، وترجيحاته لما يراه صوابا من الآراء والأقوال المختلفة، واعتماده على خطة منهجية سليمة، ومقاييس علمية ولغوية جعلت لكتابه من القيمة ما ليس لكتاب آخر، وأعطت مكانة لكتابه لا تقل عن مكانة الآثار والروايات والآثار الحديثية.

٨ ـ أسلوبه أسلوب مبين جزل فصيح يمتع قارئه ويفيده. وليس من شك في أن أسلوبه يحتاج من دارسه إلى أناة في قراءته حتى يكون قادراً

---

(١) «تفسير الطبري» ٢/٢٣١ تحقيق محمود شاكر.

(٢) سورة المائدة: ١١٤.

(٣) «تفسير الطبري» ١١/٢٣٢ تحقيق محمود محمد شاكر.

على استيعاب ما جاء فيه. وقد ذللت طبعة الأستاذ شاكر كثيراً من مصاعبه.

يقول الأستاذ محمود شاكر: (كان يستوقفني في القراءة كثرة الفصول في عبارته، وتباعد أطراف الجمل، فلا يسلم لي المعنى حتى اعيد قراءة الفقرة منه مرتين أو ثلاثا، وكان سبب ذلك اننا ألفنا نهجاً من العبارة غير الذي انتهج أبو جعفر، ولكن تبين لي أيضاً ان قليلا من الترقيم في الكتاب خليق أن يجعل عبارته أبين)[١].

٩ ـ وهو في كتابه نصير لأهل السنة من ناحية الاعتقاد. وكثيراً ما يرد على القدرية والفرق الضالة.

١٠ ـ ويعنى بالقراءات فيوردها، ويوازن بينها، وقد يرد بعضها أو يرجح بعضها على بعض، وهو في تصديه لهذه الناحية يدل على معرفة واسعة بالقراءات، وقد سبق أن ذكرنا أنه ألف فيها كتاباً خاصاً[٢].

١١ ـ يشتمل هذا الكتاب على عدد كبير من الأحاديث والآثار المسندة، وكثير منها صحيح، وفيها الضعيف أيضاً، ولكن المؤلف بذكره لأسانيدها يخرج من المسؤولية والعهدة، وقد أشار السيوطي في «الاتقان»[٣] إلى مواضع الضعف في مرويات ابن جرير التفسيرية.

وهناك من جملة المرويات عدد كبير من الإسرائيليات، ولعل ذلك ناتج عن اتساع معارفه التاريخية، يقول الأستاذ شاكر: (ولما رأيت أن كثيراً من العلماء كان يعيب على الطبري أنه حشد في كتابه كثيراً من الرواية عن السالفين الذين قرؤوا الكتب وذكروا في معاني القرآن ما ذكروا من الروايات عن أهل الكتابين السالفين ـ التوراة والانجيل ـ أحببت أن

---

(١) مقدمة محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١١.

(٢) انظر مبحث القراءات من هذا الكتاب.

(٣) «الاتقان» ٢/٢٢٤.

أكشف عن طريقة الطبري في الاستدلال بهذه الروايات رواية رواية، وأبين كيف أخطأ الناس في فهم مقصده، وأنه لم يجعل هذه الروايات قط مهيمنة على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحببت أن أبين عند كل رواية مقالة الطبري في إسنادها، وانه اسناد لا تقوم به حجة في دين الله ولا في تفسير كتابه، وان استدلاله بهاكان يقوم مقام الاستدلال بالشعر القديم...)[1]. ولكنَّ الأفضل خلوٌّ التفسير من هذه الروايات. وتعليل أستاذنا شاكر مردود.

هذا وقد تولى الأستاذ المحدث أحمد شاكر التحقيق في أسانيد الروايات والأحاديث وذكر درجتها في الأجزاء الأولى ثم تابع عمله أخوه الأستاذ محمود ـ كما ذكرنا ـ.

١٢ - يورد المؤلف اقوال ائمة الفقه في آيات الاحكام، وينفرد أحياناً ببعض الآراء التي تخالفهم مؤيداً رأيه بالحجة القاطعة، ويبحث ذلك بحثاً فقهياً رصيناً، وكيف لا يكون كذلك وهو إمام صاحب مذهب. وكان في بحوثه الفقهية يعير الإجماع أهمية كبيرة.

١٣ - يورد المؤلف أقوال النحويين في تخريج بعض التراكيب القرآنية، وكثيراً ما يجعل التخريج النحوي الراجح توجيهاً للقراءة. وكثيراً ما يورد إعراباً لمواضع في الآيات، وأوزاناً صرفية لبعض الكلمات، ويستشهد لما يذهب اليه بالشعر الجاهلي والاسلامي، وكذلك في رده على مخالفيه. وقد أعد الأستاذ شاكر فهرساً للمباحث النحوية في آخر كل جزء من الأجزاء التي صدرت.

ولذلك فإن في البحوث التي وردت في كتابه ثروة علمية ضخمة جدا.

١٤ - يمتاز هذا الكتاب بتأثيره الواسع الضخم على كل الكتب التي

---

(١) انظر مقدمة محمود شاكر من «تفسير الطبري» ١/١٦ - ١٧ وانظر تعليقه ١/٤٥٣ -٤٥٤.

الفت بعده، حتى أضحى كثير منها عيالاً عليه، واعتمد عليه كل منْ جاء بعده، وقد كان هذا التأثير في القديم والحديث كما أسلفنا، وفي العصر الحاضر اهتم به المستشرقون والعلماء المسلمون.

ويبدو ان كتاب ابن جرير كان مصدرا للتأليف عند المتقدمين، فبعضهم يختصره، وبعضهم يستخرج منه كتباً، كما فعل أبو يحيي محمد بن صمادح التجيبي الأندلسي المتوفى سنة ٤١٩ هـ.. فقد استخرج من تفسير الطبري كتاب «اختصار غريب القرآن» وألّف كتاب «مختصر من تفسير الامام الطبري» وقد طبع الكتاب الاخير في سلسلة (تراثنا) في الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م اقتصر فيه مؤلفه على أبرز الروايات في نظره، واستغنى عن الاشارة الى تعدد القراءات والاعراب والاشتقاقات والاخبار.

١٥ ـ كان كتابه نواة لما وجد بعد من التفسير بالرأي.

كتب أخرى في التفسير بالمأثور:

هناك كتب عديدة من كتب التفسير بالمأثور سنقتصر على إيراد أسماء ثلاثة كتب منها: ونخص أحدها ـ وهو تفسير ابن كثير ـ بكلمة موجزة. أما هذه الكتب فهي: «معالم التنزيل» للبغوي الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠هـ و«تفسير ابن كثير» لإسماعيل بن عمرو المتوف سنة ٧٧٤هـ و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

كتاب «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير:

ابن كثير هو عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير. ولد سنة ٧٠٠ هـ ببصرى جنوبي دمشق، ونشأ يتيماً بدمشق، ورزق حافظة نادرة، فاشتغل بالحديث، ودرس الفقه، وألف فيه، وشرع في كتـاب كبير في الأحكام لم يكمل. وانكب على كتب التفسير، وألف كتابه الذي نحن

في صدد الحديث عنه الآن، وترك كتاباً في التاريخ سماه « البداية والنهاية » وهو كتاب جيد.

لازم الحافظ المزي وتزوج بنته، وأخذ عن ابن تيمية، واحبه، واثنى عليه في « البداية والنهاية ». توفي سنة ٧٧٤ هـ.

وأما كتابه فهو من أشهر كتب التفسير بالمأثور، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً في الناس، وزادت المطابع في عصرنا من شهرته، فطبع أكثر من مرة، مستقلا حيناً، ومع تفسير آخر[1] حيناً آخر. وعنوان الكتاب هو « تفسير القرآن العظيم »، وقد قدم له بمقدمة طويلة قيمة تحدث فيها عن أصول التفسير، ويبدو أنه استفاد فيها كثيراً من كلام شيخه ابن تيمية في رسالة له في اصول التفسير.

وطريقته أن يذكر الآية أو الآيات، ثم يفسرها بعبارة سهلة، ويورد بعض الآيات التي توضح الآية إن وجدت، وهو على ذلك حريص جداً، وهذا شأنه في تاريخه أيضاً عند تعرضه لقصص الانبياء، ثم يورد الأحاديث التي تتعلق بالآية. ثم يأتي بأقوال الصحابة والتابعين، يورد ذلك كله بأسانيده. وقد يرجح بعض الأقوال على بعض، وقد يرد بعض الأقوال. وهو يورد في تفسيره نادراً بعض الاسرائيليات، وقد ينبه أحياناً الى منكراتها، وقد جمع الاستاذ احمد شاكر في مقدمة « عمدة التفسير » طائفة من أقواله التي تعبر عن رأيه في الاسرائيليات. ويتعرض إلى الموضوعات الفقهية وقد يدخل في بحوث فقهية موسعة. وهو متأثر الى حد كبير بتفسير ابن جرير (فانه لم يقتصر على نقل الآثار بل نقل كلام ابي جعفر بنصه في مواضع متفرقة)[2] وقد شرع الاستاذ احمد شاكر بتهذيبه في كتاب سماه « عمدة التفسير » وصدرت منه أجزاء خمسة ولكنه توفي قبل أن يتمه رحمه الله. وظهرت مختصرات عدة لهذا الكتاب فيما بعد.

---

(١) طبع مع « تفسير البغوي ».

(٢) انظر مقدمة محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١٤.

الفصل الثالث

التفسير بالرأي

سبق أن ذكرنا اتجاهين قاما في التفسير هما: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وقد فصلنا القول في التفسير بالمأثور في الفصل السابق، ونريد أن نبحث في هذا الفصل عن التفسير بالرأي(١). ونود أن نذكر هنا أن خلافاً شديداً قام بين العلماء حول هذا التفسير، فمنهم من منعه، ومنهم من اجازه، والذي نراه هو أن تحديد المراد من كلمة (الرأي) يزيل كثيراً من الخلاف والجدل، لأن كلا الفريقين يفهم كلمة الرأي فهماً لا يوافقه عليه الفريق الآخر.

أما **المانعون** فقد ذهبوا الى حظره وتحريمه، واستدلوا على ذلك بأدلة أهمها:

١ ـ قالوا: إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، وهو غير جائز.

٢ ـ واستدلوا بالآية الكريمة ﴿وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾(٢) وفهموا من الآية ان البيان للرسول، وليس لغيره إلا أن ينقل قوله بعد تحري ما صح. وواضح أن مثل هذا القول يخرج من دائرة المأثور ما يروى عن الصحابة، وان كانت كل كتب التفسير بالمأثور تمتلىء بأقوال الصحابة بل بأقوال التابعين أيضاً.

---

(١) انظر في التفسير بالرأي «أعلام الموقعين» لابن القيم ١/٣٨ و ٥٣ ـ٧٣.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

٣ - واستدلوا بالحديث «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم. فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[١] وبالحديث: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٢].

٤ - واستدلوا بامتناع كثير من الصحابة والسلف من القول في تفسير القرآن، كأبي بكر رضي الله عنه وسعيد بن المسيب والشعبي والاصمعي.

وأما **المجيزون** فقد ناقشوا هذه الادلة وبينوا أنها لا تنطبق عليهم كما يأتي:

١ - قالوا: ليس التفسير بالاجتهاد قولاً على الله بغير علم. وإنما هو استخدام العقل في فهم كتاب الله العظيم. وقد جعل الله للمصيب اجرين وللمخطىء أجراً واحداً. واحتجوا بالحديث المشهور في كتب الأصول وهو (أن رسول الله ﷺ سأل معاذاً حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال معاذ: بكتاب الله. قال النبي ﷺ: فان لم تجد؟ قال معاذ: فبسنة رسول الله. قال فان لم تجد؟ قال معاذ: اجتهد رأيي. فضرب رسول الله ﷺ

(١) أورده الترمذي في باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (انظر «تحفة الاحوذي: ٦٥/٤) وفي كتاب الترمذي رواية اخرى هي «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». وقال: حديث حسن صحيح. وانظر تعليق الألباني على هذا الحديث في «المشكاة» ٧٩/١.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٣٦/٣ والترمذي ٦٥/٤ من حديث جندب بن عبدالله، ولكن الحديث ضعيف لأن في سنده سهيل بن أبي حزم وهوضعيف. وانظر «الباعث على الخلاص» للحافظ العراقي بتحقيقنا ص ١٤٧ - ١٤٨ وهناك حديث موضوع قريب من هذا الحديث ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ٢٧٤/١ ونصه: «من فسَّر القرآن برأيه فأصاب كتبت عليه خطيئة لو قسمت بين العباد لوسعتهم، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار» وفيه أبو عصمة نوح بن أبي مريم.

وانظر تخريج الحديث الأول وغيره في تعليقات شاكر على تفسير الطبري ٧٨/١ وانظر «المشكاة» ٧٩/١.

في صدره وقال: الحمدلله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله) [1].

٢ ـ واجابوا عن الاستدلال بالآية ﴿وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [2] بأن في الذي ورد بيانه عنه ﷺ كفاية عن كل تفسير، وأما الذي لم يرد عنه ﷺ بيانه ففيه مجال لأن يعمل أهل العلم الأكفياء تفكيرهم فيه ويقفوا على أسراره. وقالوا: إنه لا تعارض بين الآية والتفسير بالرأي.

٣ ـ واجابوا عن الحديثين بأن النهي محمول على من قال برأيه في مثل متشابه القرآن مما لا يعلم إلا عن طريق النقل عن النبي ﷺ. وقالوا: إن المراد من كلمة (الرأي) الواردة في الحديثين هو الرأي الذي يغلب على صاحبه من غير دليل، والهوى الذي يميل اليه المرء ولو كان الحق في غير جانبه. وقالوا: إن النهي محمول على من يقول في القرآن بظاهر العربية من غير أن يرجع إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله، ونقلوا لنا تفسير الرسول ﷺ لآيات القرآن الكريم ومن غير أن يتقيد بشروط التفسير.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» ٥/٢٣٠ و٢٣٦ و٢٤٦ وأبو داود ٣/٤١٢ والترمذي ٢/٢٧٥ وقال عقبه: (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل) وابن ماجه والدارمي ١/٦٠ وأورده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١٢٦ وأخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» ١/١٨٨ ـ ١٨٩ من طرق عدة وصححه وذكر أنَّ أهل العلم قد تقبلوه واحتجوا به. وأخرجه ابن كثير في مقدمة تفسيره ١/٣ وقال: (وهذا الحديث في «المسند» والسنن بإسناد جيد كما هو مقرر في موضعه) وقال في «البداية والنهاية» ٥/١٠٣: (.. وقد رواه ابن ماجه من وجه آخر عنه من طريق محمد ابن سعيد بن حسان وهو المصلوب أحد الكذابين) فتأمل.
وقال الذهبي: وأنى له الصحة، ومداره على الحارث بن عمرو وهو مجهول عن رجال من أهل حمص لا يدرى من هم عن معاذ (وانظر «طبقات الشافعية» ٥/١٨٧).
ونقل الشيخ ناصر الألباني عن البخاري أنه قال فيه: إنه حديث منكر (انظر كتابنا الحديث النبوي ص ٢٥) وانظر «منزلة السنة في الاسلام» للألباني ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

قال الغزالي في «الاحياء»[1]: [وأما النهي في الحديث فإنه ينزل على أحد وجهين:

أحدهما أن يكون للمفسر في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وَفْق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى...

والوجه الثاني من التفسير بالرأي أن يسارع المفسر إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ التي لها أكثر من معنى...] . وأضافوا الى ذلك أن الحديث الثاني حديث ضعيف لا يحتج به أصلاً.

٤ ـ وقالوا في إحجام من أحجم من الصحابة والسلف رضوان الله عليهم عن التفسير بالرأي: إنما كان منهم ورعا. ويمكن أن يكون إحجامهم مقيداً بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه، ويمكن أن يقال أيضاً: إنما أحجم من أحجم منهم لأنه لم يكن يتعين للاجابة، وكان هناك أناس يقومون بهذه المهمة، وإلا فان لم يكن هناك سواه لشرح كتاب الله وجب عليه التفسير حتى لا يكون كاتماً للعلم.

* * *

ولم يكتف هؤلاء العلماء برد أدلة المانعين، وإنما احتجوا لقولهم بأدلة عديدة سنقتصر على ايراد أهمها:

١ ـ قالوا: إن القرآن نفسه يأمر بالتدبر والاستنباط، واستشهدوا بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرسول وإلى أولي الأمر مِنْهُمْ لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[2] وبقوله تعالى: ﴿أفَلا يَتدبَّرُون القُرْآن أمْ عَلَى قلوبٍ

(١) إحياء علوم الدين ٢٩٨/١.

(٢) سورة النساء: ٨٣.

أَقْفَالُها﴾[1] وبقوله عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إليكَ مُباركٌ ليدَّبَّرُوا آياتِهِ وليتذكَّرَ أولُو الالبابِ﴾[2].

ولا يكون التدبر إلا بالتأمل الذي يعتمد على الفهم وإعمال الفكر والاجتهاد. وبذلك يكون القرآن نفسه آمراً بالتفسير بالرأي. فتدبر القرآن متوقف على فهمه، ولا نستطيع أن نفهم الآيات التي لم يرد في شرحها اثـر أو حديث الا بأن نجتهد في تفسيرها ضمن الشروط التي نص العلماء على ضرورة توافرها.

٢ ـ لو كان الاجتهاد بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً، ولتعطلت بسبب ذلك كثير من الاحكام الشرعية.

٣ ـ فسر الصحابة القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، ولم يسمعوا كل شيء قالوه من النبي ﷺ. بل هناك من الأقوال ما سمعوه، وهناك ما اجتهدوا فيه. هذا ومن المروي عن رسول الله ﷺ دعاؤه لابن عباس «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[3].

* * *

ويقرر الامام الراغب الاصفهاني الحق في هذا الموضوع بأجلى بيان. وذلك حيث يقول: (فمن اقتصر على المنقول اليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج اليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى ﴿لِيَدَّبَّرُوا آياتِه ولِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألبابِ﴾[2].

وكما سبق أن قلت في مطلع هذا الفصل: إن تحديد مدلول كلمة (الرأي) يحسم الخلاف، والنظر المتأني العميق في دوافع كل من الفريقين

---

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) انظر تخريجه في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب عند بحثنا في التفسير في عهد الصحابة.

يظهر تقارب وجهات النظر بينهما، حتى يكاد يبقى الخلاف بصورة لفظية، (فالرأي) عند أهل الأثر هو الهوى الذي لا يضبطه ضابط، وهو بهذا المعنى مكروه من الفريقين، بينما (الرأي) عند القائلين بالتفسير بالرأي هو الاجتهاد المقيد بقيود وإعمال الفكر في كتاب الله على ضوء هداه وشرح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

* * *

اشترط العلماء القائلون بالتفسير بالرأي أن تتوافر في المفسر القدرة التي تمكنه من التفسير، ولا بد أن يكون المفسر ملماً بعلوم اللغة وعلوم القرآن والعلوم الاسلامية والعلوم الاجتماعية العامة، هذا بالاضافة إلى اشتراطهم في المفسر أن يكون ورعاً يخاف الله وذا إمكانات عقلية جيدة مما ذكرناه في مبحث أصول التفسير.

إذا كان التفسير بالرأي ضمن هذه الحدود فان الحق يقضي بقبوله وإقراره، وهو الشيء الطبيعي الذي يقتضيه التفاعل مع الكتاب الكريم، واستنطاقه في شؤوننا المعاصرة. ولا بد من الاشارة الى أن أتباع الفرق الضالة التي عملت في التفسير كانت تعتمد التفسير بالرأي لتنفذ عن طريقه إلى نشر ضلالاتها وآرائها المنحرفة.

وقد يكون كلام الذين أنكروا التفسير بالرأي إنكاراً عنيفاً، قد يكون كلامهم نتيجة لاطلاعهم على كلام هؤلاء المنحرفين والله أعلم.

* * *

تفسير الرازي

كتب التفسير بالرأي كثيرة من أهمها: «الكشاف» و «تفسير الرازي» و «تفسير البيضاوي» و «النسفي» و «الخازن»... وسندرس فيما يأتي تفسير الرازي:

ترجمته:[1]

هو محمد بن عمر التيمي البكري أبو عبد الله، فخر الدين الرازي ولد في الري سنة ٥٤٤ هـ ونسب اليها[2]، وهو قرشي النسب.

---

(١) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» و «البداية والنهاية» ٥٥/١٣ و«ميزان الاعتدال» ٣٤٠/٣ و«لسان الميزان» ٤٢٦/٤ و«شذرات الذهب» ٢١/٥ و«النجوم الزاهرة» ١٩٧/٦ و«الوافي بالوفيات» ٢٤٨/٤ و«طبقات الشافعية» ٨١/٨ و«مفتاح السعادة» ١١٦/٢ و«تاريخ الخلفاء» للقفطي ٢٩١ و«تاريخ ابن الوردي» ١٢٧/٢ و«ذيل الروضتين» ٦٨ و«طبقات المفسرين» للسيوطي ٣٩ و«طبقات المفسرين» للداودي ٢١٣/٢ و«الكامل» ١٣٣/١٢ و«هدية العارفين» ١٠٧/٢.

(٢) الريُّ مدينة مشهورة، وقد نسب إليها عدد من العلماء، وهي الآن تابعة لطهران ومتصلة بها بالمباني والعمران.
وذكر لي زميلي محمد صديق العوضي أنَّ العامَّة هناك يسمونها (شاه عبد العظيم) لأنَّ هذا الرجل مدفون فيها.
وفي تعليل وجود الزاي بالنسبة إليها نقل العوضي أسطورة عن معجم فارسي معروف هو «برهان قاطع» أوردها على سبيل الطرفة، وملخص هذه الأسطورة أنَّ رجلين بنيا هذه المدينة القديمة أحدهما (ري) والآخر (راز) واختلفا في تسمية المدينة، وكل منهما يريد=

رحل في طلب العلم، واستطاع أن يبلغ فيه المنزلة العالية، فقد كان متفوقاً في العلوم العقلية والنقلية، وكان طبيباً مشهوراً، وكان واعظاً بارعاً، وكان يحسن الفارسية، وله شعر بها وبالعربية. وكان صاحب وقار، له هيئة جميلة، اذا ركب مشى معه نحو الثلاثمائة. توفي في هراة سنة ٦٠٦ هـ.

ألف كتباً كثيرة في عدد من العلوم، وله طريقة في التأليف خاصة به، لم يسبق اليها، ولا شكَّ أنّ كتابه في التفسير أشهر كتبه، وله كتاب آخر مشهور وهو في علم الكلام وهو «تأسيس التقديس» وقد ألّف ابن تيمية كتاباً جليلاً في الرد عليه وهو «نقض التأسيس»[١]. ولقد أحصى مترجموه كتبه فكانت شيئاً كثيراً. ذكر له الاستاذ محي الدين عبد الحميد خمسين مؤلفاً عربياً وأشار إلى مؤلفاته بالفارسية[٢] وزاد الاستاذ عبد الله الصاوي على ما ذكر محي الدين ٢٣ كتاباً.

كتاب «مفاتيح الغيب»:

١ ـ جاء الرازي في زمن أصبحت فيه للثقافة الاسلامية فلسفة مستقلة متميزة، حيث ضعف سلطان المعتزلة، ولم يعد الفلاسفة الذين هم امتداد الفلسفة اليونانية هم وحدهم في الميدان.

وقد تأثر الرازي بعصره وبهذه الفلسفة، كما تأثر ببعض الشخصيات أمثال الغزالي والجويني والباقلاني، ولم يلبث أن أصبح الرازي أحد أساطين هذه الثقافة الاسلامية، لقد تطلع الى أن يضع القرآن العظيم موضع الدراسة

= أن يسميها باسمه، وتوسط ناس في حل النزاع فسموا المدينة (الري) وقالوا إن النسبة إليها (رازي). وهي أسطورة لا تصح.

(١) طبع كتاب ابن تيمية في مكة بتحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم سنة ١٣٩١ هـ.

(٢) انظر مقدمة الاستاذ محي الدين لتفسير الرازي طبع المطبعة المصرية سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣).

والبحث والتحليل، على منهج يكشف تفوق القرآن على سائر الطرائق الفلسفية، وانفراده بالقدرة على هداية البشر الى غايات الحكمة.

قال الرازي في وصيته[1] التي أملاها قبل موته:

(لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفية). ونقل ابن الصلاح عن الطوعاني عن الرازي قريباً من هذا الكلام[1].

ومن أجل ذلك كان يرى أنه ينبغي على الناس أن يلتفتوا الى القرآن وحده، ليجدوا فيه الحق... وقد وضع لهم تفسيره هذا ليكون معواناً لهم على تبصر هذه الحكمة السامية في الهداية.

٢ ـ وطريقة الرازي في التفسير: ان يفسر الآية من نواح متعددة لغة وبلاغة وفقهاً وما الى ذلك. ثم يأتي بعد ذلك الى الاستنباط، فيذكر المسائل التي يمكن أن تبحث بما يوحيه النص ويشير اليه.

وكان مولعاً بكثرة الاستنباطات، يدل على ذلك قوله في مقدمة تفسيره:

(اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن سورة الفاتحة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب).

٣ ـ يبدو أنه لم يؤلف كتابه متسلسلًا على أنه كتاب واحد، ولم يتبع

---

(١) انظر الوصية كاملة في «طبقات الشافعية» ٨/٩٠ وفي آخر ترجمته التي كتبها عبدالله الصاوي في آخر الجزء ٣٢ من «تفسير الرازي» ص ٢١٥.

(٢) انظر «شذرات الذهب» ٥/٢١ ـ ٢٢.

في تفسير السور ترتيب المصحف، يستنتج هذا من التواريخ التي وضعها المؤلف في نهاية عدد من السور.

فقد ذكر أنه انتهى من سورة في تاريخ معين، ثم ذكر في السورة التي ترتيبها في المصحف بعدها أنه انتهى من تفسيرها في تاريخ يسبق ذلك التاريخ.

وهكذا فكأنه كان يَعُدُّ تفسير كل سورة بحد ذاته كتاباً مستقلاً، وترى ذلك واضحاً في مقدمة سورة الفاتحة.

٤ ـ في الكتاب كلام يتصل بالمؤلف وأحواله في مناظراته ورحلاته، فمن ذلك مثلاً ما جاء في نهاية سورة يونس حيث قال:

(يقول جامع الكتاب: ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الاصم رجب سنة إحدى وستمائة، وكنت ضيق الصدر، كثير الحزن، بسبب وفاة الولد الصالح محمد، أفاض الله على روحه وجسده أنوار المغفرة والرحمة، وأنا ألتمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين، أن يخص ذلك المسكين بالدعاء والرحمة والغفران، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد، وآله وصحبه أجمعين).

ومن ذلك ذكر رحلته الى خوارزم، وإيراد مناظرة جرت له هناك مع بعض النصارى. جاء في تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾ (١) (اتفق لي حين كنت بخوارزم أن أخبرت أنه جاء نصراني يدعي التحقيق والتعمق في مذهبهم، فذهبت اليه وشرعنا في الحديث...) وساق جدله في مسألة الوهية المسيح والسؤال عن بطلان ذلك بأوجه قال في ختام تقريرها:

(وعند ذلك انقطع النصراني ولم يبق له كلام).

---

(١) سورة آل عمران: ٦١.

٥ ـ لم يكن المؤلف متعصباً لمذهبه الشافعي، فهو مثلا عندما تعرض لآية الصدقات قال: (هذه الآية لا دلالة فيها على قول الشافعي...).

٦ ـ يمتاز هذا التفسير بالبحوث الواسعة الفياضة في نواحٍ شتى من العلم، حتى صدقت فيه كلمة ابن خلكان: (إنه جمع فيه كل غريب وغريبة).

٧ ـ يذهب بعض العلماء[1] إلى أنه لم يتم الكتاب بنفسه، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

ـ أنهم وجدوا في الكتاب بعض المقاطع التي تدل على أن كاتبها غير الفخر الرازي، فمن ذلك ما جاء عند قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾[2]: (المسألة الأولى أصولية ذكرها الامام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها) ثم قال: (وقد أجاب عنه الامام فخر الدين ـ رحمه الله ـ بأجوبة كثيرة، وأظن به أنه لم يذكر ما أقوله فيه).

ـ في أول الكتاب لا يحيل المؤلف قارئه على بحث تقدم، وتكثر هذه الاحالات في القسم الأخير من الكتاب.

ولكن الشيخ ابن عاشور يرى رأياً آخر عبَّر عنه بالكلمات التالية: (إن الرازي لما انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير، تمكن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي، وبقي شيء في الأمالي والمسودات بيد بعض تلاميذه، فأقبل على تصنيفه وتحريره، وألحق في ذلك الفرع بالأصل، فالكتاب بروحه هو للرازي كله، وبتحريره هو من وضعه في الأول

---

(١) من هؤلاء العلماء ابن حجر في «الدرر الكامنة» جـ ١ ص ٣٠٤، وابن خلكان في «وفياته» وابن قاضي شهبة وحاجي خليفة في «كشف الظنون» ٢/١٧٥٦.

(٢) سورة الواقعة: ٢٤.

ووضع تلميذه.. في الآخر)[1].

وإدراج بعض الكلام من النساخ في كثير من الكتب أمر موجود بكثرة في كتب ثقافتنا الاسلامية، وهو هنا محتمل الوجود جداً، فليس بعيداً أن يكون الناسخ من أهل العلم، وقد زاد بعض العبارات بما لا يخرج بالكتاب عن أصله وروح مؤلفه.

٨ ـ قيمة الكتاب تبدو في أنه أول محاولة ناجحة لانتزاع علم التفسير من الطائفتين اللتين احتكرتا هذا العلم وهما: طائفة المحدثين وطائفة الأدباء المعنيين بالبلاغة، وهذه المحاولة مكنت طائفتين أخريين أن تشتغلا فيه وهما المختصون في أصول الدين (التوحيد وعلم الكلام) والمختصون في أصول الفقه.

والرازي من أهل هذين الفنين كما رأينا، وقد جعل أتباعه من العلماء في هذين الحقلين يخوضون في التفسير، وبذلك اتجهت كتب التفسير وجهة جديدة.

٩ ـ لا يترك مسألة من مسائل الاعتزال تتصل بما هو في صدد تفسيره إلا ويعرضها ويرد عليهم، وينقض حججهم، ويقرر مذهب أهل السنة.

ويتعرض كثيراً لأقوال الفلاسفة ويرد عليهم، وإن كانت طريقته في البحث على نمطهم واسلوبهم، ويأخذ ابن حجر عليه تقصيره في رد أقوال أهل الضلالات بعد أن يعرضها عرضاً جيداً[2]. وكذلك فقد انتقده الذهبي وأبو حيان والسيوطي.

قال الذهبي: [بل يطالع المدرسون تفسير الفخر الرازي، وفيه إشكالات وتشكيكات لا ينبغي سماعها، فإنها تحير وتمرض ولا تشفي

(١) «التفسير ورجاله» للشيخ محمد بن عاشور ص ٩٠.
(٢) «لسان الميزان» ٤/٤٢٧.

غليلاً. نسأل الله العافية][1].

وقال السيوطي: [الامام فخر الدين قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشُبهها، وخرج من شيءٍ إلى شيءٍ حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية. قال أبو حيان في «البحر»: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال العلماء: فيه كل شيءٍ إلا التفسير][2].

١٠ ـ يكثر من الاستطراد إلى العلوم الكونية والفلكية.

١١ ـ يهتم بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور أيضاً، وهو لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة، بل كثيراً ما يذكر أكثر من مناسبة.

---

(١) «بيان زغل العلم» ١٩ ـ ٢٠.

(٢) «الاتقان» ٢/١٩٠ أقول: ونقله عن العلماء قولهم فيه: (فيه كل شيء إلا التفسير) كلمة ظالمة يردها التأمل الواعي في كتابه.

الفصل الرابع

التفسير العلميّ

من مدارس التفسير التي شاعت في هذا العصر ما يدعى «التفسير العلمي»(1).

---

(١) من المصادر التي بحثت في موضوع التفسير العلمي:

- التفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد ـ دار المعارف بمصر.
- من الآيات العلمية لعبد الرزاق نوفل (الأنجلو مصرية ١٩٦٦ م).
- القرآن والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل (الكتاب العربي بيروت دون تاريخ)
- القرآن والعلم لأحمد سليمان (دار العودة بيروت ١٩٧٨ م)
- القرآن يتحدى لأحمد عز الدين عبد الله خلف الله (السعادة مصر ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م).
- سنن الله الكونية لمحمد أحمد الغمراوي. وبين الدين والعلم للغمراوي.
- الاسلام والطب الحديث لعبد العزيز اسماعيل.
- الاسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي ـ دار الكتب الحديثة سنة ١٩٧٨ م.
- ما دلّ عليه القرآن للألوسي ـ طبع المكتب الاسلامي.
- الدين والعلم للمشير أحمد عزت باشا وقد علّق عليه عبد الوهاب عزام وحمزة طاهر.
- الاسلام يتحدى لوحيد الدين خان ترجمة ظفر الاسلام خان من ٢٠٥ ـ ٢٢٧.
- الفلسفة القرآنية للعقاد (فصل القرآن والعلم) و (فصل تفسير القرآن في العصر الحديث)
- العلوم الطبيعية في القرآن ليوسف مروة (بيروت ١٣٨٧ ـ ١٩٦٨ م).
- مطابقة المخترعات العصرية لما أخبر به سيد البرية للغماري. مكتبة القاهرة سنة ١٣٨٧.
- من إشارة العلوم في القرآن الكريم، عبد العزيز سيد الأهل ـ دار النهضة الحديثة بيروت ١٣٩٢.

وللتفسير العلمي جذور في ثقافتنا التفسيرية القديمة التي خلفها السلف، ونستطيع أن نعد الغزالي في «الإحياء»[1] و«جواهر القرآن» و«القسطاس المستقيم» و«الحكمة في مخلوقات الله»، والرازي في «مفاتيح الغيب» من اوائل الباحثين فيه، وقد سار في هذا السبيل السيوطي حيث عقد باباً في «الاتقان» تحدث فيه عن العلوم المستنبطة من القرآن، ونقل أقوالا لعدد من العلماء في أن كل شيء في القرآن، ثم نقل مقالة أبي الفضل المرسي وغيره في هذا الصدد[2].

ولكننا في مطلع القرن الهجري الرابع عشر نرى هذا اللون من التفسير قد راج ونما، وتوسعت ارجاؤه وتعددت، وتخصص فيه بعض المؤلفين. فما هو؟ وما الرأي فيه؟.

إنه تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية.

ويعتمد هذا التفسير على التوسع في مدلول الكلمات، والآيات القرآنية، والاستيحاء من الكلمة منقطعة عن سياقها في الآية أحياناً، والاعتماد على الإشارات من هنا ومن هناك أحياناً أخرى، ويذهب القائلون به إلى أن الاعجاز إنما يتحقق في الإعجاز العلمي، ويقررون بأسلوب خطابي أن كثيراً من النظريات العلمية الحديثة التي تفتق عنها الذهن البشري المعاصر بعد أجيال من الخبرة والمعرفة، وركام من التجارب، قد سبق إليها القرآن قبل بضعة عشر قرناً وأشار اليها، ويحاولون الاستدلال بتحميل الألفاظ فوق ما تحمل ويتكلفون لذلك ويتمحلون.

كان الاهتمام بهذا اللون من التفسير نتيجة لانبهار نفر منا بضياء الحضارة الاوروبية، التي فتحنا أعيننا على مخترعاتها وثمرات علومها، فذهب

---

(١) انظر «الاحياء» الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ١/٢٥٩.
(٢) انظر «الاتقان» ٢/١٢٥ - ١٣١.

هذا النفر يتلمس إشارات ذلك في القرآن، ويدعو إلى فهم القرآن على ضوء النظريات الحديثة، كأن ما وصلت اليه هذه الحضارة حقائق ثابتة.

ومن أبرز هؤلاء الشيخ طنطاوي جوهري[1] في تفسيره الذي سنتحدث عنه بعد قليل.

والحق أنَّ هذا الاتجاه من التفسير غير سديد، وذلك لأن العلم في قلق وتغيير دائم، وتطور مستمر، ينقض اليوم ما أقره بالأمس، والحقائق العلمية تبقى ثابتة في نظر العلماء حتى تدحضها حقائق اخرى، أما الفرضيات والنظريات فهي منذ أول وهلة في نظرهم لا تعد من الحقائق في شيء.

فكيف يجوز في المنهج الصحيح أن يحتكم في آيات الله التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها إلى تلك النظريات القلقة، والحقائق المعرضة للتغير؟

وقد عالج هذا الموضوع بعمق وأصالة الاستاذ سيد قطب رحمه الله فقال[2]:

(ولم يجيء القرآن ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي.. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يتلمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم.

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب، ووظيفته ومجال عمله. إن مجاله هو النفس الانسانية، والحياة الانسانية. وإن وظيفته أن ينشيء تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الانسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور

---

(١) سنورد ترجمته بعد قليل.

(٢) «في ظلال القرآن» ٢/٩٥ - ٩٩.

نظاماً للحياة، يسمح للانسان أن يستخدم كل طاقاته.. ومن بينها طاقته العقلية، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للانسان - وبالتجريب والتطبيق تصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الانسان ذاته: تصوره واعتقاده، ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته.. أما العلوم المادية، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه، فهي موكولة إلى عقل الانسان، وتجاربه، وكشوفه، وفروضه، ونظرياته. بما أنها أساس خلافته في الأرض، وبما أنه مهيأ لها بطبيعة تكوينه.. والقرآن يصحح له فطرته كي لا تنحرف ولا تفسد؟ ويصحح له النظام الذي يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة له، ويزوده بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطه بخالقه وتناسق تكوينه، وطبيعة العلاقة القائمة بين أجزائه - وهو أي الانسان أحد أجزائه - ثم يدع له أن يعمل في إدراك الجزئيات والانتفاع بها في خلافته... ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتي.

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه.

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه. وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها.. لأنه هو الانسان ذاته، الذي يكتشف هذه المعلومات وينتفع بها.. والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الانسان. والقرآن يعالج بناء هذا الانسان نفسه. بناء شخصه وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الانساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه

الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الانسان السليم التصور والتفكير والشعور ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب ويخطىء ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب. وقد ضمن له موازين للتصور والتدبر والتفكير الصحيح.

كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه.. لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه (حقائق علمية) مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الانساني ـ أياً كانت الأدوات المتاحة له ـ فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها.. فمن الخطأ المنهجي ـ بحكم المنهج العلمي الانساني ذاته ـ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري.

هذا بالقياس الى (الحقائق العلمية).. والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى (علمية).. ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات الخاصة بنشأة الانسان وأطواره، وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها.. فهذه كلها ليست (حقائق علمية) حتى بالقياس الانساني. وإنما هي نظريات وفروض. كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق. ومن ثم فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والاضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة.

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة ـ أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا ـ تحتوي أولا على خطأ منهجي أساسي.. كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم:

الأول: هو الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن، والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم. أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقيقته. والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الانسان، وعقله، وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

والثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته. وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة، تعالج بناء الانسان، بناء يتفق ـ بقدر ما تسمح طبيعة الانسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الالهي، حتى لا يصطدم الانسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته. نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة.

والثالث: هو التأويل المستمر ـ مع التمحل والتكلف ـ لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات، التي لا تثبت ولا تستقر. وكل يوم يجد فيها جديد. وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن، كما انه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا.

ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكتشفه العلم من نظريات ـ ومن حقائق ـ عن الكون والحياة والانسان في فهم القرآن.. كلا. إن هذا ليس هو الذي عنينا بذلك البيان. ولقد قال الله سبحانه: ﴿سنريهم آياتنا في

الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق﴾[1].. ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله، وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا.

فكيف؟ ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة؟ هنا ينفع المثال:

يقول القرآن الكريم مثلا: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرا﴾[2].. ثم تكشف الملاحظات العلمية ان هناك موافقات دقيقة، وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون.. الأرض بهيئتها هذه، وببعد الشمس عنها هذا البعد، وبعد القمر عنها هذا البعد، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وبسرعة حركتها هذه، وبميل محورها هذا، وبتكوين سطحها هذا.. وبآلاف من الخصائص[3].. هي التي تصلح للحياة وتوائمها.. فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة، ولا مصادفة غير مقصودة.. هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرا﴾[4] وتعميقه في تصورنا.. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه.. وهكذا..

هذا جائز ومطلوب.. ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علمياً هذه الأمثلة الأخرى: يقول القرآن الكريم: ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين﴾[5].. ثم توجد نظرية في النشوء والارتقاء لوالاس وداروين تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة، وأن هذه الخلية نشأت في الماء، وأنها تطورت حتى انتهت الى خلق الانسان.. فنحمل نحن على هذا النص

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة الفرقان: ٢.

(٣) أنظر مقالا في ذلك في كتاب «العلم يدعو للايمان».

(٤) سورة الفرقان: ٢.

(٥) سورة المؤمنون: ١٢.

القرآني، ونلهث وراء النظرية لنقول: هذا هو الذي عناه القرآن.

لا.. إن هذه النظرية أولا ليست نهائية. فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان، ما يكاد يغيرها نهائياً. وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه، ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ما كاد يبطلها. وهي معرضة للنقض والبطلان.. بينما الحقيقة القرآنية نهائية. وليس من الضروري أن يكون هذا معناها. فهي تثبت فقط أصل نشأة الانسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة. وهي نهائية في النقطة التي تستهدفها وهي أصل النشأة الانسانية... وكفى.. ولا زيادة.

ويقول القرآن الكريم: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾[1].. فيثبت حقيقة نهائية عن الشمس، وهي أنها تجري.. ويقول العلم: إن الشمس تجري بالنسبة لما حولها من النجوم بسرعة قدرت بنحو ١٢ ميلا في الثانية، ولكنها في دورانها مع المجرة التي هي واحدة من نجومها تجري جميعاً بسرعة ١٧٠ ميلا في الثانية.. ولكن هذه الملاحظات الفلكية ليست هي عين مدلول الآية القرآنية. إنّ هذه تعطينا حقيقة نسبية غير نهائية، قابلة للتعديل أو البطلان.. أما الآية القرآنية فتعطينا حقيقة نهائية - في أن الشمس تجري - وكفى.. فلا نعلق هذه بتلك أبداً..

وحسبنا هذا الاستطراد بهذه المناسبة فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح في الانتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها، دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق.. وفرق بين هذا وذاك).

قال الأستاذ محمود شلتوت:

(... طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقنوا أو

---

(١) سورة يس: ٣٨.

تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها، أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون القرآن على مقتضاها...)[1]

ثم قال:

(هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك؛ لأنَّ الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم، ودقائق الفنون، وأنواع المعارف.

وهي خاطئة من غير شك؛ لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

وهي خاطئة؛ لأنها تعرِّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان...)[2].

وكذلك فقد أشار الأستاذ محمد الصادق عرجون إلى فساد هذا المنهج فقال:

(وحاول بعضهم إخضاع آيات القرآن لنظريات زعم أصحابها أنه قد استقام لها الاستدلال، وأصبحت علماً مقرراً لا يحتمل الشك والارتياب، مع أنها نظريات لا تزال يعوزها الاستقرار العلمي، وتفتقد البرهان الذي يرفعها إلى مظنونات الحقائق بَلْهَ اليقين)[3].

إنَّ من الأمور النافعة مما يتصل باتجاه التفسير العلمي أن نقرر حقيقة لا شك فيها هي أن هذا الكتاب الكريم لم يرد فيه ما يتعارض مع ما انتهى إليه البحث العلمي الحديث، وأن الحقائق التي أشار إليها بصراحة تُعَدُّ من قبيل المعجزات التي تدل على أن هذا الكتاب من عند الله.

---

(١) «تفسير القرآن» ص ١١ ط ٤ سنة ١٩٦٦.
(٢) «تفسير القرآن» ص ١٣ ط ٤ سنة ١٩٦٦.
(٣) «نحو فهم لتفسير القرآن» ص١٩ ط الدار السعودية للنشر ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م).

وتقدم بعض الدراسات العلمية للقرآن الشواهد الكثيرة على ذلك، مع استبعادنا لتكلف التأويل، ولحمل الآيات عن طريق الإشارة على بعض النظريات العلمية المكتشفة.

وقد توفر على هذا المعنى المفكر الفرنسي موريس بوكاي، فكتب كتاباً وازن فيه بين الكتب الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن. وقد ترجم مرتين في وقت واحد سنة ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) إحداهما في بيروت بعنوان «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» والأخرى في القاهرة (دار المعارف) بعنوان «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ولم تذكر اسماء المترجمين في الطبعتين. ثم ترجمه الشيخ حسن خالد مفتي لبنان رحمه الله وطبعه المكتب الإسلامي في بيروت ١٤٠٧ بعنوان: التوراة والانجيل والقرآن والعلم.

وخرج هذا المؤلف بأنَّ الكتاب الذي هو من عند الله هو القرآن وحده، لأنه لم يأت فيه ما يعارض حقائق العلم، أما ما بأيدي الناس من كتب يصفونها بأنها مقدسة ويدعونها التوراة والإنجيل فهي مملوءة بخرافات وأباطيل لا يمكن أن تكون منزلة من عند الله.

إنَّ مثل هذه الدراسة تمثل جانباً من جوانب الجدة في هذا القرآن الكريم.. وقد جاء في وصفه أنه لا تنقضي عجائبه. وأحسب أن البشر سيكتشفون جوانب متعددة في هذا الكتاب العظيم كلما تقدَّم الزمان.

والشيء الذي نحذره هو التكلف والتمحل، وتحميل آيات القرآن ما لا تحمل، وأن يتخذ هذا المنهج ذريعة لصرف الناس عن ابتغاء الهدى الكامن في ثناياه، والانزلاق في بعض المزالق الفكرية المنحرفة التي تنادي بها بعض الفرق الضالة.

وإذا أمِنَّا هذا المحذور فربما كانت هذه الجوانب من البحث سبباً من أسباب إقناع نفر من الناس بالإيمان بهذا الكتاب ورسالته والدخول في الإسلام، وإن كنت أحسب أن هؤلاء قليل.

إنَّ الذي يضمن لنا اقتناع الناس بكتابنا وديننا هو التزامنا نحن المسلمين بما جاء في هذا الكتاب وتطبيقه في حياتنا، وأن نكون أقوياء أعزاء متحررين من العبودية المادية والمعنوية لأعدائنا. إنَّ هذا هو الذي يقنع الناس الراغبين في الخير والحق.

تفسير طنطاوي جوهري

هناك عدد من العلماء المعاصرين اتجهوا هذا الاتجاه في تفسير القرآن، وقد أشرنا إلى بعضهم في أول هذا البحث ولا شك في أن الشيخ طنطاوي جوهري أشهرهم، ولعله كان أكثرهم كتابة في هذا الموضوع، ولعله أشدُّهم تطرفاً.

قال الأستاذ حنفي أحمد:

(... الذي أفاض ـ يريد طنطاوي ـ فيه وأسهب، وبيَّن كثيراً من العلوم المختلفة التي تشير إليها الآيات، ولم يحاول الجمع بينها، فخفي بذلك كثيرٌ من حقيقة ومقدار العلم المنزل فيها، وعلى كل حال فقد كان ـ رحمه الله ـ من المجتهدين)(١).

ولد الأستاذ طنطاوي في قرية من قرى الشرقية بمصر سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) وتعلم في الأزهر، ودرس الانكليزية، ثم عمل في التدريس بمحتلف درجاته، وتوفي سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٤٠ م) وترك كتباً عديدة من أشهرها تفسيره، وسنورد بعض ملاحظاتنا حول هذا التفسير.

وليس من شك عندي أنه ـ رحمه الله ـ كان يريد الخير ويسعى إليه، وربما أخطأ طريقه، وأنه كان يريد أن يُمكِّن للإسلام، وأن يسود العالم

---

(١) «التفسير العلمي للآيات الكونية» ص٧.

وينتشر في الدنيا، وأن يعود المسلمون إلى دينهم لتعود إليهم عزتهم ومكانتهم. ولذلك فلم يكن يتراءى له أمل في جهة من الجهات إلا ويسارع إليهاويتعاون معها، ولعلّ هذا المعنى هو الذي حمله على معاضدة الأستاذ حسن البنا في حركته الإسلامية الإصلاحية.(١)

وتتضح رغبته في الخير في كتاباته كما تشهد بذلك آثاره التي تركها(٢) وتتضح هذه الرغبة أيضاً في كتابة الذين تحدثوا عنه ومنهم الأستاذ حسن البنا(٣)، ومنهم الدكتور طه حسين(٤) الذي كان من تلامذته في الجامعة وهو وإن أساء إليه وانتقده فقد صوّره صورة الانسان الساذج المحب للخير الراغب فيه.

أما ملاحظاتنا على تفسيره فهي:

١ - عنوان تفسيره: «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» ويقع في ٢٦ جزءاً.

٢ - غرضه من تفسيره اصلاحي على أساس العلم والأخذ بمنجزاته والسير في طريقه، فهو - كما يقول - يرجو أن ينسج على منوال هذا التفسير المسلمون، وأن يفوقوا الفرنجة في الزراعة والطب والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات.

وكان بإمكانه أن يصل إلى ذلك عن طريق تأليف كتاب يحمل هذه الدعوة، أما أن يعمد إلى القرآن يحمله ذلك فهذا فيه نظر.

٣ - يدعو بأسلوب خطابي إلى أن يتعلم المسلمون العلوم الكونية، ويستدل لذلك بأن الآيات المتصلة بالفقه لا تزيد على (١٥٠) آية. يقول:

---

(١) انظر «مذكرات الدعوة والداعية» تأليف حسن البنا ص ١٦٨.

(٢) انظر كتبه في «الأعلام» و«معجم المطبوعات» لسركيس.

(٣) انظر مواضع عدة من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية».

(٤) «مذكرات طه حسين».

(لماذا كثر التأليف في الفقه، وقلّ جداً في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة... فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة. ويجهلوا علماً آياته كثيرة جداً؟ إن آباءنا برعوا في الفقه فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات)[1].

ويقول في موضع آخر:

(يا أمة الإسلام آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات. فما بالكم بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. لماذا لا نفعل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟.. إنك تقرأ في هذا «التفسير» خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه فانها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر.. إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجاهلون المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام)[2].

٤ ـ كتابه يختلف عن الكتب الأخرى التي خاضت في موضوع التفسير العلمي، فتلك عالجت الموضوع من خلال بحث في آية أو آيات، أو عرضت للموضوع عامة. أما الأستاذ طنطاوي فقد فسر القرآن من أوله إلى آخره، يوجز في الأمور الشرعية ويتوسع في الأمور العلمية. إنه يفسر الآيات تفسيراً لفظياً مختصراً.. ثم يدخل في بحوث علمية (لطائف) أو (جواهر)، وهذه البحوث تتضمن أقوال عدد كبير من علماء الشرق والغرب في العصر الحديث، وقد جاء بها المؤلف ليبين أن القرآن قد سبق إلى هذه البحوث، ونبه على تلك العلوم، قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة. ونراه يضع في تفسيره كثيراً من صور النباتات والحيوانات

---

(١) «تفسير الجواهر» لطنطاوي جوهري. جـ ٥٣/٢٥.

(٢) «تفسير الجواهر» لطنطاوي جوهري جـ ١٩/٣ واننا لنأسف لهذه اللهجة التي لا تتفق وأخلاق العلماء الذين يعرفون لأسلافهم قدرهم وفضلهم. وكلامه لا يخلو من مغالطة وسطحية واضحتين.

ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم. والأمر الذي نستغربه أشد الاستغراب ان الرجل يتحدث في غير اختصاصه ولذلك فقد وقع في أخطاء علمية كبيرة ومضحكة.

٥ ـ يستشهد بنصوص لأناس متقدمين، مثل اخوان الصفا في رسائلهم (١)، وأفلاطون في جمهوريته، وقد يستشهد بما جاء في الأناجيل ولا سيما إنجيل برنابا (٢).

٦ ـ يستخرج كثيراً من الأمور والعلوم بواسطة حساب الجمل (٣) وهذا أمر غريب، فكيف يستقيم للفكر العلمي أن يتوصل إلى بعض العلوم عن طريق جمع قيم الحروف.

٧ ـ يستنتج من الآيات استنتاجات غريبة جداً ولأضْرِبْ على ذلك مثالاً واحداً:

يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ألم﴾: [الأسرار الكيميائية في الحروف الهجائية للأمم الاسلامية في أوائل السور القرآنية] يقول في هذا البحث: (أنظر رعاك الله.. تأمل.. يقول الله: ا . ل . م . طس . حم وهكذا يقول لنا: أيها الناس إن الحروف الهجائية إليها تحلل الكلمات اللغوية، فما

---

(١) وإخوان الصفا هؤلاء قوم من أئمة القرامطة ـ كما قرر ذلك ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» ٥/١٠ وفي فتواه عن النصيرية ص١٩ طبع دار الإفتاء في الرياض ـ ورسائلهم احدى وخمسون رسالة، وفيها أساطير وفساد، وإسفاف وإلحاد، ويثني عليها مستشرقون ونصارى ومستعربون.

(٢) انظر ما كتبه حول هذا الانجيل محمد أبو زهرة في كتابه القيم «محاضرات في النصرانية» ص ٥٦ ـ ٦٧ وقد طبع هذا الانجيل السيد رشيد رضا.

(٣) حساب الجمل هو أن نأخذ مجموع قيم الحروف فيكون مجموعها مثلا موافقاً لتاريخ معين. وكثيراً ما يستعمل هذا الحساب في ذكر ولادة بعض الناس أو وفاتهم. وطريقة حسابه كما يلي: يعطى الحرف الأول من الحروف الأبجدية على ترتيب (أبجد، هوز، حطي) قيمة ١ والثاني قيمة ٢.. وهكذا حتى العشرة ثم تعطى الحروف الآتية قيم ٢٠، ٣٠، ٤٠ حتى المئة وتعطى الحروف الآتية قيم ٢٠٠، ٣٠٠ وهكذا.

من لغة في الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية.. ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها، وهذا هو القانون المسنون في سائر العلوم والفنون. ولا جرم ان العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغـويـة مقدمة في التعليم، لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية، فإذا كانت العلوم التي هي آلة لغيرها، لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها، فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهي أولى بالتحليل، وأجدر بإرجاعها إلى أصـولها الأوليـة. لا يُعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر، وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم)[1].

٨ ـ كان الرجل معجباً جداً بتفسيره، ولذلك فأنت ترى له تعقيبات على كلامه الذي يفسر به الآيات، وهذه التعقيبات مفعمة بالثناء على نفسه يقول:

(بمثل هذا تُفَسَّرُ هذه الآيات.. بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله).

٩ ـ خُدِعَ المؤلف بباطل صانعي الروحية الحديثة التي تدَّعي قدرتها على تحضير الأرواح. يقول الدكتور محمد حسين: (فـأوسـع تفسيره نقلاً عـن مزاعمهم ودعاواهم مما أدخل الضعف والفساد على كتابه ذاك في كثير من المواضع)[2].

---

(١) «الجواهر» ٢/١٠ ـ ١١.

(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» ص ٣٠٩ ط ٢ نشر مكتبة المنار بالكويت سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م).

الفصل الخامس

المنحى الإصلاحيّ الاجتماعيّ في التفسير

كان العالم الاسلامي في القرون المتأخرة ينطوي على كثير من عوامل الضعف والتخلف، وكان الجهل بأحكام الاسلام ومفاهيمه من جهة، واستحكام العادات المحلية من جهة أخرى، من أبرز ما يميز الوضع الاجتماعي والفكري لهذا العالم.

وقد كان هذا الواقع سبباً لقيام حركات اصلاحية عديدة، نجح بعضها نجاحاً ترك أثراً كبيراً في حياة المسلمين مثل حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي استطاعت أن تسيطر على جزيرة العرب، وعلى بعض أطراف البلاد العربية الأخرى، والتي تركت أعمق الآثار الفكرية في أذهان الناشئة المسلمة، من أقصى العالم إلى أقصاه، ويبدو أن هناك حركات أخرى قامت في العالم الاسلامي، ولم تلق من النجاح ما لقيته الحركة الوهابية.

ومن مشكلات العالم الاسلامي التي كانت تستدعي الحل موقفه من الحضارة الاوروبية الغازية، فلقد وقف بعض المسلمين من هذه الحضارة موقف المعجب المأخوذ بها، يسلم لها بكل شيء، ويستسلم لإرادتها، يرى ما ترى، وينكر ما تنكر، وقد أقبل أصحاب هذا الموقف على الثقافة الأوروبية، وتزودوا من علومها الشيء الكثير وحملوا في الوقت نفسه مخازيها ومساوئها، بينما وقف أكثر المسلمين من الحضارة الأوربية موقفاً سلبياً، ودعوا الى تركها، ولم يقبلوا على العلوم الحديثة لصدورها عن أوروبا.

ونستطيع ان نلخص واقع العالم الاسلامي في القرون الأخيرة: الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر بما يأتي:

١ ـ كانت العادات والتقاليد القومية والمحلية لها قدسية في نفوس الجماهير.

٢ ـ كما كانت البدع والخرافات وبعض الطقوس الدخيلة تلبس ثوب الدين، وتخفي وراءه حقيقتها، وتحجب بمساوئها عظمة الاسلام وعدالته ورفعته.

٣ ـ وكان للعامة والغوغاء سلطان كبير، فلا يجرؤ أكثر العلماء على مخالفتهم.

٤ ـ كان أكثر علماء المسلمين يقفون من حضارة الغرب موقفاً سلبياً، لا يقتربون منها ولا يأخذون من علومها شيئاً.

٥ ـ تقاسمت دولُ أوروبا العالَم الاسلاميَّ استعماراً ونفوذاً. وكان في جملة ما أعدت هذه الحضارة الغازية مخططات ومحاولات لتبعد المسلمين عن دينهم... ومن هذه المحاولات ما أعدته الدول المستعمرة لكثير من بلاد المسلمين من مناهج التعليم، وما قدمته من أفكار ونظريات، كالشيوعية والقومية، وكنظرية داروين ونظرية فرويد، وكالدعوة إلى الإلحاد[١] وكتشجيع الحركات الضالة المتسترة برداء من الدين مثل القاديانية[٢] والبهائية والبابية[٣]. وقد استغلت هذه الحركات المشبوهة المساوىء القائمة في بلاد المسلمين وانطلقت صيحاتها تنادي بضرورة الإصلاح.

---

(١) أنظر فصلاً موجزاً كتبه سيد كيلاني عن الالحاد في «ذيل الملل والنحل» ص ٩١ وهو ملحق لكتاب «الملل والنحل» للشهرستاني.

(٢) أنظر «القاديانية» لمحمد الخضر حسين و«ما هي القاديانية» للمودودي و«القادياني والقاديانية» للندوي و«سب القاديانيين للاسلام» لتقي الدين الهلالي و«القاديانية تاريخها وغاياتها» لمظاهري ونوار وما كتبه محمد البهي في «الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار» ص ٢٧ وما جاء في «ذيل الملل والنحل» ص ٥٦.

(٣) أنظر «القاديانية والبهائية» لمحمد الخضر حسين و«حقيقة البابية والبهائية» لمحسن عبد

وكذلك فإن المستشرقين لعبوا دوراً خطيراً في تسميم أفكار الناشئة، ودسِّ السمِّ في الدسم.

هذا بينما كانت هذه الحضارة تنمو صعداً في مجال الدراسات المعتمدة على التجربة، وتقدِّم للناس من ثمرات ذلك مخترعات هائلة، في وسائل الترفيه والتدمير على حدٍّ سواء، فالمدافع والمطابع، والطائرات الحربية والأدوات المنزلية، وما إلى ذلك، كانت تدخل بلاد المسلمين تاركة في نفوسهم إعجاباً بمن اخترعوها، وهم في نوم عميق وتخلف مذهل، وضعف متناهٍ.

وما زال العالم الاسلامي يتطلع الى اتجاه سليم يروم الاصلاح، حتى كان جمال الدين الافغاني الذي قام بحركة فكرية هامة، تصدع بصوت عامر بالايمان، معتز بالقرآن، يدعو الى معالجة الفساد الاجتماعي، والتأخر الفكري والحضاري، وذلك بالرجوع الى الاسلام الحق، وتحكيم نصوصه الثابتة من الكتاب والسنة. فكان من ذلك الاتجاه إلى إصلاح المجتمع من خلال تفسير آيات القرآن. وقام عدد من العلماء بحمل هذه المهمة مهمة التفسير الاصلاحي الاجتماعي سنذكر منهم الأفغاني ومحمد عبده والسيد محمد رشيد رضا رحمهم الله جميعاً.

جمال الدين الأفغاني

١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ

١٨٣٩ - ١٨٩٧ م

ولد جمال الدين في أسد أباد في افغانستان سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٩ م واسمه محمد بن صفدر، أما جمال الدين فلقبه[١]. وقد طوّف في أنحاء العالم

الحميد و« دراسات عن البابية والبهائية » لكردعلي ومحب الدين الخطيب وعلي منصور ومحمد فاضل.

(١) وذلك على عادة علماء القرون الماضية حيث يتخذ كل منهم لقباً الى جانب اسمه، ومن المتعارف عليه أن يكون اللقب مركباً اضافياً، الجزء الثاني فيه كلمة (الدين)، فابن تيمية اسمه أحمد ولقبه تقي الدين، والسلطان صلاح الدين الايوبي اسمه يوسف.

الاسلامي، يدعو الى اليقظة والى إصلاح الواقع المؤلم الذي كان فيه المسلمون. وقد كان يُطارَدُ من قبل السلطات الاستعمارية، ويهاجم من قبل كثير من الجامدين، واستطاع ان يصل الى مناصب عالية، في افغانستان وايران والدولة العلية.

كان ينشر في جريدة مصر بتوقيع مظهر بن وضاح، أو بتوقيع السيد الحسيني، أو بتوقيع السيد.

وأعظم مراحل حياته أثراً المرحلة التي قضاها في مصر، فقد قصد اليها سنة ١٢٨٨ هـ وتتلمذ عليه فيها عدد من الرجال، من أشهرهم الشيخ محمد عبده، الذي أفاد منه الشيء الكثير، ونفته الحكومة المصرية سنة ١٢٩٦، فواصل جهاده خارج مصر، والتقى مع الشيخ محمد عبده في باريس، حيث أصدرا جريدة العروة الوثقى.

كان يعرف العربية والفارسية والانجليزية والروسية.

وهناك مآخذ على الرجل تنتقد عليه، وسنشير إليها فيما بعد.

جمال الدين والتفسير الاصلاحي:

إن وجوه شبه قامت بين جمال الدين وبين المصلحين الذين تقدموه، وذلك في أساس الدعوة التي يبني الرجل حركته عليها، وهو الرجوع الى الدين.

غير ان الاختلاف بينه وبين اولئك المصلحين هو أن الرجل لم يكن واقفاً فقط على تخلف المسلمين، وانما كان فوق هذا كله مطلعاً على حياة الغرب، وواقع أوروبا المتقدم بالنسبة الى واقع المسلمين، ويبدو أن الفرق بين المستويين كان مذهلاً: رأى عند القوم واقعاً إيجابياً خالياً من كثير من عيوب المسلمين، رأى تحرراً من الخرافات الباطلة، التي سيطرت على كثير منهم، وتكاد تكون معرفته في دقتها بالغة الأوج، فهو قد زار بلاد

المسلمين (الهند ـ الحجاز ـ ايران ـ العراق ـ تركيا...) وزار أيضاً مدن اوروبا (لندن ـ باريس ـ ميونيخ ـ بطرس برغ...).

لقد كان واقع بلاد الغرب ذا أثر كبير في نفس جمال الدين من ناحيتين:

١ ـ الناحية الأولى: تتصل بالتقدم الحضاري والمادي الذي أحرزته أوروبا، وهو يرى أن الأسس التي اعتمدتها حتى اوصلتها الى هذه النتيجة أسس ينادي بها الاسلام ويرتضيها.

٢ ـ والناحية الثانية: تتصل باستعمار أوروبا لبلاد المسلمين، فلقد كان ذلك عاملاً دفعه الى الدعوة الى النهوض والتحرر من التبعية، وكان يأتي بأمثلة تلهب شعور الناس.

وقد تعرض الأفغاني في مجلة العروة الوثقى الى تفسير آيات من القرآن اختارها، فقد كتب سبع عشرة مقالة (من خمس وعشرين) في تفسير سبع عشرة آية من القرآن.

مثل: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (١).

﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ (٢).

﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا﴾ (٣).

يقول جمال الدين:

ان القرآن حي لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، ومن

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.
(٢) سورة الانفال: ٤٦.
(٣) سورة آل عمران: ١١٨.

أصيب من مقته فهو ممقوت، كتاب الله لم ينسخ، فارجعوا اليه، وحكموه في أموالكم وطباعكم، وما الله بغافل عما تعملون.

إن حركتنا الدينية بالدعوة الى القرآن كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها، مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم ان لا يتحركوا الى طلب مجد أو تخلص من ذل.

... القرآن وحده هو سبب الهداية، والعمدة في الدعاية، وما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم، فينبغي أن لا يعول عليه كوحي، وإنما نستأنس به كرأي... ولا نحمله على أكفنا مع القرآن في الدعوة اليه، وارشاد الامم الى تعاليمه.. وتفسيره وإضاعة الوقت في عرضه [1].

يقول الدكتور البهي:

(في سبيل مواجهة هذا الاستعمار طالب جمال الدين بمقاومته، ولأجل هذه المقاومة عمل على إيقاظ روح التضامن الاسلامي عن طريق: طلب التمسك بالقرآن، والغاء العصبية المذهبية، وطرح التقليد، وإعمال الاجتهاد في فهم القرآن، والملاءمة بين مبادئه وظروف الحياة التي يعيش فيها المسلمون، وطرح الخرافات والبدع التي غيرت من جوهر الاسلام، والتي جعلته وسيلة سلبية في الحياة بدلاً من كونه حقيقة واضحة، وقوة ايجابية في السيطرة على الحياة وتوجيهها) [2].

---

(١) «الفكر الاسلامي الحديث» ص ٨٣/٨٤.

(٢) «الفكر الاسلامي الحديث» ص ٨٨.

الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

١٨٤٩ - ١٩٠٥ م

كانت أعظم ثمرة تركها الافغاني شخصية محمد عبده، الذي اتجه الى المنحى الاصلاحي في تفسير القرآن، ومحمد عبده قمة من قمم رجالاتنا في العصر الحاضر، كان له أكبر التأثير في مجال السياسية والدين والمجتمع والفكر.

ولد محمد عبده في شنرا، وهي قرية من قرى مديرية الغربية، من القطر المصري، سنة ١٢٦٦هـ واسمه الكامل محمد عبده بن حسن خيرالله، وتلقى علومه في الجامع الاحمدي، وفي الازهر، ثم اتيحت له فرصة لقاء الشيخ الافغاني، فتأثر به أكبر التأثر كما أسلفنا، وقد عمل مدرساً في الازهر ودار العلوم ومدرسة الالسن، واشتغل في الصحافة، حيث كان يذيع آراءه الاصلاحية، ونفي من مصر بعد اخفاق الثورة العرابية سنة ١٢٩٩ هـ، فأقام في بيروت، ثم ذهب الى باريس، ليصدر مع شيخه الافغاني جريدة «العروة الوثقى» التي عطلت بأمر من الحكومة الفرنسية، بعد أن صدر منها (١٨) عدداً. ولما عاد الى مصر سنة ١٣٠٦ هـ تولى منصب القضاء، ثم جعل مستشاراً في محكمة الاستئناف، ثم شغل منصب مفتي الديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ، وبقي فيه الى آخر حياته، وتوفي بالسرطان سنة ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م.

كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يستلهم هدى القرآن، لارشاد المسلمين، واصلاحهم في جوانب حياتهم كلها، وكان من ذلك ما عرف بالتفسير الاصلاحي الاجتماعي.

ويتبين لنا من دراسة حياة محمد عبده، انه كان ملماً بالأوضاع الاجتماعية العامة، والاتجاهات الفكرية المختلفة، ومشاركاً في العلوم الأساسية، التي

تقوم عليها الحضارة الحديثة، ومدركاً لحقيقة خصوم الاسلام ومخططاتهم.

وهكذا فقد كان محمد عبده أقدر رجال عصره على تصوير الداء، والتفتيش عن الدواء الناجع في آيات القرآن وأحكامه.

واستطاع ان يترك مدرسة في التفسير ذات مكانة وتأثير، كان من أهم رجالها السيد رشيد رضا، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والشيخ أحمد مصطفى المراغي.

كان الشيخ محمد عبده من الناحية الفكرية يدعو الى أمرين:

١ ـ تحرير الفكر من قيد التقليد وكان يدعو الى استئناف الاجتهاد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة والرجوع الى الينابيع الأولى.

٢ ـ اصلاح اللغة العربية.

وكان من الناحية السياسية يركز جهوده في أمرين:

١ ـ كان يدعو الأمة الى معرفة حقها على حاكمها وأن عليها النصح للحاكم.

٢ ـ وكان يدعو الأمة الى مقاومة الاستعمار ومعارضة النفوذ الأجنبي في العالم الاسلامي.

وقد انصرف الرجل الى الجانب العلمي والديني والفكري، وان لذلك دوره في أية محاولة من محاولات الاصلاح لأن الفكر الذي يمد الحركة هو بمثابة الروح.

وقد تأثر الشيخ محمد عبده باللون الثقافي الذي تلقاه في الازهر. وباللون الروحي الذي تلقاه عن الشيخ درويش خضر الذي كان متصلاً بالحركة السنوسية. وباللون السياسي الذي تلقاه عن جمال الدين الافغاني وكانت دعوته الاصلاحية نامية متعددة الجوانب:

دعا الى اصلاح التعليم والأزهر. والى نبذ الفرقة وإلى الاجتماع وترك التعصب المذهبي وترك البدع وبناء الحياة على أساس الاسلام. ودعا الى قيام الأمة بالنصح للحاكم والى أن تعمل على التحرر من سلطان الاستعمار الغربي.

دعا الى أن يحيى الحاكم الشورى والى الأخذ بوسائل القوة التي تتبناها الدول الحديثة وتقوية الروح الجماعية.

يقول الشيخ محمد عبده:

ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا فنحيا بما كان قد أحياهم، ونترك ما ابتدعه اخلافهم مما اماتهم واماتنا معهم(١).

ويقول أيضاً:

فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي امرهم إلا إرجاعهم إليه، وما لم تقرع صيحته اعماق قلوبهم، وتزلزل هزته رواسي طباعهم، فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم. ولا بد أن يُؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الابل ممن نزل القرآن بلغتهم، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفاً باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي(٢).

آثاره في التفسير:

١ ـ تفسير جزء عمّ.

---

(١) «تاريخ الامام» ٢/٤١١ نقلاً عن كتاب «الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار» للدكتور البهي ص ١٤٦.

(٢) «تاريخ الامام» ٢/٥١٥ نقلاً عن كتاب «الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار» للدكتور البهي ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

٢ ـ تفسير سورة العصر: القاه على علماء مدينة الجزائر ووجْهائها سنة ١٣٢١ هـ.

٣ ـ بحوث تفسيرية كان ينشرها هنا وهناك.

٤ ـ تفسير المنار: من أوله الى الآية ١٢٦ من سورة النساء، وهذا الاخير مصوغ باسلوب السيد رشيد رضا، الذي كان يحضر الدروس، ثم يكتبها بلغته ويدفعها الى المطبعة ويطلع عليها الاستاذ الامام بعد جمع الحروف وقبل الطبع[١].

طريقته في التفسير:

١ ـ كان يلح في تفسيره على ان القرآن الكريم كتاب هداية، يرشد الناس الى ما فيه سعادتهم، وانتظام أمورهم في الدنيا، والى ما فيه فوزهم ونجاتهم في الآخرة، فعلى الذين يريدون ان يفسروا القرآن أن يولوا هذا الجانب العناية الكبرى، لأنه هو المهم، وكل ما عداه من مثل علوم الآلة[٢] وسواها فينبغي ان يكون تابعاً له ووسيلة.

ومن أجل ذلك فقد كان يشن حملة عنيفة على أولئك المفسرين، الذين يغرقون في بحوث نحوية وبلاغية وفقهية ومنطقية، ولا يلتفتون الى المقصد الأهم في القرآن.

وكان يرى أن يقتصر في تلك البحوث على المهم فقط.

٢ ـ كان يقرر ان المنهج السليم في التفسير أن نجعل القرآن مصدراً لعقائدنا ومذاهبنا لا ان تكون عقائدنا ومذاهبنا متحكمة في القرآن، وتفصيل هذه الخاصة يتضح من النظر في كتب التفسير التي ألفتها الفرق

---

(١) مقدمة «تفسير المنار» ١/١٥.

(٢) علوم الآلة تطلق على عدد من العلوم المساعدة في تقويم اللسان وتنظيم الفكر كالنحو والصرف والبلاغة والمنطق وما الى ذلك.

المتعددة ففي هذه الكتب نجد كل فرقة تجر آيات القرآن الى ما يؤيد عقائدها ومذاهبها.

٣ - وكان يصدر في تفسيره عن تحرر من المذاهب، ويهاجم التقليد، ويدعو الى تحطيم فكرة اغلاق باب الاجتهاد، ويكثر من الكلام حول هاتين النقطتين.

٤ - كان يتوسع فيما أغفله المفسرون، أو قصروا فيه، ويختصر فيما توسعوا فيه من مباحث النحو والاعراب والبلاغة.

أما موقفه من كتب التفسير المتقدمة، فمما لا شك فيه ان الرجل قد درس هذه الكتب ووعى معظمها، وانتفع بها انتفاعاً كبيراً، ولكنه تبل القاء درسه لم يكن يقرأ في شيء منها، حتى لا يتأثر، وان كان تلميذه السيد رشيد رضا يقول: انه كان يتوكأ على عبارة الجلالين[١].

٥ - كان يقف من الاسرائيليات موقف الناقد لا يرتضي أن يأخذها ويوردها في التفسير.

٦ - وكذلك فإن الاحاديث الضعيفة والموضوعة، قلما كانت ترد في تفسيره، على أن الرجل لم يكن في علم الحديث بدرجة تلميذه السيد رشيد رضا[٢].

٧ - وكان للحرية العقلية شأن كبير عنده، حتى أنه ليبيح لنفسه ان يرد قولاً اجتمع عليه جهور العلماء. ويبدو انه كان يسرف في تقدير العقل، ويعطيه من القيمة فوق ما يستحق، ويحمله أكثر مما يطيق.

٨ - لم يخض في تفسيره في تعيين ما أبهمه القرآن، وكان يسلم بالأمور

---

(١) «تفسير المنار» ١/١٥.

(٢) أنظر «السنة ومكانتها في التشريع» ط٢ ص٣٠.

الغيبية، ولا يتحدث عنها الا بمقدار ما توحي به النصوص الشرعية الصحيحة.

هذا أصل من أصوله يدركها دارس آثاره في التفسير، على انه كان يخالف هذا الأصل في حالات نادرة، تحت تأثير الناحية العقلية عليه(١). ولم يكن يرضى التفسير الاشاري الذي تعتمده الباطنية والصوفية، والذي اعتمدت عليه مدرسة التفسير العلمي كما رأيت.

٩ ـ نهج في تفسيره منهجاً أدبياً اجتماعياً، فكان يكشف عن بلاغة القرآن بأسلوب مشرق جذاب، ويعالج مشاكل المسلمين بما يرشد إليه القرآن، ويتعرض الى سنن الله الكونية فيبينها، ويبين أن القرآن متمش مع هذه السنن لا يصادمها، لانها من مستلزمات الفطرة.

١٠ ـ في تفسيره استجلاء لحكم التشريع العديدة، التي كانت مقصودة من الاحكام الواردة في آيات القرآن، كما كان في تفسيره ردود على الملحدين من الاوروبيين، وردود على الجامدين من المتدينين.

كلمة في الضجة حول محمد عبده وجمال الدين:

أما هذه الضجة القائمة الآن حول اتهامات توجه للسيد جمال الدين وتلميذه الامام الشيخ محمد عبده فان رأينا فيها كما يلي:

١ ـ ليس هناك أحد معصوم، فلا ننفي عنهما الاغلاط، بل ان لديهما عدداً من الآراء والاجتهادات لا نقرهما عليها، وما أكثر الهفوات التي يقع فيها الزعماء والعلماء في كل عصر.

٢ ـ كثير من النقاد الذين يثيرون هذه الضجة يغفلون الزمن والظروف

---

(١) أنظر ردّ محمد الصادق عرجون على الشيخ محمد عبده في صدد تفسيره لسورة الفيل ص ٣٢ ـ ٣٦ من كتابه «نحو منهج لتفسير القرآن» ورده عليه في تفسيره للملائكة والشياطين ص ٣٧ ـ ٣٩.

الاجتماعية والسياسية التي كانت تحيط بالمسلمين، فالحضارة الاوروبية التي بهرتهما لم تكن بعد قد ظهرت على حقيقتها، ولم يسبق أن احتك المسلمون بها كما حصل فيما بعد، ولم تكن الحضارة الاوروبية قد انقسمت على نفسها هذا الانقسام الذي نشهده الآن، والذي نرى من خلاله المعايب والنقائص التي تنطوي عليها حضارة اوروبا. كل معسكر يكشف عن عوار المعسكر المقابل.

٣ - يبالغ بعض هؤلاء النقاد في ذكر هذه العيوب، ويعتمدون على حجج واهية، وقد يذهبون في تحميل بعض الالفاظ ما لا يحتمل.

٤ - يغفلون النواحي الخيّرة الطيبة في الرجلين[1] ويبدون معايبهما، ويقلبون محاسنهما الى مساوىء وهذا ظلم مبين.

السيد محمد رشيد رضا

١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ

١٨٦٥ - ١٩٣٥ م

لا بد من أن نخص السيد محمد رشيد رضا بكلمة، لأن «تفسير المنار» ينسب إليه أكثر مما ينسب للشيخ محمد عبده، ولأنه من أبلغ تلامذة الشيخ محمد عبده، ومن أوسعهم نشراً لعلمه وآرائه. ولد السيد محمد رشيد بن علي رضا في القلمون، وهي قرية بجانب طرابلس الشام سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م.

وتلقى علومه الأولية في بلاد الشام، ثم رحل الى مصر سنة ١٣١٥ هـ، واتصل بالشيخ محمد عبده، وأصدر مجلة المنار التي كتب فيها تفسير المنار، وتوفي فجأة في مصر سنة ١٣٥٤ هـ/١٩٣٥ م.

---

(١) انظر ما ذكره الندوي عن النواحي الطيبة فيهما، وذلك في كتابه «موقف العالم الاسلامي تجاه الحضارة الغربية» ص ٧٢ الى ٧٥ والسباعي في «السنة ومكانتها» ص ٣٠ ومحمد بهجة الأثري في «الاتجاهات الحديثة في الاسلام» من ٢٧ إلى ٣٦.

مقدار تفسير السيد محمد رشيد رضا:

إنَّ مقدار ما تركه السيد محمد رشيد رضا من التفسير كبير، وإن كان لم يتم تفسير القرآن كله، فقد فسر من أول القرآن إلى ما يقرب من آخر سورة يوسف، اي أكثر من ثلاثة عشر جزءاً من القرآن، وقد استغرق هذا القدر (١٢) مجلداً كبيراً، وينتهي الجزء الثاني عشر عند الآية (٥٣) من سورة يوسف.

ولم يبق من سورة يوسف إلا (١٠) آيات فقط، قام باكمال تفسيرها بعد وفاته استاذنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وطبع تفسير سورة يوسف مستقلاً في جزء يحمل اسم السيد محمد رشيد رضا.

وفسر أيضاً من السور القصيرة السور الآتية: الكوثر، والكافرون، والاخلاص، والمعوذتين.

ومن المتوقع أنه لو كان قد تفرَّغ لتفسير القرآن لأتمه، ولكنه كان يربط التفسير بالمجلة.

ملاحظات حول «تفسير المنار»:

١ ـ القسم الأول من تفسيره ليس له فيه إلا الصياغة، أما الافكار والمعاني فللاستاذ الامام. وقد استقل الشيخ رشيد بكتابة التفسير منذ الآية ١٢٦ من سورة النساء حتى أواخر سورة يوسف حيث توفاه الله.

٢ ـ كان يعنى بتفسير القرآن بالقرآن، ان وجد، وتفسير القرآن بالسنة، واطلاع السيد رشيد على السنة اطلاع جيد يفوق اطلاع شيخه كثيراً.

قال أستاذنا السباعي: [.. ولكنه منذ استلم لواء الاصلاح بعد وفاة الامام محمد عبده وأخذ يخوض غمار الميادين الفقهية والحديثية وغيرهما

وأصبح مرجع المسلمين في أنحاء العالم في كل ما يعرض لهم من مشكلات كثرت بضاعته من الحديث، وخبرته بعلومه حتى غدا آخر الأمر حامل لواء السنة وابرز اعلامها بمصر خاصة][1].

ثم بعد ذلك يستعمل عقله الذي كان متحرراً تحرراً تاماً من كل ما قاله المفسرون. وقد حدّث الاستاذ عبد الرحمن عاصم وهو ابن أخي السيد رشيد رضا أنه لم يكن يقرأ في التفاسير إلا بعد ان ينتهي من كتابة ما فهمه من الآية.

٣ ـ وهدفه من التفسير هو ان يعرض ما جاء في كتاب الله، مما فيه إرشاد للناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيوية والأخروية.

٤ ـ يتبع في تفسيره المنهج الذي تحدثنا عنه في تفسير الشيخ محمد عبده استاذه، ولكنه بعد وفاة شيخه واستقلاله بالعمل خالف هذا المنهج. (بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إليها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها)[2].

٥ ـ كان له استقصاء عجيب ببدع المسلمين التي صرفتهم عن السنة وقعدت بهم عن سبيل المجد.

وكـان كثير الرد على المفسرين، وقد يكون في رده كثير من العنف. وكان يتولى الرد على كثير من الآراء المنحرفة التي تتصدى للاسلام. ومما يؤخذ على الرجل في تفسيره هذا:

(١) «السنة ومكانتها» ط ٢ ص ٣٠.

(٢) «تفسير المنار» ١/١٦.

الاعتداد الزائد بعلمه الذي يجاوز الحد. ومخالفته العلماء في عدد من القضايا. ونقله من الانجيل على الرغم مما يعرف عنه من انكار رواية الاسرائيليات، ومهاجمته المفسرين الذين يتساهلون في هذا الموضوع بعنف شديد.

* * *

الفصل السادس

اتجاهات أخرى

ذكرنا في الفصول السابقة أهم اتجاهات التفسير، وهناك اتجاهات أخرى سنكتفي بالإشارة الموجزة اليها، ويمكن للراغب في التوسع أن يقف على تفصيل القول فيها في الكتب الخاصة في مدارس التفسير.

١ ـ التفسير الموضوعي: وهذا اللون من التفسير يتناول موضوعاً واحداً في القرآن، يعمد المفسر فيه إلى ذكر الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، ويشرحها ويفصل القول فيها، ككتب أحكام القرآن التي جمع مؤلفوها الآيات المتصلة بالاحكام، وهي عديدة أهمها للجصاص ولابن العربي.

وككتب «مجاز القرآن» وهي عديدة أهمها للشريف الرضي والعز بن عبد السلام.

وككتاب «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم.

وككتاب «الإنسان في القرآن» لعباس محمود العقاد.

ب ـ التفسير الاشاري: وهو التفسير الذي يعتمد الاشارة ويستنبط من الكلمة أو الجملة استنباطات كثيرة، وقد برع فيه المتصوفة.

جـ ـ التفسير الفقهي: وهو التفسير الذي يولي موضوع الأحكام الفقهية

عناية خاصة، ويمكن ان نعدّ كتاب القرطبي[1] وكتاب الخطيب الشربيني من الأمثلة عليه.

د ـ أنواع أخر كالتفسير الفلسفي وتفاسير الفرق الضالة وما الى ذلك.

---

(١) وكتابه هو «الجامع لأحكام القرآن» وأنظر دراسة محمد أديب صالح لهذا الكتاب وطريقته في التفسير في كتابه «من الجامع لأحكام القرآن».

خاتمة

عرضنا في الصفحات السابقة لمحات موجزة في القرآن، وكتابته، وتدوينه، واعجازه، وعلومه، وفي اتجاهات المفسرين المختلفة. وأرجو أن أكون بهذه اللمحات قد أوضحت المعالم وأعنت الراغب في التوسع على العودة الى المصادر والأمهات، وأرجو ان تكون هذه الدراسة سبيلاً يدفعنا للعمل بالقرآن، ولتحكيمه في حياتنا، حتى نحوز السعادة الدنيوية والفوز يوم القيامة.

ونسأل الله العلي القدير أن يجعلنا من أهل القرآن ﴿ربنا لا تُـزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

* * *

مراجع الكتاب

- الاتجاهات الحديثة في الاسلام ـ محمد بهجة الأثري ـ المطبعة السلفية بمصر دون تاريخ.
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ـ محمد بن أحمد الدمياطي ـ المطبعة العامرة بمصر سنة ١٢٨٥ هـ.
- الإتقان في علوم القرآن ـ عبد الرحمن السيوطي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م).
- الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ـ بدر الدين الزركشي ـ تحقيق سعيد الأفغاني ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م).
- الإحكام في أصول الأحكام ـ علي بن محمد الآمدي ـ تعليق عبد الرزاق عفيفي ـ المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٤٠٢ هـ.
- إحياء علوم الدين ـ الإمام أبو حامد الغزالي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩م).
- الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية ـ محمد فريد وجدي ـ مطبعة الرغائب بمصر سنة ١٩٣٦م.
- الأركان الأربعة ـ أبو الحسن الندوي ـ مطابع معتوق إخوان بيروت سنة ١٣٨٨ (١٩٦٨).

- أساس البلاغة ـ محمود بن عمر الزمخشري ـ مطبعة أولاد أورفاند بمصر سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م).
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب ـ ابن عبد البر ـ مطبوع أسفل «الاصابة» مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٥٩ م).
- أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني ـ تعليق محمد رشيد رضا ـ القاهرة سنة ١٣٧٩ (١٩٥٩ م).
- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ـ ملا علي القاري ـ تحقيق محمد الصباغ ـ مطبعة دار القلم ببيروت سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م).
- الأسس الأخلاقية ـ أبو الأعلى المودودي ـ ترجمة محمد عاصم حداد ـ مكتبة الشباب المسلم ـ دمشق سنة ١٣٧١ هـ.
- أسس الاقتصاد في الاسلام والنظم المعاصرة ـ أبو الأعلى المودودي ـ ترجمة محمد عاصم الحداد ـ مكتبة الشباب المسلم ـ دمشق سنة ١٩٦٠ م.
- الاسلام في عصر العلم ـ محمد أحمد الغمراوي ـ إعداد الكرداني ـ دار الكتب الحديثة بمصر سنة ١٩٧٨ م.
- الاسلام والطب الحديث ـ عبد العزيز إسماعيل ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ مصر سنة ١٩٥٩.
- الاسلام يتحدّى ـ وحيد الدين خان ـ ترجمة ظفر الاسلام خان ـ بيروت ـ دار البحوث العلمية سنة ١٩٧٠ م.
- الإصابة في تمييز الصحابه ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م).
- أصول الفقه ـ محمد أبو زهرة ـ مطبعة مخيمر ـ القاهرة سنة ١٩٥٧ م.
- أصول الفقه ـ محمد الخضري ـ مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م).
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين الشنقيطي ـ مطبعة المدني بمصر سنة ١٣٨٦ هـ.

- اعتقاد الإمام المنبل، أبي عبدالله أحمد بن حنبل ـ عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ مطبوع في نهاية الجزء الثاني من «طبقات الحنابلة» لأبي يعلى مطبعة السنة المحمدية بمصر ـ دون تاريخ.
- إعجاز القرآن ـ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق سيد أحمد الصقر ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م.
- إعجاز القرآن ـ مصطفى صادق الرافعي ـ نشر المكتبة التجارية الكبرى ـ طبع مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٣٨٤ هـ.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن ـ ابن خالويه الحسين بن أحمد ـ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م).
- إعراب القرآن ـ الزجاج ـ تحقيق ابراهيم الأبياري ـ المؤسسة المصرية العامة سنة ١٩٦٣م.
- الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ مطبعة كوستاتسوماس بمصر ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣ (١٩٥٤).
- اعلام الموقعين ـ ابن القيم ـ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٦٨ م.
- اقتضاء الصراط المستقيم ـ ابن تيمية ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ الطبعة الثانية مطبعة السنة المحمدية بمصر سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م).
- أقسام القرآن ـ ابن القيم ـ المطبعة الميرية ـ مكة المكرمة سنة ١٣٢١ هـ.
- الإكليل في المتشابه والتأويل ـ ابن تيمية ـ المطبعة السلفية في القاهرة سنة ١٣٩٤ هـ.
- إمتاع الأسماع ـ المقريزي ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤١ م.
- إملاء ما منَّ به الرحمن، من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ـ العكبري ـ المطبعة العامرة ـ القاهرة سنة ١٣٠٣هـ.
- الانتصاف ـ ابن المنير ـ مطبوع على هامش الكشاف ـ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر سنة ١٩٤٨م.

- الباعث الحثيث ـ أحمد محمد شاكر ـ مطبعة محمد علي صبيح بمصر ـ الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٧ هـ.
- الباعث على الخلاص من حوادث القصاص ـ الحافظ العراقي ـ تحقيق محمد الصباغ ـ نشر في مجلة «أضواء الشريعة» في الرياض سنة ١٣٩٣ هـ.
- بحث في ترجمة القرآن وأحكامها ـ المراغي ـ نشر صلاح المنجد بيروت سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م).
- البحر المحيط ـ أبو حيان النحوي ـ طبع مصر ـ وأعيد تصويره بالأوفست في بيروت.
- بدائع الفوائد ـ ابن القيم ـ طبعة مصورة عن الطبعة المنيرية بمصر ـ صورتها دار الكتاب العربي بيروت دون تاريخ.
- البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٥١ هـ.
- البدر الطالع ـ الشوكاني ـ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٨ هـ.
- البرهان في أصول الفقه ـ الجويني إمام الحرمين ـ تحقيق عبد العظيم الديب ـ طبع قطر سنة ١٣٩٩ هـ.
- البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان ـ سعدي ياسين ـ المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٣٩٥ هـ.
- البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة إبراهيم عيسى البابي الحلبي بمصر ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م).
- البرهان القاطع في إثبات الصانع ـ محمد بن إبراهيم الوزير ـ المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٩.
- بغية الوعاة ـ السيوطي ـ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦هـ.
- بيان إعجاز القرآن ـ الخطّابي ـ تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام (مطبوع تحت عنوان ثلاث رسائل...).
- بيان زغل العلم ـ الذهبي ـ نشر القدسي ـ مطبعة التوفيق بدمشق سنة ١٣٤٧ هـ.

- بين الأمس واليوم ـ حسن البنّا ـ دار الكتاب العربي بمصر ـ دون تاريخ.
- بين الدين والعلم ـ عبد الرزاق نوفل ـ مكتبة وهبة بمصر ـ دون تاريخ
- بين الدين والعلم ـ محمد أحمد الغمراوي ـ المكتب الفني للنشر بمصر سنة ١٩٥٩.
- تاج العروس في شرح القاموس ـ محمد مرتضى الزبيدي ـ المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ.
- التاج المكلل، من جواهر مآثر الطراز الأول ـ صديق حسن خان ـ المطبعة الهندية العربية ـ بمباي سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣ م).
- تاريخ ابن الوردي ـ (المسمّى: تتمة المختصر في أخبار البشر) المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٨٥ هـ.
- تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان ـ الترجمة العربية ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ م والأجزاء الأخرى.
- تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان ـ الطبعة الألمانية ليدن سنة ١٩٤٩ م.
- تاريخ الأستاذ الإمام ـ محمد رشيد رضا ـ مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٤ هـ ـ سنة ١٣٦٧.
- تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ـ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣١ م.
- تاريخ التراث العربي ـ فؤاد سزكين ـ ترجمة فهمي أبو الفضل ـ المطبعة الثقافية بمصر سنة ١٩٧١ م.
- تاريخ التشريع الاسلامي ـ محمد الخضري ـ المكتبة التجارية الكبرى مطبعة الاستقامة ـ الطبعة السابعة سنة ١٣٨٥ هـ.
- تاريخ الجهمية والمعتزلة ـ جمال الدين القاسمي ـ مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٤٠١ (١٩٨١).
- تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة الفجالة الجديدة سنة ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م).

- تاريخ دمشق - ابن عساكر ظهرت بعض أجزاء مصورة من المخطوطة وانظر (تهذيب تاريخ دمشق).
- تاريخ الطبري - محمد بن جرير - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر دون تاريخ.
- تاريخ القرآن - إبراهيم الأبياري - دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٨٢.
- تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه - محمد طاهر الكردي - مطبعة الفتح بجدّة سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م).
- تأويل مختلف الحديث - ابن قتيبة - تصحيح محمد زهري النجار - مكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٣٨٦ هـ.
- تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - تحقيق سيد صقر - دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٥٤ م.
- التبيان في آداب حملة القرآن - النووي - مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٣٤ م.
- التبيان في إعراب القرآن للعكبري - (انظر: إملاء ما من به الرحمن)
- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن - طاهر الجزائري - مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٣٤ هـ.
- تحفة الأحوذي - المباركفوري - طبع الهند سنة ١٣٤٣.
- تحقيق النصوص ونشرها - عبد السلام هارون - مؤسسة الحلبي بمصر سنة ١٩٦٥ م.
- التدمرية لابن تيمية (انظر: الرسالة التدمرية).
- تذكرة الحفاظ - الذهبي - مصورة بالأوفست في بيروت عن الطبعة الهندية - دون تاريخ.
- التراتيب الإدارية - الكتاني - دار الكتاب العربي ببيروت - دون تاريخ
- ترتيب المدارك - القاضي عياض - مصورة بالأوفست في بيروت - دار مكتبة الحياة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م).

- ترجمة القرآن ـ عبدالله شحادة ـ دار الاعتصام ـ القاهرة سنة ١٩٨٠ م.
- ترجمة القرآن الكريم غرض للسياسة وفتنة في الدين ـ محمد الهياوي ـ مطبعة جريدة المنبر بمصر سنة ١٣٥٥ هـ.
- ترجمة القرآن وما فيها من المفاسد ومنافاة الاسلام ـ محمد رشيد رضا ـ مطبعة المنار سنة ١٩٢٦ م.
- التشريع الإسلامي وحاجتنا إليه ـ محمد الصباغ ـ المكتب الإسلامي بيروت سنة ١٩٧٠ م.
- التصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦
- تعريف عامٌ بدين الاسلام ـ علي الطنطاوي ـ دار الرائد ـ مكة المكرمة سنة ١٣٩٥ هـ.
- تفسير ابن كثير ـ ابن كثير.. مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ـ دون تاريخ.
- تفسير الألوسي ـ المسمى «روح المعاني في تفسير القرآن» ـ المطبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٤٥ هـ.
- التفسير البياني ـ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩.
- تفسير البيضاوي ـ عبدالله بن عمر البيضاوي وعنوانه: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» مطبعة مصطفى محمد بمصر ـ دون تاريخ.
- تفسير الجلالين ـ مكتبة الملاح ـ دمشق سنة ١٣٩٨ (١٩٧٨).
- تفسير سورة الإخلاص ـ ابن تيمية ـ المطبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٥٢ هـ.
- تفسير سورة النور ـ أبو الأعلى المودودي ـ مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٩٥٩ م.
- تفسير الطبري ـ محمد بن جرير ـ تحقيق محمود محمد شاكر دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ م.
- تفسير الطبري ـ محمد بن جرير ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٥٤.

- التفسير العلمي للآيات الكونية ـ حنفي أحمد ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠ م.
- تفسير القاسمي ـ جمال الدين القاسمي ـ صححه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٥٧ م.
- تفسير القرآن ـ محمود شلتوت ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ م.
- تفسير القرطبي ـ محمد بن أحمد القرطبي ـ دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٥.
- تفسير مجاهد ـ تحقيق عبد الرحمن الطاهر السورتي ـ طبع قطر سنة ١٣٩٦ (١٩٧٦).
- تفسير المراغي ـ أحمد مصطفى المراغي ـ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر سنة ١٣٦٥.
- تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا ـ مطبعة المنار سنة ١٣٦٥ ـ سنة ١٣٦٧.
- تفسير النسفي «مدارك التنزيل» ـ دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي بمصر ـ دون تاريخ.
- التفسير ورجاله ـ محمد الفاضل بن عاشور ـ دار الكتب الشرقية ـ تونس سنة ١٩٦٦ م.
- التفسير والمفسرون ـ محمد حسين الذهبي ـ دار الكتب الحديثة بمصر سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦٢ م).
- تقريب السيرة النبوية ـ محمد الشبراوي ـ مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م).
- التكافل الاجتماعي في الإسلام ـ محمد أبو زهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٤ (١٩٦٤ م).
- التكميل في أصول التأويل ـ عبد الحميد الفراهي ـ طبع الهند.
- تناسق الدرر في تناسب السور ـ السيوطي ـ المطبوع في دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٣٩٦ هـ باسم: أسرار ترتيب القرآن.
- التنبيه على حدوث التصحيف ـ حمزة بن حسن الأصفهاني ـ طبع دمشق

- تنزيه الشريعة المرفوعة ـ ابن عراق ـ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبدالله الصديق ـ مطبعة عاطف بمصر سنة ١٣٧٨ هـ.
تنزيه القرآن عن المطاعن ـ القاضي عبد الجبار ـ المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٢٩.
- تنظيم الإسلام للمجتمع ـ محمد أبو زهرة ـ مطبعة المدني بمصر ـ دون تاريخ.
- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ـ الفيروزبادي ـ المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣١٦ هـ.
- تهذيب الأسماء واللغات ـ النووي ـ المطبعة المنيرية بمصر.
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير ـ عبد القادر بدران ـ الطبعة الثانية ـ دار المسيرة بيروت سنة ١٩٧٩ م.
- تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ـ طبع حيدر أباد ـ الهند سنة ١٣٢٥ هـ.
- توجيه النظر ـ طاهر الجزائري ـ المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩١٠ م
- التوراة والانجيل والقرآن والعلم ـ موريس بوكاي ـ بيروت ١٣٩٨ هـ.
- التيسير في القراءات السبع ـ عثمان بن سعيد الداني ـ تحقيق أوتوبرتزل ـ استانبول مطبعة الدولة سنة ١٩٣٠ م.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ـ تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨.
- جامع الأصول ـ المبارك بن محمد بن الأثير ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ دمشق سنة ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م).
- جامع بيان العلم وفضله ـ ابن عبد البر ـ طبعة مصورة بالأوفست عن الطبعة المصرية ـ دون تاريخ.
- الجرح والتعديل ـ ابن أبي حاتم ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٧١ هـ.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ ابن تيمية ـ مطبعة المدني بمصر سنة ١٣٨٣.
- الجواهر في تفسير القرآن ـ طنطاوي جوهري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٥٠ هـ.

- جواهر البيان في علوم القرآن ـ محمد علي سلامة.
- جواهر القرآن ـ الامام الغزالي ـ المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٣٣ م.
- الحجاب ـ أبو الأعلى المودودي ـ ترجمة محمد كاظم ـ دمشق ـ دار الفكر سنة ١٩٥٩ م.
- حدث الأحداث في الإسلام الإقدام على ترجمة القرآن ـ محمد سليمان.
- الحديث النبوي ـ محمد بن لطفي الصباغ ـ الطبعة الثالثة ـ المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٣٩٧ هـ.
- حسن المحاضرة، في أخبار مصر والقاهرة ـ السيوطي ـ المطبعة الشرقية بمصر سنة ١٣٢٧ هـ.
- حصوننا مهددة من داخلها ـ محمد محمد حسين ـ المكتب الاسلامي سنة ١٣٩٧ هـ.
- الحكمة في مخلوقات الله عز وجل ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٥٢ كتب له مقدمة موجزة الشيخ طنطاوي جوهري.
- الحلية ـ أبو نعيم ـ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٥١هـ ـ ١٣٥٧ م.
- الحوادث والبدع ـ محمد بن الوليد الطرطوشي ـ تحقيق محمد الطالبي ـ دار الأصفهاني وشركاه بجدة دون تاريخ.
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ـ سيد قطب ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٦٢ م.
- خطط الشام ـ محمد كرد علي ـ مطبعة الترقي بدمشق سنة١٣٤٣ هـ.
- خطط الشام ـ محمد كرد علي ـ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٣٨٩ هـ
- الخلاصة ـ الخزرجي ـ المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ.
- خلق المسلم ـ محمد الغزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر سنة ١٣٧٩
- درء تعارض العقل والنقل ـ ابن تيمية ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ طبع جامعة الامام في الرياض سنة ١٤٠١ هـ.
- دراسات في التفسير ـ مصطفى زيد ـ ملتزم النشر دار الفكر العربي ـ دار الحمامي للطباعة بمصر سنة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ م.

- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ـ موريس بوكاي ـ دار المعارف القاهرة ـ سنة ١٣٩٨ هـ.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ ابن حجر ـ تحقيق محمد سيد جادالحق ـ مطبعة المدني بمصر سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٦).
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ـ السيوطي ـ المطبعة الاسلامية بالأوفست ـ طهران سنة ١٣٧٧ هـ.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ـ محمد الغزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر سنة ١٩٦٣ م.
- دلائل الاعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق محمد رشيد رضا ـ دار المنار بمصر سنة ١٣٦٧ هـ.
- دلائل الاعجاز مع مقدمة محمود محمد شاكر ـ نشر الخانجي ـ ط مطبعة المدني.
- الدين والعلم ـ أحمد عزت ـ علق عليه عبد الوهاب عزَّام وحمزة طاهر ـ مطبعة لجنة التأليف والنشر بمصر سنة ١٩٥٠ م.
- ديوان أبي حيان ـ تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب ـ بغداد سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م).
- ديوان الحطيئة ـ تحقيق نعمان طه ـ مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م).
- ديوان النابغة ـ إعداد علي ملكي ـ دار الرأي العام ـ بيروت سنة ١٩٦٩ م.
- ذيل الروضتين ـ أبو شامة ـ تصحيح محمد زاهد الكوثري ـ دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٤ م.
- ذيل الملل والنحل ـ سيد كيلاني ـ مطبوع في آخر الملل والنحل للشهرستاني.
- ذيول تذكرة الحفاظ لكل من الحسيني الدمشقي، وابن فهد المكي، والسيوطي، والطهطاوي ـ صورت بالأوفست في بيروت ـ دون تاريخ.
- رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٩٥٨ م.

- رحلة ابن جبير - تحقيق حسين نصار - مكتبة مصر سنة ١٩٥٥ م
- الرد الوافر - ابن ناصر الدين - تحقيق زهير الشاويش - المكتب الاسلامي سنة ١٣٩٣ هـ.
- الرسالة - الشافعي - تحقيق أحمد محمد شاكر - مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٤٠ م.
- الرسالة التدمرية - ابن تيمية - المكتب الاسلامي - الطبعة الثانية بيروت سنة ١٣٩١ هـ.
- الرسالة الشافية في إعجاز القرآن - الجرجاني - تحقيق خلف الله وسلّام (مطبوع تحت عنوان ثلاث رسائل...).
- روضة الناظر - ابن قدامة - مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٤ هـ.
- رياض الصالحين - النووي - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).
- زاد المسير - ابن الجوزي - المكتب الاسلامي - دمشق سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).
- زاد المعاد - ابن القيم - تحقيق الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠١ (١٩٨١).
- سراج القارىء المبتدى، وتذكار المقرىء المنتهي - ابن القاصح - مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٢٧ م.
- سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين - علي محمد الضباع - مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي بمصر سنة ١٣٥٧ هـ.
- السنة ومكانتها في التشريع - مصطفى السباعي - المكتب الاسلامي - بيروت سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).
- سنن ابن ماجه - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م).
- سنن أبي داود - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م).

- سنن الترمذي ـ المطبوع مع تحفة الأحوذي ـ طبع الهند سنة ١٣٤٣.
- سنن الدارمي ـ تحقيق محمد أحمد دهمان ـ مطبعة الاعتدال بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ.
- السنن الكبرى ـ البيهقي ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد الهند سنة ١٣٤٤.
- سنن النسائي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤ م).
- سير أعلام النبلاء ـ تحقيق جماعة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت سنة ١٤٠١ هـ.
- سيرة ابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر سنة ١٩٥٥ م.
- شذرات الذهب ـ ابن العماد ـ مكتبة القدسي بمصر سنة ١٣٥٠ هـ.
- شرح الألفية في السيرة ـ المناوي ـ تحقيق اسماعيل الأنصاري ـ مطبعة النور الرياض.
- شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ـ أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري ـ تحقيق عبد العزيز أحمد ـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م).
- الشفا في حقوق المصطفى ـ عياض ـ الشركة الصحافية العثمانية استانبول سنة ١٣٢٤ هـ.
- صبح الأعشى ـ القلقشندي ـ طبعة مصورة عن الطبعة الأميرية ـ وزارة الثقافة والارشاد بمصر مطابع كوستاتسوماس بالقاهرة ـ دون تاريخ.
- صحيح البخاري ـ محمد بن اسماعيل البخاري ـ تحقيق محمود النواوي وأبي الفضل ابراهيم ومحمد خفاجي مطبعة الفجالة الجديدة بمصر سنة ١٣٧٦ هـ.

- صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٧٤ هـ.
- صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج ـ طبعة مصورة عن طبعة استانبول ـ محمد علي صبيح بمصر ـ دون تاريخ.
- ضحى الاسلام ـ أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية بمصر سنة ١٩٥٦.
- الضعفاء والمتروكون ـ الدارقطني ـ تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ـ المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٤٠٠.
- طبقات الحنابلة ـ أبو يعلى ـ مطبعة السنة المحمدية بمصر سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م).
- طبقات الشافعية ـ السبكي ـ تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٨٣ هـ.
- طبقات فقهاء الشافعية ـ العبادي ـ ليدن ـ بريل سنة ١٩٦٤ م.
- الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ دار بيروت سنة ١٣٩٨ هـ.
- طبقات المفسرين ـ الداودي ـ تحقيق علي محمد عمر ـ نشر مكتبة وهبه طبع مطبعة الاستقلال سنة ١٣٩٢ (١٩٧٢).
- طبقات المفسرين ـ السيوطي ـ مكتبة وهبه بمصر سنة ١٩٧٦ م.
- الظاهرة القرآنية ـ مالك بن بني ـ دار الفكر ـ دمشق سنة ١٩٨٠ م.
- العدالة الاجتماعية في الإسلام ـ سيد قطب ـ الطبعة الثامنة ـ لم يذكر فيها اسم المطبعة ولا سنة الطبع.
- العقائد الاسلامية ـ سيد سابق ـ دار الكتب الحديثة بمصر سنة ١٣٨٧ هـ.
- العلم ـ أبو خيثمة زهير بن حرب ـ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ـ المطبعة العمومية بدمشق دون تاريخ.
- علم أصول الفقه ـ عبد الوهاب خلاف ـ مطبعة النصر بمصر سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).

- العلم يدعو إلى الايمان ـ كريس موريسون ـ ترجمة محمود صالح العلكي ـ مكتبة النهضة المصرية بمصر سنة ١٩٥٥ .
- العلوم الطبيعية في القرآن ـ يوسف مروة ـ بيروت سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م).
- عمدة التفسير ـ أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦ - ١٩٥٩ .
- عمدة القاري ـ العيني ـ المطبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ.
- عنوان البيان في علوم التبيان ـ محمد حسنين مخلوف ـ مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨٣ (١٩٦٤).
- عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ـ طبع حسام القدس سنة ١٣٥٦ هـ.
- الغارة على العالم الاسلامي ـ شاتبليه ـ ترجمة مساعد اليافي ومحبّ الدين الخطيب ـ طبع جده سنة ١٣٨٧ .
- غاية النهاية في طبقات القراء ـ ابن الجزري ـ تحقيق برجستراسر ـ الخانجي بمصر سنة ١٣٥١ هـ.
- غريب القرآن ـ ابن قتيبة ـ تحقيق سيد أحمد الصقر ـ مطبعة البابي الحلبي مصر سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م).
- غريب القرآن ـ ابن قتيبة ـ الموجود في «غريب القرآن» لابن مطرف ـ مكتبة الخانجي سنة ١٣٥٥ هـ.
- غيث النفع في القراءات السبع ـ علي النوري الصفاقسي ـ مطبوع بذيل سراج القارىء المبتدى لابن القاصح مطبعة حجازي بمصر سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٤ م).
- فتح الباري ـ ابن حجر ـ المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨٠ هـ.
- فتح القدير ـ الشوكاني ـ مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٤٩ هـ.
- الفرق بين الفرق ـ عبد القاهر البغدادي ـ طبعة مصورة بالأوفست ـ منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت سنة ١٩٧٨ .

- العرفان - ابن الخطيب - دار الكتب المصرية بمصر سنة ١٩٤٨ م
- الفرقدان النيران في بعض المباحث المتعلقة بالقرآن - محمد سعيد الباني - مطبعة الحكومة العربية سنة ١٩٢١ بدمشق.
- الفصل في الملل والنحل - ابن حزم - طبعة الخانجي في مصر سنة ١٣٢١ هـ.
- فضائل القرآن - ابن كثير - مطبوع في آخر الجزء الرابع من تفسير ابن كثير - مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٧١ هـ.
- فقه السيرة - محمد الغزالي - تخريج المحدث محمد ناصر الدين الألباني نشر دار الكتب الحديثة - مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٨٤ هـ.
- فقه اللغة - محمد المبارك - مطبعة جامعة دمشق - دون تاريخ.
- الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي - مطابع القصيم بالرياض سنة ١٣٨٩ هـ.
- الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار - محمد البهي - مكتبة وهبه بمصر سنة ١٩٧٥ م.
- الفلسفة القرآنية - عباس محمود العقاد - دار الهلال بمصر سنة١٩٦٦ م.
- الفهرست - ابن النديم - مطبعة الاستقامة بالقاهرة - دون تاريخ.
- فوائد قرآنية - عبد الرحمن السعدي - المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٣٨٩ هـ.
- في أصول النحو - سعيد الأفغاني - دار الفكر بدمشق سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م).
- في سنن الله الكونية - محمد أحمد الغمراوي - مطبعة لجنة التأليف والنشر بمصر سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م).
- في ظلال القرآن - سيد قطب - الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربي بيروت - دون تاريخ.
- في المجتمع الإسلامي - محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي بالقاهرة - دون تاريخ.

- فيض القدير ـ عبد الرؤوف المناوي ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٨ م).
- القادياني والقاديانية ـ أبو الحسن الندوي ـ الدار السعودية للنشر ـ جدة سنة ١٩٧١ م.
- القاموس المحيط ـ الفيروزبادي ـ مطبعة دار المأمون بمصر سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م).
- القرآن المجيد ـ محمد عزة دروزة ـ المطبعة العصرية بصيدا ـ لبنان ـ دون تاريخ.
- القرآن والعلم ـ أحمد محمد سليمان ـ دار العودة بيروت سنة١٩٧٨ م.
- القرآن والعلم الحديث ـ عبد الرزاق نوفل ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ م.
- القرآن يتحدّى ـ أحمد عز الدين عبدالله خلف الله ـ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).
- القرامطة ـ ابن الجوزي ـ تحقيق محمد الصباغ ـ المكتب الاسلامي سنة ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م).
- القسطاس المستقيم ـ الإمام الغزالي ـ مؤسسة الزعبي ـ حمص ـ سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٣ م).
- الكامل ابن الأثير.
- الكامل ـ المبرد.
- كتّاب النبي ـ محمد مصطفى الأغطي ـ المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).
- كتّاب النبي ـ محمد مصطفى الأعظمي ـ شركة الطباعة العربية السعودية بالرياض سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م).
- الكشاف ـ الزمخشري ـ المكتبة التجارية بمصر سنة ١٣٤٥ هـ.
- كشف الظنون ـ حاجي خليفه ـ طبعة مصورة بالأوفست ـ المطبعة الإسلامية بطهران سنة ١٣٨٧ هـ.

- الكشف عن وجوه القراءات ـ مكي بن أبي طالب ـ تحقيق محيي الدين رمضان ـ طَبَعُه المجمع في دمشق سنة ١٩٧٤ م ثم نشرته مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٩٨١ م.
- الكفاية ـ الخطيب البغدادي ـ دار الكتب الحديثة بمصر ـ مطبعة السعادة سنة ١٩٧٢ م.
- الكليات ـ أبو البقاء ـ تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ـ مطبعة وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٧٤ م.
- اللباب في تهذيب الأنساب ـ ابن الأثير ـ طبعة مصورة بالأوفست ـ مكتبة المثنى ببغداد.
- لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر بيروت سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م).
- لسان الميزان ـ ابن حجر ـ طبع حيدر آباد الهند سنة ١٣٢٩ هـ.
- لوامع الأنوار البهية ـ السفاريني ـ مطابع دار الأصفهاني بجدة سنة ١٣٨٠ هـ.
- اللؤلؤ والمرجان ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م).
- ما دل عليه القرآن ـ محمود شكري الألوسي ـ المكتب الاسلامي بدمشق سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠).
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي.
- ما هي القاديانية ـ أبو الأعلى المودودي ـ دار القلم ـ الكويت سنة ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م).
- مباحث في علوم القرآن ـ صبحي الصالح.
- مبادىء أساسية لفهم القرآن ـ أبو الأعلى المودودي ـ ترجمة خليل حامدي ـ دار القلم في الكويت ط ٣ سنة ١٣٩١ (١٩٧١).
- مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار ـ ابن الملك ـ مطبعة أحمد كامل افندي سنة ١٣٢٩ هـ.

- المجتمع الانساني في ظل الاسلام ـ محمد أبو زهرة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- المجروحون من المحدثين والضعفاء ـ ابن حبان ـ طبع دار الوعي بحلب سنة ١٣٩٦.
- مجلات عدة: مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ـ مجلة أضواء الشريعة في الرياض ـ مجلة كلية اللغة العربية وغيرها.
- مجموع الفتاوى ـ ابن تيمية ـ جمع عبد الرحمن قاسم ـ طبع الرياض سنة ١٣٨١ هـ.
- محاضرات في النصرانية ـ محمد أبو زهرة ـ الطبعة الثالثة ـ دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م).
- المحكم في نقط المصاحف ـ الداني ـ تحقيق عزة حسن.
- محمد رسول الله ـ محمد الخضر حسين ـ طبع دمشق سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م).
- مختار الصحاح ـ الرازي ـ مطبعة الترقي دمشق سنة ١٩٣٨ م.
- مختصر السيرة ـ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب.
- المدخل ـ ابن الحاج ـ الطبعة الثانية ـ نشر دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- مدخل إلى القرآن الكريم ـ محمد عبدالله دراز ـ نشر دار القرآن ودار القلم في الكويت ـ مطابع دار القلم بيروت سنة ١٣٩١.
- المدخل لدراسة القرآن ـ محمد أبو شهبة ـ لم يذكر فيه اسم ناشر ولا مطبعة ـ القاهرة سنة ١٩٧٣ م.
- المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن جولد تسهير.
- المذكر والمؤنث ـ الفراء ـ تحقيق رمضان عبد التواب القاهرة ١٩٧٥ م.
- مذكرة التوحيد ـ عبد الرزاق عفيفي ـ المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م).

- المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ـ ابو شامة عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسي ـ تحقيق طيار آلتي قولاج ـ دار صادر بيروت سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م).
- المزهر ـ السيوطي ـ تحقيق جاد المولى وأبو الفضل وعلي البجاوي ـ دار احياء الكتب العربية بمصر دون تاريخ.
- مسألة ترجمة القرآن ـ مصطفى صبري ـ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ.
- المستدرك ـ الحاكم ـ طبع حيدر آباد الهند سنة ١٣٣٣.
- المستصفى ـ الإمام الغزالي.
- المسند ـ أحمد بن حنبل ـ المطبعة الميمنية ـ مصر ١٣١٣ هـ (وأعيد تصويره في المكتب الاسلامي ببيروت).
- مشكاة المصابيح ـ محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ـ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الاسلامي بدمشق سنة ١٣٨٠ هـ.
- المصاحف ـ ابن أبي داود ـ تحقيق آثر جفري ـ المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٦ م.
- مطابقة المخترعات العصرية للآيات القرآنية ـ أحمد بن محمد الغماري ـ مكتبة القاهرة بمصر ـ مطبعة محمد عاطف الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨م).
- المطالع النصرية ـ نصر الهوريني.
- معالم السنن ـ الخطابي ـ تحقيق أحمد شاكر وحامد الفقي ـ مطبعة السنة المحمدية بمصر سنة ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م).
- معالم في الطريق ـ سيد قطب ـ مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).
- معاني القرآن ـ الفراء ـ تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ـ طبعة مصورة بالاوفست أصدرتها دار عالم الكتب ببيروت سنة ١٩٨٠.

- المعجزات المحمدية - وليد الاعظمي - المكتب الاسلامي ببيروت سنة ١٣٩٧ هـ.
- المعجزة الكبرى: القرآن - محمد أبو زهرة - ملتزم النشر دار الفكر العربي - دار الحمامي للطباعة بمصر - دون تاريخ.
- معجم الأدباء - ياقوت الحموي - مطبعة دار المأمون بمصر سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م).
- معجم ألفاظ القرآن الكريم - وضع مجمع اللغة العربية - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بمصر سنة ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م).
- المعجم العربي - حسين نصار.
- معجم المخطوطات المطبوعة - صلاح الدين المنجد.
- معرفة القراء الكبار - الذهبي - تحقيق محمد سيد جاد الحق - مطبعة دار التأليف بمصر سنة ١٩٦٩ نشر دار الكتب الحديثة.
- معرفة القراء الكبار - الذهبي - تحقيق بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤط وصالح مهدي عباس - مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠٤ (١٩٨٤).
- معضلات الاقتصاد وحلُّها في الاسلام - أبو الأعلى المودودي - الدار السعودية للنشر سنة ١٣٨٧.
- مفتاح السعادة - طاشكبري زاده - تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور مطبعة الاستقلال بمصر - دون تاريخ.
- المفردات - الراغب الأصفهاني - المطبعة الميمنية - مصر سنة ١٣٢٤ هـ.
- مقالات الكوثري - مطبعة الأنوار بالقاهرة - دون تاريخ.
- مقاييس اللغة - ابن فارس - تحقيق عبد السلام هارون - دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٧٠ هـ.
- مقدمتان في علوم القرآن -.
- مقدمة ابن خلدون - طبعة بيروت.

- مقدمة ابن خلدون ـ طبعة عبد الرحمن محمد ـ المطبعة البهية المصرية.
- مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق علي عبد الواحد وافي.
- مقدمة في أصول التفسير ـ ابن تيمية ـ تحقيق عدنان زرزور ـ مطابع دار القلم بيروت سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م).
- مقدمة في التفسير ـ حسن البنَّا.
- مقدمة محمود محمد شاكر لكتاب «الظاهرة القرآنية».
- المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار ـ أبو عمرو الداني ـ تحقيق محمد أحمد دهمان مكتب الدراسات الاسلامية بدمشق سنة ١٣٥٩ هـ.
- مناقب الشافعي ـ البيهقي ـ تحقيق سيد أحمد صقر ـ دار النصر للطباعة بمصر سنة ١٣٩١ (١٩٧١).
- مناهج في التفسير ـ مصطفى الصاوي الجويني ـ منشأة المعارف بالاسكندرية.
- مناهل العرفان ـ الزرقاني ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر ـ الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٢ هـ.
- المنتظم ـ ابن الجوزي ـ تحقيق سالم الكرنكاوي ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد في الهند سنة ١٣٥٨ هـ.
- منزلة السنة في الاسلام ـ محمد ناصر الدين الألباني.
- من الآيات العلمية ـ عبد الرزاق نوفل ـ الانجلو مصرية سنة ١٩٦٦.
- من إشارات العلوم في القرآن ـ عبد العزيز سيد الاهل ـ دار النهضة الحديثة ببيروت سنة ١٣٩٢.
- من منهل الادب الخالد ـ محمد المبارك ـ دار الفكر بدمشق سنة ١٣٨٣هـ.
- الموافقات ـ الشاطبي.
- الموطأ ـ مالك بن أنس ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٧٠ هـ.

- موقف العالم الاسلامي تجاه الحضارة الغربية ـ أبو الحسن الندوي ـ مطبعة ندوة العلماء ـ لكنهو ـ الهند سنة ١٣٨٢ (١٩٦٣).
- ميزان الاعتدال ـ الذهبي ـ تحقيق محمد علي البجاوي ـ دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٨٢ هـ.
- النبأ العظيم ـ محمد عبد الله دراز ـ دار القلم بالكويت سنة ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م).
- النبوة اصلاح تقتضيه رحمة الله ـ سعدي ياسين ـ دار العربية ـ بيروت سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م).
- النبوة والانبياء في ضوء القرآن ـ أبو الحسن الندوي ـ مكتبة وهبة بمصر سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥).
- النجوم الزاهرة ـ ابن تغري بردي ـ طبعة دار الكتب المصرية.
- نحو منهج لتفسير القرآن ـ محمد الصادق عرجون ـ طبع الدار السعودية للنشر جدة سنة ١٣٩٢ (١٩٧٢).
- نزهة الألباء ـ ابن الأنباري ـ تحقيق ابراهيم السامرائي ـ مكتبة الأندلس ببغداد.
- النشر ـ ابن الجزري.
- نظام الاسرة في الإسلام ـ مناع القطان.
- النصيرية ـ ابن تيمية ـ طبع دار الافتاء في الرياض ـ دون تاريخ.
- نظام الاسلام: العقيدة والعبادة ـ محمد المبارك ـ دار الفكر بيروت سنة ١٣٩٠ هـ.
- نظرية الاسلام الخلقية ـ أبو الأعلى المودودي ـ مكتبة الشباب المسلم بدمشق ـ المطبعة التعاونية سنة ١٣٧٦ هـ.
- نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور ـ أبو الأعلى المودودي ـ مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٣٨٩ (١٩٦٩).
- نفح الطيب.

– نقض التأسيس ـ ابن تيمية ـ تصحيح محمد عبد الرحمن بن قاسم ـ مطبعة الحكومة ـ مكة سنة ١٣٩١.
– النقط ـ أبو عمرو الداني ـ منشور مع «المقنع» ـ تحقيق محمد أحمد دهمان.
– نكت الانتصار ـ الصيرفي، وهو تلخيص كتاب «الانتصار» للباقلاني تحقيق محمد زغلول سلام منشأة المعارف بالاسكندرية.
– النكت في اعجاز القرآن ـ الرماني ـ تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام (مطبوع في مجموع عنوانه: «ثلاث رسائل في اعجاز القرآن»).
– نكت الهميان في نكت العميان ـ خليل الصفدي ـ تحقيق أحمد زكي ـ المطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٩١١ م.
– النهاية في غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير ـ تحقيق طاهر الزواوي ومحمود الطناحي ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م).
– نور القبس المختصر من المقتبس ـ يوسف بن أحمد اليغموري ـ تحقيق رودولف زلهايم ـ المطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٣٨٤ (١٩٦٤).
– نور اليقين ـ محمد الخضري ـ الطبعة السابعة بمصر ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م).
– هدية العارفين ـ طبعة بالأوفست طهران سنة ١٣٨٧ هـ.
– الوافي بالوفيات ـ خليل الصفدي ـ باعتناء جمعية المستشرقين الألمانية سنة ١٣٨١ هـ وما بعدها.
– الوحدة الاسلامية ـ محمد رشيد رضا ـ بإشراف زهير الشاويش المكتب الاسلامي ببيروت ـ دون تاريخ.
– الوحي المحمدي ـ محمد رشيد رضا.
– الوساطة للجرجاني.
– وفيات الأعيان ـ ابن خلكان.

فهرس الموضوعات

- مقدمة المؤلف ٥
- مقدمة الأستاذ الكبير الشيخ علي الطنطاوي ٩

القسم الأول: القرآن وعلومه ٢١

الباب الأول: القرآن ٢٣

- الفصل الأول: في تعريف القرآن ووصفه ودوره في ماضينا ومستقبلنا ٢٥
  - تعريف القرآن ٢٥
  - وصف القرآن ٢٦
  - خلود القرآن ٢٧
  - دور القرآن في حفظ لغتنا والابقاء على أمتنا ٢٨
  - القرآن أساس الاصلاح وسبب النهضة ٢٩
  - أثر القرآن في البيان والفكر ٣٥
- الفصل الثاني: أسماء القرآن ٣٦
  - القرآن ٣٧
  - الكتاب ٤٠
  - لماذا سمي القرآن (قرآنا) و(كتاباً) ٤١

الفرقان ٤٢

- الفصل الثالث: في الوحي ٤٣

الوحي في اللغة ٤٣

الوحي في الشرع ٤٥

صور الوحي ٤٦

آثار الوحي على الرسول ٥٠

صدق ظاهرة الوحي ٥١

- الفصل الرابع: في تنجيم القرآن ٥٦

موقف المشركين من التنجيم ٥٧

حكم التنجيم وأسراره ٥٨

- الفصل الخامس: في الآية والسورة ٦٧

الآية في اللغة ٦٧

وزنها ٦٨

اشتقاقها ٦٩

جمعها ٦٩

الآية في القرآن ٦٩

كيف تعرف الآيات ٦٩

العلاقة بين المعنى اللغوي والقرآني ٧٠

السورة ٧٠

جمعها ٧١

السورة خاصة بالقرآن ٧١

من سمّى سور القرآن؟ ٧٢

- الفصل السادس: في ترتيب آيات القرآن وسوره ٧٣

لماذا لم ترتب الآيات حسب نزولها؟ ٧٥

ترتيب سور القرآن ٧٦

- الفصل السابع: في إعجاز القرآن ٧٨
المعجزة ٧٨
الإعجاز ٨٠
مدار الإعجاز ٨٥
القول بالصرفة ٩٢
تلخيص ٩٥
ترجمة القرآن ٩٧

الباب الثاني: تاريخ جمع القرآن ٩٩
- الفصل الأول: في كتابة القرآن في عهد النبي ١٠١
- الفصل الثاني: كتابته في عهد أبي بكر ١٠٤
- الفصل الثالث: نسخ المصاحف أيام عثمان ١١٠
كلمة المصحف ١١٠
سبب نسخ المصاحف وطريقة النسخ ١١١
عدد المصاحف العثمانية ١١٦
رأي الصحابة في صنيع عثمان ١١٧
الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان ١١٨
اين المصاحف العثمانية الآن ١١٩
- الفصل الرابع: كتابة المصاحف وتطورها ١٢٥
الإملاء العثماني ١٢٥
تطور هذه الكتابة ١٢٦
كتابة المصحف والرسم العثماني ١٣١
نشر المصحف وطبعه في العصر الحاضر ١٣٧

الباب الثالث: علوم القرآن ١٤١
- الفصل الأول: المكي والمدني ١٤٥

تعريف المكي والمدني ١٤٦
خصائص المكي ١٤٦
خصائص المدني ١٤٧
كيف نعرف المكي من المدني ١٤٨
فوائد معرفة المكي والمدني ١٤٩

- الفصل الثاني: المحكم والمتشابه ١٥١
تعريف المحكم والمتشابه ١٥٢
هل المتشابه مما يمكن معرفته ١٥٣
أنواع المحكم ١٥٥
أنواع المتشابه ١٥٦
التقسيم الأول ١٥٧
التقسيم الثاني ١٥٨
المنحرفون والمتشابه ١٥٨
فوائد المتشابه ١٦١

- الفصل الثالث: القراءات ١٦٤
تعريفها ١٦٤
شروط القراءة الصحيحة ١٦٤
القراءات وهي ١٦٥
حديث الأحرف السبعة ١٦٧
هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف العثمانية؟ ١٧٢
تاريخ القراءات ١٧٣
ملاحظات ١٧٧
حكمة تعدد القراءات ١٧٨
جدول بأسماء القراء السبعة ورواتهم ١٨٠
الملاحظات حول القراء السبعة ١٨١

جدول بأسماء القراء الثلاثة ١٨٢
الملاحظات حول القراء الثلاثة ١٨٣

القسم الثاني: التفسير واتجاهاته ١٨٥

التفسير ١٨٧
التفسير والتأويل ١٨٨

الباب الأول: أصول التفسير ١٩١
العلوم التي يحتاج إليها المفسر ١٩٢
الشروط التي يشترطها العلماء في المفسر ١٩٤
قواعد أصول التفسير ١٩٥

الباب الثاني: تاريخ التفسير ١٩٧
- الفصل الأول: التفسير في عهد النبيّ ١٩٩
- الفصل الثاني: التفسير في عهد الصحابة ٢٠١
ابن عباس ٢٠٢
قيمة تفسير الصحابة ٢٠٥
- الفصل الثالث: التفسير في عهد التابعين ٢٠٨
قيمة تفسير التابعين ٢١٠
ملاحظة ٢١٠
- الفصل الرابع: تاريخ التفسير فيما بعد عهد التابعين ٢١٢

الباب الثالث: اتجاهات التفسير ٢١٧
- الفصل الأول: الاتجاه اللغوي في تفسير القرآن ٢١٩
● القسم المتعلق بمفردات اللغة (أو كتب غريب القرآن) ٢١٩
«غريب القرآن» لابن قتيبة ٢٢٢
«غريب القرآن» للسجستاني ٢٢٤

« المفردات في غريب القرآن » للأصبهاني ٢٢٦
• القسم المتعلق بالنحو والقضايا الإعرابية ٢٣١
« كتاب معاني القرآن » للفرّاء ٢٣٢
تفسير « البحر المحيط » لأبي حيان ٢٣٥
كتب إعراب القرآن ٢٣٧
القواعد التي على معرب القرآن أن يراعيها ٢٣٩
• القسم المتعلق بالأساليب البيانية ٢٤١
« الكشاف » للزمخشري ٢٤٣
« في ظلال القرآن » لسيد قطب ٢٥٠
كتب أخرى في التفسير البياني ٢٥٨
ـ الفصل الثاني : التفسير بالمأثور ٢٦٠
مدرستان ٢٦٠
التفسير بالمأثور ٢٦٠
هل تفسير الصحابة والتابعين من المأثور ؟ ٢٦٣
متى يقبل التفسير بالمأثور ؟ ٢٦٤
أوليته ٢٦٤
الاسرائيليات ٢٦٤
تفسير الطبري ٢٦٩
ترجمته ٢٦٩
تفسيره ٢٧٠
كتب أخرى في التفسير بالمأثور ٢٧٧
كتاب « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير ٢٧٧
ـ الفصل الثالث : التفسير بالرأي ٢٧٩
تفسير الرازي ٢٨٥
ترجمته ٢٨٥

كتاب « مفاتيح الغيب » ٢٨٦
ـ الفصل الرابع : التفسير العلمي ٢٩٢
تفسير الجواهر لطنطاوي جوهري ٣٠٣
ـ الفصل الخامس : المنحى الاصلاحي الاجتماعي في التفسير ٣٠٨
جمال الدين الأفغاني ٣١٠
جمال الدين الأفغاني والتفسير الاصلاحي ٣١١
الشيخ محمد عبده ٣١٤
آثاره في التفسير ٣١٦
السيد محمد رشيد رضا ٣٢٠
مقدار تفسير السيد محمد رشيد رضا ٣٢١
ملاحظات حول تفسير المنار ٣٢١
ـ الفصل السادس : اتجاهات أخرى ٣٢٤
خاتمة ٣٢٦
المصادر والمراجع ٣٢٧
فهرس الموضوعات ٣٥١

من آثار المؤلف المطبوعة

١ ـ الابتعاث ومخاطره.
٢ ـ أبو داود حياته وسننه.
٣ ـ أبو نعيم وكتابه الحلية.
٤ ـ أسماء بنت أبي بكر.
٥ ـ أقوال مأثورة وكلمات جميلة.
٦ ـ أم سُليم.
٧ ـ بحوث في أصول التفسير.
٨ ـ تاريخ القصاص وأثرهم في الحديث النبوي.
٩ ـ تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية.
١٠ ـ التشريع الاسلامي وحاجتنا إليه.
١١ ـ التصوير الفني في الحديث النبوي.
١٢ ـ الحديث النبوي: بلاغته، مصطلحه، كتبه.
١٣ ـ خواطر في الدعوة إلى الله.
١٤ ـ سعيد بن العاص بطل الفتوح وكاتب المصحف.
١٥ ـ فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر.
١٦ ـ لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير.
١٧ ـ معركة شقحب أو معركة مرج الصفر.
١٨ ـ المناهج والأطر التأليفية في تراثنا.
١٩ ـ من أسباب تأخر العمل الاسلامي.
٢٠ ـ من صفات الداعية.
٢١ ـ نداء إلى الدعاة.
٢٢ ـ نظرات في الأسرة المسلمة.

٢٣ ـ وصايا للزوجين.

٢٤ ـ يوم الفرقان يوم بدر.

* * *

٢٥ ـ أحاديث القصاص لابن تيمية (تحقيق).

٢٦ ـ الأسرار المرفوعة لملا علي القاري (تحقيق).

٢٧ ـ الباعث على الخلاص من أحاديث القصاص للحافظ العراقي (تحقيق).

٢٨ ـ تحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطي (تحقيق).

٢٩ ـ الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي (تحقيق).

٣٠ ـ رسالة أبي داود إلى أهل مكة (تحقيق).

٣١ ـ الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة للكرمي (تحقيق).

٣٢ ـ القرامطة لابن الجوزي (تحقيق).

٣٣ ـ القصاص والمذكرون لابن الجوزي (تحقيق).

٣٤ ـ كتاب الضعفاء والمتروكين للدارقطني (تحقيق).

٣٥ ـ مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني (تحقيق).